اقرأ

عدد ممتاز

سلامة موسى

هؤلاء علموني

فولتير
جيت
داروير
فيسما
إبسـ
نيتش
رينـ
دستويفس
ثور
تولستو
فروي
إليوت سمي
ماقلوك إل
جورج
شـ
غاند
ولـ
شقيت
چون دي
سارت



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : السيد أبو النجا



بأسلوب اليوم وتفكير الغد

سلامة موسى

هؤلاء علّموني

« كن رجلا ولا تتبع خطواتي »

« جيته »

اقرأ ٣٤٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٩ – يناير سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

مقدمة

المؤلف الذى نحبه ليس فقط صديقاً نأتنس بآرائه ونستفيد بأفكاره ، إذ هو أكثر من ذلك .

هو بهذه الآراء والأفكار ، يتسلل إلى قلوبنا وعقولنا فيؤثر فى شخصيتنا أو يغيرها . وهو . بهذه المثابة ، نفسى فسيولوجى له دورة حيوية فى وجودنا .

ولكن المؤلف العظيم ، ليس هو الذى يجعلنا نرى الدنيا بعينيه ونشهد على الناس والأشياء بضميره . وإنما هو الذى يعلمنا الاستقلال رائين ومشــاهدين معــاً . وإن لم يكن فى رؤيته وشهادته قد فتح بصيرتنا .

إن كل إنسان كون نفسه . ولذلك له الحق فى أن يسأل فى استقلال ، وأن يجيب فى استقلال ، عما يحس وعما يجد . وهؤلاء المؤلفون الذين تخصصوا فى الرؤية والشهادة جديرون بأن نقرأهم . ولكن يجب أن نحذرهم . وهيهات أن نحذرهم !

ذلك لأن لكل كاتب إيحاءاته التى لا طاقة لنا بالتخلص منها . وأحياناً له إيعازاته التى تندس إلى عقولنا من حيث لا ندرى .

ولكن علينا فى كل حال أن ننشد الاستقلال .

وقد تأثرت بهؤلاء الكتاب الذين ذكرتهم فى هذا الكتاب ، وأحببتهم ، وأعظمتهم ، ووجدت فيهم النور والتوجيه . ولكنى حاولت الاستقلال . وهذا ما أنصح به القارئ الذى يجب أن ينصت إلى قول أمير الأدب ، جيته إذ يقول : « كن رجلا ولا تتبع خطواتى » .

س . م

المؤلفون يغيرون الدنيا

الحياة مشروع نضع تخطيطاته منذ نبدأ الوجدان وندرى ما نفعل . أو هى خارطة نأخذ فى رسمها مدة سبعين أو ثمانين سنة . فنحن المسئولون عن إتمام هذا المشروع أو رسم هذه الخارطة . ومع أننا نعرف من السيكلوجية الحديثة أن سلطة الأبوين ، ووسط العائلة ، وطراز المجتمع الذى نعيش فيه ، وتراثنا البيولوجى — نعرف أن لكل هذا أثره فى تكويننا وتوجيهنا ، فإن النظر إلى الحياة باعتبارها مشروعاً يخطط أو خارطة ترسم ، هذا النظر يستحق الاعتبار . ويجب أن تكون له مكانة فى الطاقة النفسية لكل إنسان . وإذا كانت « الوجودية » تجعل من الفرد ، المسئول الأول عن أعماله ، وتزعم أن هذا فلسفة ، فلا أقل من أن نسلم نحن بهذا الزعم ونهدف منه لا إلى الفلسفة ، ولكن إلى البناء الأخلاقى .

وحسن فى الأخلاق أن نقول إننا مسئولون عما نفعل . وفيما يلى بعض الخطوط التى أنقلها إلى القارئ الشاب عن مشروع حياتى أو خارطتها . فقد يكون فيها عبرة صغيرة إلى جانب الزبد الكثير .

بدأت أرسم خارطة حياتى حوالى عام ١٩٠٦ حين ساء الوسط العائلى وكان يتعقبنى بالعذاب رجل « نيوروزى » جعلنى أبيت وأصبح فى كرب لا يطاق .

ففررت إلى أوربا . وهناك انبسطت لى آفاق ، وحلمت أحلاماً ورأيت رؤى ، وشرعت أدرس اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وأختلط بعناصر جديدة فى المجتمعات والعائلات ، وأقرأ من الكتب ما يشع النور

فى عقلى ويبعث الشجاعة فى قلبى . فقررت من ذلك الوقت ، وأنا حوالى العشرين ، أن أكون متمدناً ومثقفاً . وقب مضى على نحو خمس وأربعين سنة وأنا أعانى الخصومات بسبب هذا القرار السرى !

رأيت شعوباً حرة لكل منها الكلمة العليا التى تتضح فى الانتخابات البرلمانية . ورأيت مشاكل الشعب تدرس فى البرلمان الذى له وحده حق تعيين الوزارات وإسقاطها . ورأيت جرائد تعالج المذاهب وتناقش الساسة ورأيت الاجتماعات التى يجتمع فيها الرجال والنساء ويبحثون فيها مشاكل العالم . ورأيت البيت النظيف ، والشارع النظيف . والكتب العديدة ، والمكتبات المجانية . واختلطت بكل ذلك ، وتحدثت إلى الفرنسيين والإنجليز . وشرعت عندئذ آخذ بأساليب المتمدنين ، وأهدف إلى أهدافهم ، وأدرس وأتعلم وأجول وأتأمل . . .

وعرفت ، فوق ما عرفت ، أن المرأة يمكن أن تكون إنساناً حرًّا لا يختبئ من الدنيا وينظر إليها من صير القفل ، ولكن يواجهها فى شجاعة ، تتعلم وتعمل وتتحمل المسئوليات .

ورأيت جمالا فى الحب بين الشبان والفتيات . . رأيت التمدن ! وعنيت أكبر العناية بتعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، واتصل عقلى عن سبيلهما ، بأكبر العقول القديمة والحديثة . وكثيراً ما كنت أسهر الليل كله حتى الصباح ، وأنا فى لذة الحماسة بقراءة كتاب لنيتشه أو قصة لدستوفسكى أو كتاب للعقليين أعداء القرون المظلمة .

والتحقت بالجمعية الفابية . ورأيت برنارد شو فى لحمه ودمه . وكانت هذه الجمعية تومئ فى بداية هذا القرن إلى منتصفه . وكانت دعوتها إلى الخير والبر ترافقها دعوة أخرى إلى الشرف والشجاعة . وسمعت من منبرها رجالا ونساء من الإنجليز يقولون : « يجب أن نخرج من مصر »

فأحببت الإنجليز . . وكرهت الا ستعمار .

ورأيت بين أعضائها رجالا ونساء يقبلون على الأدب الروسى ويدرسون المشاكل التى خلفها داروين ، ويبحثون « تنازع البقاء » ومعانى « العنصرية » ويتعمقون الطبيعة لاستخراج ما فيها من أخلاق، من تنازع أو تعاون .

ورشحت نظرية التطور إلى وجدانى وتشبعت بها ، فصارت مزاجى وأسلوبى . وكبرت قيمة الإنسان فى نفسى ، لأنى عرفت تاريخه الماضى فى مئات الملايين من السنين كما صرت أحس بتاريخه القادم فى المئات من السنين أيضاً . وتحملت بهذه المعرفة مسئولية وأحسست ديناً . ولم ينقص من قيمة هذا الدين أنى وقفت على مئات الخرافات التى وقع فيها الإنسان لا . . بل إن هذه الخرافات قد زادتنى احتراماً وحباً للإنسان ، إذ هى كانت محاولاته المتكررة للوصول إلى الحقائق . فقد انتقل من السحر إلى العلم ، ومن النجامة إلى الفلكيات ، ومن الكهانة إلى الضمير ، ومن ذلق الرق إلى شرف الإنتاج .

وكان أكبر جزء فى « مشروع » حياتى أنى احترفت الثقافة ، فكانت حرفة وهواية معاً ، لا أبالى ما فيها من تعب وعرق . وقد بنيت بها شخصيتى . وأنضجت بها وجدانى . واستطعت أن أنسلخ من عقائد الطفولة ، وأن أصل إلى اليقين الجديد بهداية داروين وأينشتين . وأصبح عقلى عالمياً عاماً أحس صداقتى لنهرو وخصومتى لتشرشل . وأعنى بدراسة الصحارى ، واحتمال زراعتها فى آسيا وأفريقيا . وأفكر فى مستقبل الأحياء ، وأخشى انقراض بعضها . أجل . أحس أن العالم كله قد أصبح وطنى ، ليس لى حق التفكير فى مصالحه فقط ، بل على هذا الواجب . وثقافتى لذلك ليست عربية أو إنجليزية أو فرنسية ، وإنما هى عالمية . هى فى التاريخ وعلى مستوياته ، قديمة ووسيطة وعصرية ،

مهما اختلفت لغاتها أو مؤلفوها .

ومع أن ثقافتى قد فصلت بينى وبين الكثير من الناس لاختلاف مستوينا ، فإنها بسطت لى آفاقاً شاسعة من الفرح والأمل والتأمل والعبرة. فجعلت حياتى أكثر حيوية ، وحبي للطبيعة أحم وأعمق ، وفهمى للكون أوفى وأنور .

وقد عرفت هذا الفرق بينى وبين سائر الناس حين وقفت أمام الدينصور قبل أربعة شهور فى متحف التاريخ الطبيعي فى باريس . فإنى وقفت عنده وجعلت أدور حوله وأتأمله وأتخيله أكثر من ساعة . وكنت أرى بالطبع الهيكل العظمى فقط لهذا الحيوان الذى كان يعيش على أرضنا قبل نحو مائة مليون سنة ، وكان أكبر من الفيل يزيد عليه فى الجرم نحو أربعة أضعاف . كان لا يختلف كثيراً من السحلية أو الورلة ، وكان يبيض مثلهما . وقد انقرض لأنه كان جسما بلا مخ أو بمخ صغير يفضله مخ البطة أو الكلب ألف مرة . فلما تغير مناخ الدنيا ضاقت حياته . فعجز ومات وانقرض . . .

وقد بقيت شهوراً أقرأ وأفكر فى موضوع الدينصور . ثم فى ماضى النوع البشري ومستقبله بعد إذ دخلنا فى العصر الذرى ، هذا العصر الخطر الذى تكاد تتغير فيه وجهة التطور بإبادة الإنسان ، ثم تحيا الأرض بعد ذلك نحو مليون سنة فى الظلام ، إلى أن يكون الشمبنزى قد تهيأ للسيادة والتسلط عليها !

ومع أنى احترفت الأدب والعلم والثقافة ، فإن هذه جميعها هى عندى حياة كفاح أكثر مما هى حرفة . ولذلك أنا لا أبالى ما يقال عن أسلوب الكتابة ، ولكنى أبالى أسلوب الحياة . ولا أعبأ ببلاغة العبارة ، ولكنى أعنى بأن تكون الحياة بليغة ، بحيث نحيا متعمقين متوسعين .

ومع أنى ألفت نحو خمسة وثلاثين كتاباً فإن كتابى الأول الذى عنيت بتأليفه هو حياتى . هذا المشروع ، هذه الخارطة ، التى رسمتها والتى أعود إليها من وقت لآخر بالمحو والتنقيح والتصحيح . بل إن الكتب التى ألفتها هى فصول من كتابى الأول ، من حياتى .

وليست حياتى هذا العمر القصير الذى أحياه بدمى ولحمى . وإنما هى تعود إلى ألف مليون سنة مضت . ألم أكن سمكة فى يوم ما ؟ ألم أعش على الشجر فى وقت ما ؟ لقد حمل جسمى آثار هذه الملايين من السنين الماضية ولا يزال بعض هذه الآثار واضحاً ، أراه بعينى إلى الآن كما أرى بعينى وأسمع بأذنى كلمات مصر الفرعونية وآثارها فى العقائد العامية بل الشعبية .

وكذلك ليس هذا الماضى هو كل العمر ، فإنى أحمل من الاهتمامات بمستقبل البشر ما يعد هموماً شخصية لى . لأنى أدين بنظرة ، كدت أقول عقيدة ، التطور . ولذلك لا أطيق عبث الأطفال الذين يقيدون حرية الفكر أو يكرهون الكتب أو يؤخرون الصناعة أو يستمسكون بالخرافات والتقاليد المؤذية ، إذ هم أعداء التطور .

ومن أجمل الإحساسات التى أستمتع بها فى فترات اليأس ، والتى تحيل هذا اليأس إلى رجاء ، أن مؤلفاتى وأفكارى ، ومنهجى وكفاحى ، كل هذا لن يموت بعد موتى . إذ هو سيبقى ويؤثر ويوجه ويفتح النوافذ للنور .

وأنا بذلك أتجاوز حياتى . وأحيا بعد موتى .

وقد قرأت أكثر من ألف كتاب . وأخصبت الكتب حياتى ، وجعلتنى مثمراً مضيئاً ، ولكن الكتاب الأول الذى له فضل الصياغة والتوجيه لشخصيتى هو كتاب داروين « أصل الأنواع » فإنه زاد عمرى

من سبعين سنة إلى ألف مليون سنة . وجعلنى أحس الوجدان ، ليس على هذه الأرض فقط ، بل إزاء الكون كله بنجومه وكواكبه وشظايا ذراته وأحس أن للطبيعة أخلاقاً .

هذا هو مشروع ، خارطة حياتى . فما هو مشروعك؟ كيف رسمت ، كيف ترسم ، خارطة حياتك أيها القارئ ؟

هناك زعم أو وهم يقول بأن الساسة يغيرون الدنيا بالاستعمار والحروب والمعاهدات . وقراءتنا المتوالية للصحف تعمم هذا الزعم أو الوهم ، إذ أننا نجد الأسماء البارزة للساسة ، ونقرأ أخبار الحرب الكبرى الأولى ثم الحرب الكبرى الثانية فيتأيد هذا الزعم أو الوهم .

وليس شك فى أن الحروب والمعاهدات تغير — وقد غيرت — الجغرافية السياسية للأقطار . كما أنه ليس شك فى أن المباشرين لهذه التغييرات كانوا من السياسيين أو العسكريين ، ولكن هذه التغيرات لم تكن تصل إلى صميم النفس البشرية .

ومع ذلك عندما نتأمل ونتعمق الأسباب والبواعث لهذه الحروب نجد أنها كانت ثمرة أو نتيجة لابتكارات علمية قام بها مفكرون اخترعوا الآلات ، أو ابتكروا الأساليب ، أو ألفوا الكتب لإعلان نظريات جديدة .

اعتبر هاتين الحربين الكبريين الأخيرتين . فإننا نسمع فيهما عن رجال السياسة ورجال الحرب ، ولكن هؤلاء الرجال قد باشروا هاتين الحربين فقط ولم يكونوا السبب لإثارتها . لأن السبب يرجع إلى الآلة البخارية التى أخرجها رجل مفكر هو جيمس واط فى عام ١٧٧٦ . ذلك أن هذه الآلة قد عممت الإنتاج الكبير ، فى المصنوعات فاحتاج هذا الإنتاج الكبير إلى الحرب والاستعمار .

وما زلنا نحن فى حرب واستعمار بسبب هذه الآلة التى أحدثت ، ولا تزال تحدث ، مزاحمة دموية بين جميع الأمم الصناعية .

والمعنى والدلالة هنا أن السياسى والعسكرى قد سار كلاهما فى أثر المفكر المخترع الذى انبعث إلى التفكير بقوات اجتماعية أخرى .

وقد غيرت الحربان الأخيرتان تخوم الأقطار ، أى غيرت الجغرافية السياسية . ولكنها لم تغير الاتجاه البشرى أو الاتزان النفسى . فالأوربى الآن هو الأوربى الذى يعيش قبل سنة ١٩١٤ من حيث إيمانه أو طموحه أو تفكيره أو عاطفته .

ولكن الدنيا تغيرت بالكتب ، وعندنا على ذلك المثل الأكبر . فإن كتب الدين قد غيرت النفس البشرية إذ عينت لنشاطها اتجاهاً وأكسبتها أهدافاً لم تكن لتعرفها من قبل . وهذا الخلاف الخطير القائم ، الذى قد يؤذن بالحرب الكبرى الثالثة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، كتاب ألفه كارل ماركس . وهناك عشرات من الكتب الأخرى لها مثل هذا الأثر أو ما يقاربه .

ولكن المؤلف المبتدع لا يبنى على الهواء أو يفكر فى الخواء . ذلك لأنه يعيش فى مجتمع معين يكسب منه عواطفه ويتجه اتجاهاته . فإذا كان ذكياً تبلورت فيه بعض الاتجاهات البازغة ، فصار يمايز بينها ويختار أحسنها ، فيدفعها بتفكيره ، ويزيدها بياناً وقوة حتى تتغلب على غيرها من الاتجاهات . وهو بهذه المثابة يتفاعل مع مجتمعه ، فينشأ على أوضاعه ثم يعود فيحاول نشأة جديدة له ، أى للمجتمع .

وهناك كتب قد غيرت نفوسنا كما لو كانت ديانات جديدة . بل إن الاختلاف بشأن نظرياتها يشبه إلى حد كبير الاختلاف الدينى فإن المختلفين على كتب نيتشه فى مذهب القوة يحتدون ويتعصبون . وكتاب

داروين عن أصل الأنواع لا يزال يحدث مصادمات ذهنية بين التقليديين والابتداعيين . فهو كفر مظلم عند أولئك ، وهو رؤيا مثيرة عند هؤلاء

وإنى واحد من أولئك الذين تغيروا بنظرية داروين . . . لأن التطور عندى مذهب سام ، قدس نفسى وغيرنى ووجهنى . وهو ليس عندى تفكيراً فحسب ، وإنما هو إحساس وعاطفة وحب وروحية . فقد كان سبينوزا يقول بالوحدة الوجودية على نحو من المذاهب الصوفية الشرقية ، ولكنه فى ذلك لم يستطع سوى إيجاد الفكرة والفلسفة إذ لم يكن هناك من الأدلة المادية الحسية ما يثبت قوله . أما نظرية التطور فإنها قد غلفت عقولنا ثم استقرت فى عواطفنا ، فهى إحساس وشهوة تنبض بهما عروقنا وتخفق بهما قلوبنا .

وإنى حين أقعد تحت ظل شجرة خضراء وأستسلم للأفكار الخضراء أحس ، بدافع من هذه النظرية ، بتلك الوحدة الوجودية حتى لأقول كما كان يقول ذلك القديس المسيحى : أخى الطير وأخى الشجر وأخى الوحش . بل أحس كأنى أريد أن أنكب على الأرض كما كان يفعل « اليوشا » فى قصة « الأخوة » لدستوفسكى . . هذه الأرض الطيبة ، هذه الأم القديمة .

وهذا كتاب واحد من عشرات الكتب التى غيرتنى . ولم يقتصر التغيير على العقل إذ قد تجاوزه إلى النفس . . فتغيرت رؤياى للدنيا وتغيرت نفسى ومزاجى وعاطفتى . وهو تغيير يحسبه الجاهل كفراً وأحسبه أنا إيماناً .

وهناك كما قات عشرات من الكتب البذرية التى تنمو وتتفرع وتتوالد فى كثرة لم يكن يتوقعها حتى مؤلفها .

اعتبر الفكرة البذرية فى أحد مؤلفات برنارد شو ، وهى أن البشر

يجب أن يهدفوا إلى استنتاج السبرمان الذى سوف يتفوق علينا ذهناً وروحاً وجسما بمقدار ما نتفوق نحن على القردة . ما أطيبها من فكرة وما أبرها من مذهب إنها مذهب من أرقى المذاهب البشرية الجديدة .

أو اعتبر الفكرة البذرية فى كتاب أينشتين . هذا الكون الدائرى، وهذه الطاقة الذرية ، وهذه المادة التى تذوب فى الطاقة ، وهذه الطاقة التى تتكاثف إلى المادة .

بل اعتبر هذه القوة الجديدة فى هذا العلم الجديد : « علم الطاقة الذرية » . فإن المفكرين الذين أحزنهم وهد ضمائرهم إلقاء القنبلة على هيروشيما يسمعون الآن فى طرب محاولة الروس نقل المياه التى تذهب عبثاً وخسارة إلى المحيط القطبى الشمالى إلى بحر قزوين المتاخم لإيران حيث تروى خمسة ملايين فدان تستحيل من صحراء قاحلة كالحة إلى أرض نضرة تبتسم بالخيرات .

وكل هذا من أثر الكتب . إنها لكتب مقدسة هذه التى تغير الدنيا وتغير اللفتة البشرية ، كتب داروين ، ولامارك ، وأينشتين ، وتولستوى، وبرناردشو ، وغاندى وأمثالهم من الذين يرسمون لنا خطوات الفهم والشرف نحو المستقبل . والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين ، وأكل وهضم من موائدهم ، يبصق بصقة الاحتقار على دعاة الرجعية من الكتّاب التافهين . .

والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين وأمثالهم لا يستطيع أن يتسامح فى جريمة القتل أو الفسق أو البطش أو الخيانة . ولكنه يعرف أن هناك جريمة تعلو على جميع هذه الجرائم فى الخسة والنذالة والحقارة والخيانة ، هى الحجر على الذهن البشرى ومنعه من التطور بتعيين الكتب التى لا تقرأ .. هذه هى الخيانة الكبرى للإنسانية .

والحكومة التى تجترئ على مثل هذه الخيانة ، فتمنع كتاباً قيماً من الدخول إلى بلادنا ، أو من الطبع أو التداول ، هى حكومة تخون الإنسانية وتنتهك الفكر البشرى المقدس . وهى بهذا الانتهاك تقاوم الفهم والذكاء عند أبناء الشعب كأنها تحاول أن تجعلهم بالداء أغبياء .

* * *

من الأسئلة التى يضعها كاتب سخيف لقراء سخفاء هذا السؤال : لو أنه حكم عليك بالانفراد سائر عمرك فى جزيرة أو سجن ، أى كتاب كنت ترغب فى اقتنائه حتى تأنس أو تنتفع به ؟

وسخف هذا السؤال يرجع إلى أن العقل العصرى الراقى قد أصبح عقلا مركباً يحتاج إلى التناقض والتناسق ، وإلى المنطق والإيمان ، وإلى الخيال والتعقل ، وإلى التحليل والتركيب ، وإلى الحقائق الموضوعية والأفكار الذاتية . وكل هذا لا يمكن أن يحويه كتاب واحد .

ونحن نختار الكتاب فى العادة كى نتزيد فى معارفنا ، ولكن المعارف الموضوعية هى المادة الخامة للثقافة . إذ ليست الثقافة معارف فقط ، وإنما هى موقف واتجاه وعواطف وعادات فى الحياة والممارسة الفلسفية . وصحيح أن كل هذا ينبنى على المعارف الموضوعية ، ولكن هذه المعارف هى الدرجات الأولى أو الأسس التى نبنى عليها حياتنا الفلسفية .

وهناك من الأذكياء من حظوا بمركبات نفسية تبعثهم على الاستطلاع ، فيجدون فيها الإيحاء والتوجيه دون الحاجة إلى من يرشدهم . ولكن معظم القراء يحتاجون إلى المؤلف الذى يثير الاستطلاع ويبعث إليهم بالخمائر ويوجه ويرشد ، إما لأنهم ليسوا على درجة عالية من الذكاء المتسائل ، وإما لأنهم قد خلوا من تلك المركبات النفسية التى صادفت غيرهم لاختبارات أو كوارث وقعت بهم فكانت المنبه والمحرك لنشاطهم الذهنى .

والمؤلف العظيم الذى يعلمنا هو ذلك الذى يستنبط من المعارف موقفاً فلسفياً جديداً ، أو خطة واتجاهاً جديدين ، للفكر البشرى . والكاتب هو الذى يوجهنا أو يغيرنا ، وأحياناً يتغير القارئ لأنه انساق فى موجة جديدة قد أحدثها كاتب عظيم قد لا يعرفه هذا القارئ ولكن الموجة التى مست غيره قد انتهت إليه فأثرت فيه وأحدثت وقعاً جديداً فى نفسه وعقله .

وليس كل منا ، كما قلنا ، قادراً على الاستنباط الفلسفى من المعارف. أو ليس قادراً على الاستنباط الأمثل . ولذلك نحن نحتاج إلى المؤلفين المستنبطين الذين يبسطون أمامنا آفاقاً جديدة ، أو يرشدوننا إلى دلالات أخرى غير ما تعودنا ، أو يبرزون لنا الفكرة الإيحائية من بين العشرات من الفكرات المألوفة .

وقد تغيرت الثقافة بهؤلاء الكتاب الإيحائيين من عصر لآخر . وبعض العصور يساعد على هذا التغيير ، لأنه بمركباته الاجتماعية المتغيرة ينشط الذهن بل أحياناً يلهبه . فى حين أن العصر الزراعى مثلا يعمم الركود ، فلا ينبه المؤلف . ولذلك يكثر مؤلفو التاريخ ودعاة التقاليد فى المجتمع الزراعى الراكد . أما المجتمع الصناعى أو التجارى المتغير فإنه يبعث المؤلف على بحث الأخلاق والعقائد والأفكار ، وقد يهتدى فى هذا البحث إلى ما يلائم من خطة أو فلسفة أو وجهة جديدة . وهذه هى النهضة .

وحيث تكون النهضات ، كما فى إيطاليا فى القرن السادس عشر ، أو فرنسا فى القرن الثامن عشر ، نجد التساؤل والاستطلاع . ثم الاستنباط تحليلا وتركيباً . فالمؤلف يساط النور والحرارة معاً على المجتمع المتغير الذى يعيش فيه ، فيؤلف عن وجدان اجتماعى وإحساس روحى واختلاق فنى . وقد يحدث من ذلك أحياناً اختلاط وفوضى ، ولكنهما

ليسا أمارة الانحلال وإنما هما علامة النشاط فى مجتمع يمرح مرح الطفولة التى تزخر بالحياة .

وهذا بعكس المجتمع الزراعى حيث ركود التاريخ والتقاليد . فإن مثل هذا المجتمع لا يربى المؤلف المجدد ، بل هو قد يمنع الكتب التجديدية الأجنبية من الانتشار ، ويحظر التفكير فى ميادين دينية أو اقتصادية أو اجتماعية . إذ هو كالمريض يكره الحركة ولا يتمنى أكثر من الهدوء ، ولو كان هدوء الموت . ذلك لأنه لا يجد فى هذا التجديد ما ينبهه تنبيه الصحة ، ولكنه يجد فيه ما يزعجه بل يزلزله .

وعلى القارئ أن يختار الكتب كما يختار المعاملين والأصدقاء الذين ينشد فيهم النور والنار معاً . وهذه الكتب هى التى تخرج به عن مألوفه . وكما يخرج الفقير الذى يعيش فى زقاق محدود إلى الحقول ، فينتعش ويتنفس الهواء الجديد ، كذلك يجب على القارئ أن يخرج عقله من المعارف المألوفة ، أى من الطريق الدهس ، إلى تلك الآفاق الرحبة حيث النور والهواء المنعشان . أجل ، وحيث الوعورة فى الطبيعة البكر التى تبعث على التفكير البكر الوعر .

ولكل عصر مناخه الثقافى ، ولكننا نعيش فى مصر فى مناخ لا يلائم القرن العشرين ، وإنما يلائم القرن العاشر . أجل نحن فى عقم ثقافى . ومن هنا كان تخلفنا الاجتماعى والاقتصادى . ومن هنا أيضاً تفاهة التفكير ، فى المفكر التافه ، حين يقول إن الطربوش شعار وطنى أو إن المكان الطبيعى للمرأة هو البيت ، أو حين يتحدث عن الكم الطويل والكم القصير ، كأن هذا الموضوع يرتفع فى اعتباره إلى مقام المشكلة الفلسطينية .

ومرجع هذا أن هؤلاء المساكين لم يرتقوا بكتاب توجيهى ينقلهم من الركود إلى النشاط ، ولذلك كثيراً ما أقعد إلى أحد هؤلاء فأجد أنه

قد بلغ الستين من السن الزمنية ، ولكنه لا يزيد على صبي فى العاشرة من حيث النضج السيكلوجى . .

ولا أستطيع أن أقول إن الكتب العربية ترتفع إلى مقام يتيح لها تخريج الرجل الناضج الذى يتساءل ويستطلع ، وإن كان هناك قليل من الكتب المترجمة قد يؤدى هذه الخدمة . وقد كان فى مقدورنا أن نترجم نحو مائة كتاب عالمى من تلك الكتب التى غيرت المجتمع ووجهته . ولكن مجتمعنا الزراعى الحاضر يكره هذا التغيير وهذا التوجيه . ولذلك أقول مرة أخرى إننا فى عقم ثقافى لا نلد ولا نتوالد ، ولذلك أقول أيضاً فى صراحة مؤلمة إن القارئ المصرى لن يكون متمديناً ، على ذكاء نشيط وعلى ثقافة عصرية ، إلا إذا درس لغة أوربية واستمد منها حاجته من الكتب العظيمة والمؤلفين العظماء الذين يستنبطون الفكرة الخصبة من المعارف الخامة فينعطف التاريخ ويتغير وجه الأرض . وهؤلاء هم المؤلفون الإيمائيون .

وقد قرأت فى حياتى مئات الكتب التى زادت وجودى فى الدنيا والتى نحوت وتربيت بها . وقد اخترت من مؤلفيها بضعة عشر كان لهم الأثر الأكبر فى ترتيب ذهنى وتنظيم ثقافتى . ولكن اختيارى لهم لا يعنى أنى أشير على القارئ أن يقرأهم ويعرفهم ، لأنى إنما أردت أن أبسط له بعض الأسباب والنتائج فى تكوين شخصيتى ، وأن أشير إلى الأعلام البارزة فى رحلتى الثقافية عبر عمر قد تجاوز السادسة والستين. وبعض هؤلاء المؤلفين قد عرفتهم قبل أربعين سنة . وإنى بالطبع لا أذكرهم هنا إلا لأنهم كانوا اختباراً عميقاً أثر فى نفسى طوال هذه السنين . وللقارئ أن ينتقد ، وأن يعرف من إصاباتى كيف أصبت ، ومن أخطائى كيف أخطأت . ثم بعد ذلك عليه أن يستخرج العبرة ثم يستطلع ويتساءل ويختار . ثم يشق طريقه بنفسه .



ڤولتير
محطم الخـرافات

يهفو الذهن إلى ذكرى ڤولتير كلما هبت على الأمة عواصف الظلام التى تقيد الحرية وتسوغ الاعتقال وتمنع الكتب وتراقب الصحف وتضع الحدود والسدود للعقول ، وتنتهك النفوس البشرية بأفظع مما ينتهك الفاسق الأجسام البشرية .

ذلك لأن ڤولتير عاش من أجل الحرية . وكانت إيماءة حياته احترام الإنسان وكرامة الناس وحريتهم . ومن الحسن أن نقرأ تاريخه ، ومن الأحسن أن يقرأه أولئك الذين حملوا النيابة العامة فى مصر على أن تقوم بأكثر من أربعمائة تحقيق مع الصحف فى أقل من سنتين بين سنة ١٩٤٤ و١٩٤٦ ، ثم بعد ذلك منعوا بعض الكتب الأوربية من الدخول إلى مصر ، كما منعوا بعض المؤلفين من طبع مؤلفاتهم ونشرها .

ولد ڤولتير فى عام ١٦٩٤ ومات فى عام ١٧٧٨ . وتغير تاريخ أوربا بحياته ، إذ نقل هذه القارة من التعصب إلى التسامح ومن التقييد إلى التحرير . وغرس بذلك شجرة الديمقراطية ، وحمل على العقائد والخرافات الضارة فحطمها ، كما بسط الآفاق لحكم العقول ، فظهرت الحكومات المدنية العصرية .

وقد كان ڤولتير يمثل الطبقة الجديدة البازغة ، طبقة الصناعيين والتجاريين الذين شرعوا يأخذون مكان النبلاء فى المجتمع الأوربى ، ومن هنا كان إحساسه بضرورة الحرية واحترام الكرامة البشرية عميقاً ، لأن النبلاء الإقطاعيين كانوا يستعبدون الفلاحين . وعاش ڤولتير طوال عمره وفى نفسه حزازة ، فإن أحد النبلاء استطاع أن يحبسه فى سجن الباستيل وأن يراه وهو يجلد انتقاماً منه لبضعة أبيات من الشعر ألفها عنه ڤولتير . وقد خرج من السجن وهو يبغض النبلاء ويدعو إلى إلغاء النظام الإقطاعى . وسافر إلى إنجلترا وبقى بها أربع سنوات ، فأعجب بشيئين هما الدستور الإنجليزى الذى ينص على أن الحكم للشعب ، وأيضاً العالم الرياضى نيوتن . ولما عاد إلى فرنسا دعا إلى الأخذ بقواعد الدستور الإنجليزى فى الحكم . ولو أن الحاكمين تنبهوا فى ذلك الوقت إلى قيمة هذه الدعوة لعملوا بها . وعندئذ كانوا يتفادون بلا شك من جموح الثورة الفرنسية الكبرى .

وأسوأ ما تصاب به أمة أن يتحد الدين مع الاستبداد ، وأن يتحالف الطغاة مع الكهنة ، بحيث يستند الدين إلى قوة البوليس ، ويستند الاستبداد إلى أساطير الدين . وهذا ما فشا فى فرنسا فى القرن الثامن عشر . فقد صدر قانون فى عام ١٧٥٧ بإعدام المؤلفين الذين يهاجمون الدين . وصحيح أن هذا القانون لم ينفذ ، لأن الذين وضعوه أحسوا بالأخطار التى يستهدفون لها إذا جرءوا على تنفيذه ، ولكن حركة التأليف وقفت أو كادت

بسبب هذا القانون . واستمر إحراق الكتب إلى عام ١٧٨٨ أى قبل الثورة بعام واحد .

ولكن ڤولتير استطاع أن يخرج العشرات من الرسائل الحرة بأسماء مستعارة ، أى مزورة ، كي ينجو من خطر الإعدام . وكان فى هذه الرسائل يحطم الأساطير ويحمل على الطغيان الحكومى والكنسى ، وقبل كل شيء يدعو إلى التسامح ، وأن الناس إخوة ولو كانوا مؤمنين أو ملحدين ، مسيحيين أو مسلمين يهوداً ، أو بوذيين .

ولقى ڤولتير عنتا فى دعوته إلى الحرية ، وخاصة حرية العقيدة ، لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت تحالف فى أيامه الحكومة الفرنسية ، وكانت تحمل الحكومة والشعب معاً على التعصب وإيذاء غير الكاثوليك . . وقد كتب ڤولتير بقلمه وأنفق من ماله كى ينقذ العلائلات التى وقع بها الاضطهاد الدينى وكى يدعو إلى التسامح وحرية العقيدة .

واحتال كى يعيش وكى يرصد حياته للكفاح فى سبيل الحرية .

وكان من احتياله أن اشترى أرضاً فى سويسرا وأرضاً أخرى فى فرنسا . وكانتا تتجاوران . وذلك ترقباً للاضطهاد من إحدى الحكومتين السويسرية أو الفرنسية بحيث يستطيع الفرار إلى فرنسا إذا وجد الحملة عليه من الأولى ، أو إلى سويسرا إذا وجد الحملة عليه من الثانية .

وعاش على هذه الحال السنين الطويلة كى يؤدى رسالته ، وهى صيانة الحرية من الوحوش الآدميين الذين كانوا يكرهون من لا يؤمن بإيمانهم .

وقد كان فى باريس شيء يسمى « برلمان » ولكنه لم يكن يمثل الشعب ، ولذلك كان أعضاؤه يسيرون وينقادون إلى دعاة الاستبداد من الحكومة والكنسية معاً . وقد عنى هذا « البرلمان » بأن يحرق قصيدة لڤولتير !

وألف ڤولتير المعجم الفلسفى ، فمنعت الحكومة الفرنسية . بل معظم الحكومات الأوربية ، تداوله وحكم على مؤلفه بالكفر .

وشاعت لڤولتير أخيراً شهرة بأنه زعيم الحرية ، فكانت تصل إليه شكاوى المضطهدين من الأحرار من جميع الأقطار يطلبون منه الدفاع والإسعاف . وكان يجمع لهم المال كى ينقذهم من حكوماتهم ومن كنائسهم .

وما زلنا إلى الآن نسمع عبارة ڤولتير : « اسحقوا الخزى » . وهذا الخزى هو اضطهاد الأحرار المخالفين للكنيسة .

ومع كل ما اتهم به ڤولتير لم يكن كافراً ، فإنه كان يؤمن بالله أعظم الإيمان : ولكنه كان يعتقد أن الكنيسة يجب ألا تحتكر الدين . وأننا يجب أن نكون « إلـهيين » قبل أن نكون مسيحيين أو يهوداً أو هندوكيين . وهو يقول إن :

« كلمة الإلهى هى الوصف الوحيد الذى يجب أن يتصف به الإنسان ، والكتاب الوحيد الذى يجب أن يقرأ هو كتاب الطبيعة . والديانة الوحيدة هى أن نعبد الله ، وأن يكون لنا شرف وأمانة . وهذه الديانة الصافية الخالدة لن تكون سبباً للأذى » .

وكان ڤولتير يرى الله فى كل مخلوق ، حتى قال : « إن فى البرغوث شيئاً من الألوهية » .

وكتب عن نفسه فى المعجم الفلسفى يقول :

« إنى أجهل كيف تكونت وكيف ولدت . وقد قضيت ربع حياتى وأنا أجهل تماماً الأسباب لكل ما رأيت وسمعت وأحسست . وكنت ببغاء تلقننى ببغاوات أخرى . ولما حاولت أن أتقدم فى الطريق الذى لا نهاية له ، لم أستطع أن أجد طريقاً معبداً ولا هدفاً معيناً ، فوثبت وثبة

أتأمل الأبدية ولكننى سقطت فى هوة جهلى » .

والواقع أننا حين نتأمل حياة ڤولتير نجد أن الكنيسة الكاثوليكية قد انتفعت بعداوته لها لأنها كفت عن اضطهاد المخالفين . وكان هذا الاضطهاد أكبر ما توصم به فى القرن الثامن عشر كما كان أكبر ما يعمل لفسادها .

وكذلك انتفعت بفصلها من الدولة ، لأن اعتلاء الدين للدولة يضر الدين ويحطه ، إذ يغنيه عن القوة الروحية والأخلاق السامية بما يستمتع به من قوة بوليسية وحماية قانونية . والدين يجب أن يتجرد من أى سلطان مادى ، أى حكومى أو بوليسى ، حتى يستنبط قواه الروحية المستقلة ويصل إلى القلوب عفواً دون مساعدة خارجية .

وهذه هى مهمة ڤولتير التى عامها لأوربا ، مهمة الحرية الفكرية وفصل الدين من الدولة .

وليس لڤولتير عبرة أودلالة واحدة لعصرنا ، وإنما له عبر ودلالات كثيرة ، فإننا نفهم منه أن حرية العقل وحرية العقيدة ، وحرية الضمير هى أثمن ما يملكه البشر .

وأن الحكومة أو الهيئة التى تنتهك هذه الحريات ترتكب أفظع الجرائم ، وهى جريمة الخيانة للروح البشرى . وعبرة أخرى نستخلصها من حياته هى أن الأديب ليس رجل القلم والحبر ، وتقليب الكتب واجترار الأقوال القديمة ، وإنما هو المكافح المبتكر الذى يشترك فى هموم البشر واهتمامات المفكرين دعاة التطور والرقى . وأن أدباء البرج العاجى الذين يقفون بعيداً عن معترك الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية لا قيمة لهم ولا منفعة منهم . بل هم بمثابة الجندى الفار من المعركة .

وعبرة ثالثة هى أن بؤرة الأديب شخصيته ، من حيث إنه يكتب عن

إحساس ووجدان بما يحس ويجد . ثم يصدر عن ذلك مفكراً للتنظيم والتوجيه . ولذلك قيل إن أسلوب الكاتب هو شخصيته أو هو أخلاقه . ومن المحال أن يقنعنا كاتب فاسق بضرورة الطهارة . أو كاتب يتعلق بالمستبدين وينتفع منهم بضرورة الديمقراطية .

ولقد عشت حياتى وهنئت أيما هناء، وتعزيت أحياناً أيما عزاء، بمرافقة ڤولتير وتأمل كلماته وتتبع حياته فى أخطائها وأخطارها وتطوراتها . وعرفت منه معرفة الإحساس والوجدان معاً أن حرية العقل هى قدس الأقداس فى النفس البشرية .

كانت حياة ڤولتير كفاحاً نجح فيه ، ورد إلى الإنسان حريته بعد أن كانت قد حرمته إياها الكنيسة والدولة . واستطاع أن يحمل جماهير أوربا على الإيمان بالطبيعيات بدلا من الغيبيات إلى حد بعيد . كما استطاع أن يرد إلى التاريخ مكانته ، وأن يجعل للتنقيب التاريخى فضل الاهتداء إلى الحق والباطل فى العقائد . ودعا إلى العقل دون العقيدة . وأكبر لذلك من شأن « بيكون » داعية التجربة و « ديكارت » داعية العقل . وكان على وجدان برسالته التاريخية من حيث إنه رائد العصر الجديد ، عصر العقل والعلم . وقد كتب فى عام ١٧٦٠ إلى « هيلڤيتيوس » يقول : « إن هذا القرن بدأ يرى انتصار العقل » .

ولقد عشت فى هذا الوطن الأسيف ، مصر ، نحو ثلاثين سنة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٤٩ فى أسر الأحكام العرفية والرقابة القلمية ، وذلك كى يعيش المستعمرون من الإنجليز ، والمستبدون من المصريين ، وهم فى تحالف لمنع الحريات عن الشعب . وقد ألفت كتابين عن الحرية هما « حرية الفكر » وهو تاريخ للأبطال الذين كافحوا التعصب والاستبداد والرجعية والجهل ، ثم « حرية العقل فى مصر » وهو دعوة إلى إلغاء إدارة المطبوعات التى تمنع إصدار الجرائد والمجلات إلا بعد تأدية غرامة

مالية (فى صورة تأمين) وفى كلا الكتابين أنغام تتردد من ذكرى ڤولتير .

وقد كان ڤولتير يقول : « إنى قلما أتعمق ، ولكنى واضح الفكرة على الدوام » . وهذه كلمة أستطيع أن أقولها أنا أيضاً . وإذا كنت فى حياتى الأدبية قد وصلت إلى أن أختص بأسلوب ، فإنى أعترف هنا بأنى لم أقصد قط إلى هذا الهدف . وإنما كانت غايتى أن أصل إلى التعبير الجلى الذى يوضح فكرتى . وأظن أنى نجحت فى ذلك .

وعند الفرنسيين مثل يقول : « ما ليس واضحاً ليس فرنسياً » . ولهم الحق فى ذلك . وهذا الوضوح يعزى إلى التزامهم المنطق السليم الذى تعلموه من ڤولتير وأمثاله .



چيته . . .
الشخصية العـــالمية

المشهور عن جيته أنه أديب عظيم . وقد نقل إلى اللغة العربية من مؤلفاته قصة « آلام ڤرتر » ، ودرامة « فاوست » ، وله أشعار رائعة تذكر أبياتاً وقصائد ، لأن كثيراً من سطورها يحوى الحكمة العالية .

وقد كان جيته يكتب يومياته . أى أنه كان يدون الحوادث التى مرت به فى أيامه يوماً بعد يوم ، كى يحاسب نفسه على ما أنجز من أعمال. ونحن ننقل هنا يومين فى حياته كما دونهما .

* * *

فى الصباح انتهيت من المقطوعة الرابعة وأرسلتها للنسخ .
قرأت « فروسشموزلر » عن أنواع الحشرات .
تجارب فى الكهربية الجلفانية .

في المساء مع شيلر : أثر العقل والطبيعة فى سلوك البشر .

ثم فى الصباح المبكر صححت قصيدتى . . ثم قمت بتشريحات الضفدع .

استراحة فى الصباح فى حديقة شيلر الجديدة . . . تحدثنا عن تخطيطها . . . وقبل ذلك أعدت النظر فى المقطوعتين الأولى والثانية .

وفى الصباح صنعت جدولا للألوان .

* * *

والمتأمل لهذه التدوينات فى يومين من أيام جيته يحتاج إلى التساؤل : أأديباً كان جيته أم عالماً ؟ وهذا السؤال هو موضوع بحثنا هنا .

إن عبقرية جيته لم تكن فى الأدب أو العلم أو الفن ، وإنما كانت فى شخصيته . وصحيح أن له مآثر فى هذه الثلاثة ، ولكن مأثرته الأولى هى شخصيته . فقد عيب عليه ذات مرة أنه لا يعنى كثيراً بموهبته فى الشعر والأدب ، فكان جوابه : إن من حقى أن أعنى بشخصيتى ، وهى أكبر من أدبى .

إن همّ الأديب الصغير أن يصقل قصيدة أو يحسن تأليف قصة أو مقال ، ولكن هم جيته كان تأليف شخصيته وتربية نفسه .

وجمهور القراء يعرف أدب جيته ، ولكن قليلا منهم من يعرفون أبحاثه العميقة فى العلوم . فإن له مكتشفات فى الجيولوجية والبيولوجية والبصريات ، وقد سمى نوع من الصخر باسمه برهاناً على فضله فى الجيولوجية . وكان كبير الاهتمام بأصل الأنواع ، وهى المشكلة التى أرصد « داروين » بعد ذلك حياته لحلها وقد استطاع جيته أن يكشف عن أن المخ هو امتداد للنخاع الشوكى . ومما يذكر عنه عقب هزيمة نابليون أنه قدم إليه نبيل ألمانى ، فسأله عن رأيه فى الزعزعة الجديدة التى تعم

أوربا ، فأجابه النبيل بأن « الحلفاء » قد أساءوا السياسة فى مؤتمراتهم وأن نابليون . . .

ولكن لم يكد النبيل يتم جملته حتى صاح به جيته : أنا لا أسأل عن هذا . لست أبالى هذا ، إنما أسأل عن هذا الخلاف بين سانت إيلير وكوفيه ولامارك عن أصل الأنواع وتطورها .

وكان هذا الموضوع يزعزع نفس جيته ، وكان يهتم به أكثر مما كان يهتم بالسياسة الأوربية التى زلزلها نابليون . ومن هنا اهتمامه بترتيب الحشرات وتشريح الضفدع والطاقة الكهربية . . إلخ .

* * *

ومن الخطأ أن يقال إن جيته كان يهتم بالآداب والعلوم ، لأن اهتمامه الأول كان بالحياة . فكان يحب ويختبر ويسيح ويملأ المناصب الحكومية . بل إنه لم يجعل الأدب أو العلوم هدفه ، لأن الهدف الوحيد الذى سدد إليه نشاطه هو شخصيته ، وتعبيره حين كان يقول إنه يبنى « هرم » شخصيته ، يدل القارئ على أن الثقافة كانت عنده وسيلة وليست غاية .

وإذا كان لكل كاتب عظيم رسالة ، فإن رسالة جيته لم تكن الشعر أو القصة أو العلوم . وإنما كانت الشخصية باعتبارها التحفة الأولى للإنسان المثقف الذى يحيا حياة الوجدان والعقل . ومن هنا كلمة «برانديس» الأديب الدانمركى : إن حضارة الأمم تقاس بمقدار تقديرها لجيته .

والمعنى أن الأمة التى ارتقت فى ثقافتها إلى المرتقى الذى تستطيع أن تفهم فيه أن رسالة الحياة هى الحياة نفسها ، هى الأمة الراقية . أما إذا كانت تجعل الحياة وسيلة لأى نشاط أو هدف آخر ، مثل الثقافة أو الصناعة أو الثراء أو غير ذلك ، فهى غير راقية . بل إننا حين نقول إن الحياة هى الهدف إنما نستوعب بهذا التعريف جميع الألوان الأخرى

للنشاط البشرى . ونستوعبها مع ذلك فى تناسق يتفق والحياة العالية .

وستبقى قيمة جيته خالدة على هذا الأساس ، وهو أننا يجب أن نحيا حياتنا فى تعلم واختبار واستمتاع .

ولد جيته فى سنة ١٧٤٩ ومات فى سنة ١٨٣٢ . فعاصر روسو وديدرو وفولتير ودالمبير ، هؤلاء النجوم الذين أحدثوا النهضة الأوربية الثانية . ثم رأى مخاض العصر الجديد فى الثورة الفرنسية ، وفى شهابها الساطع نابليون . ورأى ــ عقب هزيمة نابليون فى عام ١٨١٥ ــ المؤتمرات الأوربية تومئ إلى الاتحاد الأوربى . بل لقد رأى هذه الفكرة تختمر أيام نابليون .

أجل . إنه عاش فى عصر عاصف ، ولكنه لم يترك العواصف تمر به وهو جامد ، بل استجاب لها وتفاعل معها ، وقد درس القانون فى الجامعة ، وعرف دوق فيمار الذى أحبه وعينه وزيراً لهذه الدوقية الصغيرة . ولم يقبل جيته هذا المنصب لما فيه من أبهة ، وإنما قبله لأنه وجد فيه وسيلة للتدخل فى السياسة الأوربية وفهمها . وزار إيطاليا ، فعرف فيها جمال الشمس وجمال الفن . وتزوج ، واستمتع بمسرات العائلة كما كابد همومها . ومارس الزراعة واقتنى ضيعة ، وأشرف على المسرح ، وأحب فتاة حباً كان يحمله على البكاء وهو فى السبعين .

وكان مفراحاً يحب الاجتماع . ولكن هذا المزاج الفرح كان أحياناً ــ كما هو الشأن فيه ــ يحمله على الاعتزال والاعتكاف . ولكن أوقات نشاطه وإلهامه كانت تنحصر فى أيام الفرح والاجتماع .

* * * *

من علامات النضج فى الإنسان أن يميز بين المعارف والحقائق إذ ليس كل ما نعرف حقيقياً .

وأن يجمع معارفه واختباراته فى فلسفة أو دين . أى يستخرج العبرة البشرية والسلوك الأمثل مما عرف واختبر .

وأن يعتاد استخراج الكليات من الجزئيات بحيث لا يشتغل بالشجرة قدر ما يشتغل بالغابة .

وأن يحس حركة التاريخ فى كل يوم من أيامه .

وأن يكون على إحساس واتصال بالدنيا ، هذه الدنيا ، وهذا الكون .

وأن يكون قد وصل بما لديه من حقائق وبما تربى عليه من تفكير فى الكليات إلى تفاؤل بمستقبل البشر .

فالرجل الناضج هو الرجل المتفائل . وتفاؤله يحمله على كفاح ما لمصلحة البشر .

والرجل الناضج متدين . يحترم الحياة .

وكى نحترم الحياة يجب أن نعمل لرقيها وتطورها إلى أعلى .

ومقياس العلو فى التطور هو مقياس بشرى على كل حال .

وقد كان جيته يجمع كل هذه الصفات التى يتكون منها الرجل الناضج .

* * *

ومن علامات النضج فى الإنسان أن يرتفع من همومه الشخصية إلى الاهتمامات العالمية .

ومن علامات النضج فى الأديب أن يرفع الأدب من آراء وإحساسات تكتب إلى ممارسة فى الحياة . ففن الكتابة عنده يستحيل عندئذ إلى بعض الفن فى حياته هو . ومن علامات النضج أيضاً أن يتعرف الأديب إلى قوات الخير البازغة فيؤيدها وينضم إليها ويكون من جنودها أو قوادها .

وقد حقق جيته كل هذه الأنواع الثلاثة من النضج ، فإن اهتمامه بالعالم طغى على كل اهتمام شخصى آخر : نظرية التطور . قناة السويس . اتحاد أوربا . الديانات الشرقية .

وحقق الفن والحب فى حياته ، فإن كلمة الحب لم تكن من كلمات القصص التى كان يؤلفها وإنما كانت عاطفته الغالبة التى كان يمارسها .

وقد عاش فى أيام الانتقال من حكم النبلاء والنظم الإقطاعية إلى حكم الصيارفة والصناعيين والتجاريين ، هذا الحكم الذى عمم الديمقراطية والحرية فانضم إلى هذه القوة الجديدة ودعا إلى تأييدها. بل إننا نستطيع أن نجد هذا الاتجاه فى قصته « فاوست » ، بل لعل هذا الاتجاه هو التفسير الحقيقى لهذه القصة .

وهناك بالطبع من يسأل عن مذهب جيته فى الحياة والأدب والحضارة . ولكننا نحن الذين أحببنا جيته لا نكسب منه معارف ، لأن معارفنا أكبر جداً من معارفه ، كما هى أكبر من معارف أرسطوطاليس أو أفلاطون وإنما نحن نكسب منه منهج الحياة الذى اتبعه : وهو منهج التعلم والاختبار والاستمتاع .

نكسب منه الحياة الفنية ، أو كما كان يقول حرية الروح : « إن أى إنسان عرف وفهم مؤلفاتى وشخصيتى حق الفهم يضطر إلى الاعتراف بأنى قد حققت لنفسى حرية الروح » .

* * *

كيف كان يعيش جيته ؟ وكيف كان ينظر إلى نفسه ؟ أى ما مقدار وجدانه بشخصيته ؟

كان جيته يخشى الشتاء لأن النهار يقصر والليل يطول . وكان يتعب من القراءة فى ضوء الشموع . وكان هو الذى يقص بنفسه فتيلة الشمعة .

وكانت آخر كلمة نطق بها قبل الوفاة : « النور » لأن النور كان عنده وسيلة التثقيف والتفكير والحياة الحيوية . ولذلك كان يحب الصيف ويكره الشتاء .

وكان يعيش نهاره كله ، فلا ينام ، أى لا يقيل . وكان يفطر فى الساعة الحادية عشرة بفنجان من اللبن والشكولاتة ، ثم يتغذى فى الساعة الثانية ، ثم يتنزه ، ثم يكون العشاء ، فالقراءة والدراسة .

ولما بلغ الثمانين كتب فى يومياته : هل بلغت الثمانين ؟ وهل يجب علىّ لذلك ألا أتغير ، بل أعمل كل يوم مثل اليوم السابق ؟ إنى أحس كأنى أختلف عن سائر الناس وأبذل مجهوداً أكبر منهم كى أفكر كل يوم فى شىء جديد ، حتى أتجنب السأم . أجل! يجب أن نتغير على الدوام وأن نجدد شبابنا على الدوام ، وإلا تعفنا ! »

ومن أقواله فى شيخوخته أيضاً : « إنى أمتاز بالحظ الحسن فى شيخوختى لأنى أجد فى ذهنى أفكاراً . لو أنى شئت أن أواليها حتى تنكشف لاحتجت إلى أن أعيش حياتى مرة أخرى » .

وكان يكتب يومياته ، وكأنه يحاسب نفسه على درجات رقيه وبناء شخصيته يوماً بعد يوم .

وكانت حياته خصبة بالحب ، ولم يكن يعرف النسك أو التقشف. ولم تكن فترات اعتكافه عن رغبة فى النسك ، وإنما هى بعض المزاج العام فى الفرحين وكأنها ادخار للقوة للانتفاع بها أيام السرور .

وكانت اختباراته كثيرة واستمتاعاته الإحساسية شاملة كما كانت ثقافته موسوعية لم يحصر ذهنه فى تخصص . فقد أحس الحب الحنانى وهو فى التاسعة عشرة فألف قصة « آلام فرتر » ، ثم جحدها لأنها تحفل بالحنان واليأس والضعف . وكان يقول إنه يخجل منها عندما أينعت شخصيته

وأخذ وجدانه وتعقله مكان إحساسه وعاطفته .

* * *

بدأ جيته حياته الذهنية بتعلم القانون وتأليف قصة اليأس والموت فى «آلام فرتر» وانتهى فى سنى نضجه وإيناعه باتجاه إيجابى بنائى للحياة البشرية فدعا إلى وحدة أوربا ، وألف قصيدة فى مدح نابليون قال فيها : « إن الذى يقدر على كل شىء ، يقدر أيضاً على السلام » . ما أبدعه هنا !

وكان يفكر فى قناة السويس وقناة بناما . ويشتهى أن يعيش خمسين سنة أخرى كى يراهما محفورتين مسلوكتين . ذلك أنه اتجه الوجهة العالمية ، فأصبح يقول ، كما كان يقول شيلر : « وطنى هو العالم » : ولذلك صار يهتم بهندسة هذا العالم وتنظيمه كما لو كان مملكته الخاصة .

* * *

جيته هو واحد من أولئك الذين تعلمت منهم . ولم أتعلم فنًا أو أدباً أو علماً وإنما هو منهج الحياة التى عاشها جيته كان ينبهنى من وقت لآخر كى أعيش على مستواه .

ولست أجد فى جميع مؤلفات جيته من الشعر أو القصص شيئاً عظيماً سوى القليل من اللآلئ . وهو من حيث الشعر يدمن ذلك الطراز الذى يذكر له البيت الذى يتوهج بالحكمة ، ولا تذكر له القصيدة التى تعالج موضوعاً . ولذلك نحن لا ندهش ولا نتعلم كثيراً حين نقرأ مؤلفاته ، ولكننا نتعلم ونتنبه ونحس كأننا كنا نياماً ثم استيقظنا حين نقرأ حياته .

هو منهج الحياة الذى يعيد إلينا ذكر « دافنشى » الرسام المثال الجيولوجى المهندس الفيلسوف الأديب الرياضى العاشق ، الذى تعددت اهتماماته لا لأنه تعمد هذا التعدد ، وإنما لأنه نظر إلى الطبيعة النظرة

الموضوعية الموسوعية التى تثير الاستطلاع وتهيئ المشكلات الثقافية التى يشتغل بها الذهن .

وكان جيته مثل دافنشى ينظر إلى الطبيعة ، بل إلى الفنون ، هذا النظر الموضوعى . ومن هنا زاد استطلاعه وتعددت اهتماماته ، وأصبحت ثقافته موسوعية . والحق أن الأدب لم يكن عند جيته فنياً ، وإنما كان الفن الذى اهتم به هو فن الحياة . ثم كان الأدب جزءاً من فن الحياة .

* * *

نتعلم من جيته أن غاية الحياة هى الحياة . أى ترقية الشخصية بتربيتنا ، وبسط الآفاق أمامنا للتعلم والاختبار حتى نزداد فهماً لأنفسنا وللطبيعة ، فنزداد بذلك استمتاعاً .

ونتعلم منه أننا يجب أن نؤلف شخصيتنا قبل أن نؤلف أى شىء آخر ليس هناك ما هو أهم منها عندنا . وذلك بأن نطلب الاختبارات . ولو كان الخطر فيها .

ونتعلم منه أن التخصص ضرر ، وأن الآفاق للثقافة لا حد لها . فيجب أن ندرس الأدب كما ندرس الكيمياء والقنبلة الذرية ، بل كما ندرس جنون الشيزوفرانيا وقوانين الوراثة .

ونتعلم منه أننا يجب أن نشترى الإختبارات إذا لم تصادفنا . فنقرأ ونسيح ونحب ونمارس السياسة ونختلط بالمجتمع ونشتغل بترقيته .

ونتعلم منه أننا — حتى فى الشيخوخة — يجب أن نستبقى شباب الذهن والعاطفة . ولن يكون هذا إلا بتهيئة سابقة .

وأخيراً نتعلم منه أننا أبناء هذا الوطن الكبير : العالم .

* * *

قلنا إننا لا نكسب من جيته معارف ، وإنما ننتفع به من حيث أسلوب حياته : حياة فلسفية تتغذى بالثقافة وتهدف إلى تربية الشخصية

بالنمو الذى يستحيل إلى نضج .

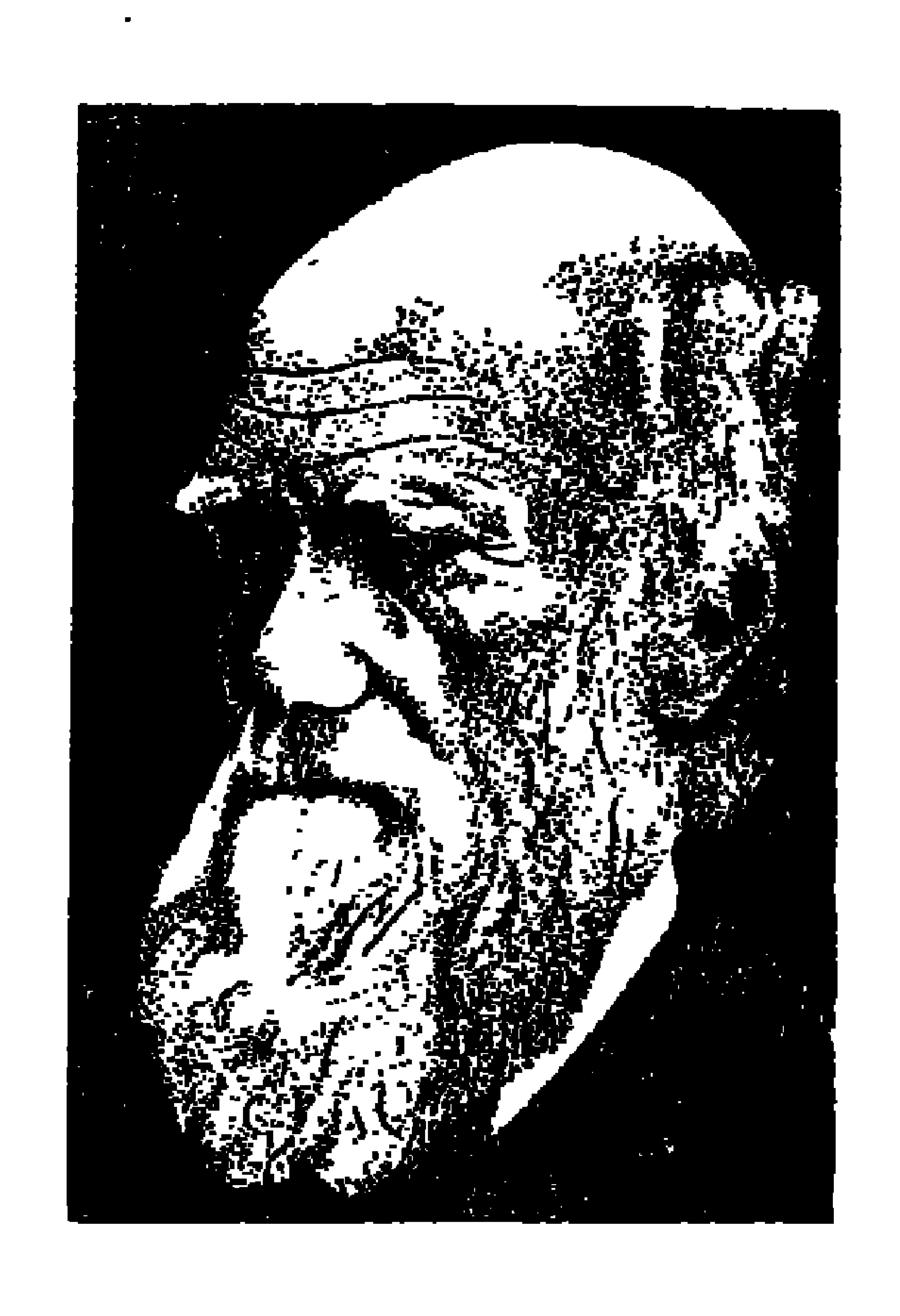
ولكننا مع ذلك نجد أن بجيته عبرته ودلالته فى الموقف الثقافى الأوربى بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٢٩ .

ذلك أن المذهب الانفصالى كان لا يزال قائماً بين النفس والجسم أو العقل والمادة . وداعية هذا المذهب الثنوى هو أفلاطون الذى فصل بين الفكرة والمادة . وقد أيدت العقائد الدينية هذا الانفصال ، ولكن جيته رأى غير ذلك. بل ربما كان هو أول أديب دعا إلى الوحدة الوجودية فى أوربا ، أى أن الجماد والنبات والحيوان والإنسان والمادة والعقل كلها شيء واحد . وأن الإنسان ليس مخلوقاً منفصلا وإنما هو تعبير خاص للطبيعة العامة التى فى الجماد والحيوان والنبات ، وأن الحقيقة الأولى فى هذا العالم هى التغير والاستحالة . فالطبيعة دائبة فى التغير والتشكل بأشكال مختلفة . وأن الفكر البشرى نفسه قد نبع من الطينة التى نبضت بالحياة الأولى .

وقد قال ذات مرة إن أعظم ما يصبو إليه أن يهتدى إلى قانون شامل عام تنتظم به التغيرات والاستحالات فى الجماد والنبات والحيوان والإنسان .

ولو كان جيته يعيش فى عصرنا لعبر عن هذه الشهوة بأنه ينشد التفسير الذرى للجماد والحياة والفكر البشرى والماء السائل .

وهذا هو ما ننشده جميعاً ونوشك أن نهتدى إليه .



داروين . . .
عار العـــائلة

« أنت لا تعنى إلا بصيد الكلاب ، واقتناص الجرذان ، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك » .

هذه هي الكلمات التي تلقاها داروين من أبيه في وقت كان يلوح لأي إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة . فقد تسكع في دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفي غضون ذلك كان يلعب ، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى الحقول ويجمع النبات ويصيد الحشرات ويقارن بين الأحياء ، ويفكر تفكيراً سرياً كأنه يتآمر على الكون كله ، كي يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التى قالها أبوه عنه لا يعد داروين عاراً على عائلته ، بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الإنجليزى . وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوى تأمل داروين حياته الماضية ، ومبلغ ما أتمه من الخدمة فى التوجيه الذهنى للعالم فقال : « أظن أن أبى قد قسا على بعض القسوة » .

ومات داروين فى عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافى طويل ، ونحن الآن بعد وفاته بأكثر من نصف قرن ، نستطيع أن نقول إنه أكسبنا فهما جديداً للطبيعة والكون والإنسان . وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فإن كتابه « أصل الأنواع » الذى أخرجه فى عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع فى الحيوان والنبات ؛ وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف فى الطبيعة . وأن الإنسان والحيوان والنبات فى تغير مستمر .

ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التى شرحها داروين لأننا نعرف أكثر منها . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التى عينها لنا . ونحن هنا بهذه المثابة نفسها نحو أرسطوطاليس . فإننا نعرف أكثر منه من حيث الكم فى المعارف . ولكنه أكسبنا المنهج . فنحن نفكر فى التطور الداروينى ونفكر متطورين . وقد أصبح التطور حقيقة علمية نقيسها بالمليمتر والمليجرام فى الحيوان والنبات ، كما أصبح أيضاً مذهباً دينياً ، أو مبدأ أخلاقياً عند المثقفين . وانفسح به التاريخ البشرى آفاقا إلى ملايين السنين ، بل مئات الملايين خلف البشر وبعد البشر .

لقد قيل إن جاليل (جاليليو) حط الإنسان من عليائه ، حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون . وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . بل الشمس أيضاً نجم صغير لا يختلف عن ملايين النجوم التى

نراها كل ليلة فى المساء . ولكن داروين رفع الإنسان إلى هذه العلياء من جديد ، وأثبت أنه لم يكن عالياً فسقط ، وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة ، حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات ، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق فى تدبير هذا العالم ، وفى تعيين السلالات القادمة . بل ماذا نقول ؟ فى إيجاد البشرية الجديدة . . .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة فى نظريته . ولا ينتقص هذا من عظمته ، فإن تفكيرنا الشخصى يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بحواجز من العواطف التى نكتسبها من المجتمع . بما يفرضه علينا من القيم والأوزان ، وما يرسمه لنا من المطامع والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل فى كياننا النفسى إلى عادات عاطفية لا نستطيع الخروج منها . فنفكر فى منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعى الذى لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعقلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذى عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة ، فما بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٦٠ ، وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت إنجلترا فى تلك السنين ترغى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة . فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء والصبيان . والثروات تنمو ، والمزاحمة على أقصاها . والجيل النجاح يدرس بل يعبد . والسياسة تخدم الاقتصاد ، وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق والمستعمرات . وأصبحت إنجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمى مستعمراتها وأسواقها التى تباع فيها مصنوعاتها الفائضة .

وعاش داروين فى تنازع البقاء هذا الذى لا يفتر فى لنكشير وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية فى إنجلترا .

وفى تلك السنين أيضاً قرأ كتاباً أحبه وتعلق به لأنه وجد فى نفسه الاستجابة لنظريـــاته بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعى الإنجليزى ، هو كتاب القسيس « مالتوس » عن السكان . فإن هذا القسيس كان من المحافظين الإنجليز الذين يكرهون العامة ، ولا يرون فيهم سوى غوغاء . فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعظماء ، ثم أعلن رجالها مبادئ الإخاء والمساواة والحرية ، فكر مالتوس كثيراً بحافز من عواطفه ، فأخرج كتابه عن السكان ، وكان المعنى الذى قصده إليه أن هذه الآمال الفرنسية فى الإخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفى الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفى ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ إلخ فى حين أن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابى ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ إلخ . فإذا عاش الناس بلا مرض أو حرمان لم تكفهم المحصولات ، وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذى ألفه مالتوس عن المجتمع البشرى فتساءل : لم لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتى والحيوانى فى الطبيعة ؟ فإن الطعام لا يكفى جميع الأحياء التى تتوالد أو تتكاثر بالألوف ، فهى يجب أن يزاحم بعضها بعضاً ، فتكون الحرب بينها ، أى تنازع البقاء ، كما فى لنكشير ومصانعها تماماً .

وفى عام ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة « البيجل » كى تطوف حول العالم وتسبر الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد ، ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هى العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التى لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟

العاطفة الحافزة اجتماعية أيضاً . وذلك أن الحكومة البريطانية فى تلك السنين كانت تخدم الصناعات البريطانية ، لأن السياسة على الدوام تسير خلف الاقتصاد ، وكانت أسواق العالم وقفاً على المصنوعات الإنجليزية . لأن الحركة الصناعية الإنجليزية سبقت الحركات الأخرى فى جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالبحار والملاحة والأقطار النائية ، ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين فى أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كى يدرس الحيوان والنبات .

ولم يكن داروين جديداً فى هذا البحث : أصل الأنواع . فإن لامارك الفرنسى سبقه إليه ، وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها ، بالمرانة التى ورثت جيلا بعد جيل ، قد اشرأبت وسعت للوصول إلى الغصون العليا فى الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهده من صفات يورث جيلا بعد جيل . بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع ، فكانت النظرية « فى الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويحلل مظاهرها . بل كانت أكثر من ذلك . فإن جيته الأديب الألمانى كان يشتغل بها ويسأل عنها . وكان يتابع النقاش الحامى بين كوفييه الذى كان يقول بثبات الأحياء ، وبين سانت هيلير الذى كان يقول بتحولها .

كان داروين شاباً فى الثالثة والعشرين حين شرع فى رحلته على البيجل . فلما وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما فى القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدى إلى انعزال الحيوان ، فتكون له أشكاله التى ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أى فضل لداروين فى تعليل النظرية ، فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسى .

ثم هناك الظروف الأخرى : مالتوس وقلة الإنتاج الغذائى إزاء تضاعف السكان ، ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف فى المزاحمة العنيفة فى لانكشير حيث الحركة الصناعية فى عنفوانها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية ، فى أوسع معانيها ، حين تشمل المعيشة والاتجاه أو العادات والعواطف ، هى الحافز للتفكير ، فإننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية . إذ لو لم يكن داروين ذكياً لما فكر فى هذا الموضوع الخطير ، ولما جعله هدفه فى الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق تضطرنى إلى الاعتراف بأن عقلى لم يخلق للتفكير » .

ولكن داروين ظلم نفسه فى تواضعه بهذه الكلمات . لأن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . إذ أن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف فى التفكير وعنى العناية الكبرى بغربلة الحقائق من المعارف ، وعرف الصعوبة الكبرى فى هذا الجهد . ولو أنه لم يكن يجهد لما قال هذه الكلمات ، إذ أنها ما كانت لتخطر فى باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير . وأنه كان مريضاً أو متمرضاً ، فى نفسه حزازة قديمة هى جرح الكرامة ، هذا الجرح الذى أحدثه أبوه وعيّره به كما نرى مثلا من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام فى الليل إلا بعد أرق الساعات. وكان فى هذه الساعات يفكر ويؤلف . فإذا جاء النهار كتب كلماته القليلة . ثم يبقى سائر نهاره مريضاً ، ومرضه هو هذا المرض النفسى الذى يخترعه النيوروزى ويعيش به ويستقر عليه ، كأنه يقول : طلبتم منى النجاح والتفوق ، وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟

مرض يصون الكرامة المجروحة (أنت عار لعائلتك) وفى الوقت

نفسه يهيئ الفرصة للتفكير فى حضانة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهى أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها . ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المرضية التى زعزعت الثقافة العالمية من أساسها ، بل زلزلتها ، وعينت أهدافاً جديدة للإنسان ، وأكسبته بصيرة جديدة لرؤية الماضى ورؤيا المستقبل .

لقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر فى التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه . هو أن « وولاس » كان فى بعض الجزر التى تقع فى الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحنطها ويبعث بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولا بالموضوع نفسه ، أى التطور . وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه فى هذا الموضوع . وصعق داروين إذ وجد أن وولاس قد سبقه إلى تعليل التطور بأن الطعام قليل فى الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات . فلا بد أن يكون هناك تزاحم أى مسابقة من أجل الطعام ، وفى هذا التزاحم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصلح للبقاء حين يموت العاجز الضعيف وينقرض .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية فى إنجلترا عن رسالة وولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين فى حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية . لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصع بياناً وأدق منطقاً .

وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » فى عام ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان .

وكثير من النظريات التي غيرت التفكير البشرى تبدو غاية فى السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فإن داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرهما مما يربيه الناس. وكيف استطاعوا أن يخلقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة وما استطاعه الإنسان فى مئات السنين القليلة قد استطاعته ، وأكثر منه الطبيعة فى ملايين السنين الماضية . حتى أخرجت الأنواع فضلا عن السلالات فهناك، فى الغابات والبحار والسهول ، إنتاج محدود من الطعام . ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات . ولا يمكن أن يكفى الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والحيوان . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء ، أى لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق فى هذا التنازع ثم البقاء خفياً . هو كما فى النفس الأخير ، فى الثوانى القليلة ، فى صراع يدوم الساعات ، أو فى القدرة على الجوع أو العطش . أو فى طرق الحماية للنسل ، أو فى القدرة على التطفل ، أو فى الجراءة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر فى الحيوان والنبات ، فإن هذا الاختلاف ينطوى بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعد فى الحال الأولى على البقاء والانتصار فى معركة الحياة . وهو يهيئ الهزيمة فى الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغير جيلا بعد جيل . فإذا تراكمت التغيرات أحدثت السلالات الجديدة . وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت قبل مليون أو مائة مليون سنة . لأن التغير والتطور هما طبيعتها

ونستطيع أن نستنتج أنه مادام لنا تاريخ ماض فى التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير فيه الأحياء .

وهذه هى الدلالة الخطيرة التى انتهى إليها قراء داروين ، وهى أن الحياة فى بوتقة لم تتجمد قط . وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها مركباتها . وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه ونحن فى بداية هذا ، هو التوجيه الذى يخشى كثير منا دلالته لأنه يحمل فى طياته مشروعات بشرية خطيرة . ولأنه يضع النظام المادى للإنسان والحيوان والنبات مكان النظام الغيبى .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ، ونجح إلى حد ما فى هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاحمة الصناعية التجارية فى لنكشير ؛ ومن كفاح الإمبراطورية لخطف الأسواق وإذلال الأمم ، هذه العواطف هى التى حملته على أن يكبر من شأن التنازع ، تنازع البقاء . وحال هذا بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة ، لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً ، أى أكثر مما كان يعرف داروين ، ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث . وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة وأطلق أذهاننا من أغلال العقيدة إلى حرية البحث والدرس . فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء فى الطبيعة إلى الناس فى المجتمع ، وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا لنراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال فى المستقبل ، وتغير معنى الارتقاء البشرى لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الإنسان إلى الإنسان نفسه . كما أصبح التطور فنًّا نمارسه فى إيجاد

سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة ، وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا فى سلالات بشرية جديدة .

ويجب ألا يعمينا الاستغراض الديمقراطى عن هذا الابتكار النازى الذى دعا إليه هتلر . فإن نظرية التطور لا بد أن تخرج من التفكير إلى التطبيق . . . بل هى كذلك الآن ، ومنذ مئات السنين فى حيواناتنا ونباتاتنا ، ونقلها إلى النوع البشرى لن يعدو وثبة كبيرة .

* * *

أرانى بعد كتابة ما تقدم أنى التفت إلى شخصية داروين وتحليلها أكثر مما التفت إلى تحليل نظريته ودلالتها . ولذلك أحتاج إلى الاشارة إلى التنقيحات التى طرأت على هذه النظرية . وأولها وآخرها هو الرجوع إلى لامارك : « إن الصفات المكتسبة تورث » . وداروين نفسه لم ينكر هذه الوراثة ولكنه لم يبرزها كما أبرز « تنازع البقاء وبقاء الأصلح » .

ومع أن داروين التفت كثيراً إلى الدواجن ، وكيف أن الإنسان استطاع أن يخرج مئات السلالات من الحمام والدجاج والكلاب والخيول ، ومع أنه نقل هذا المنطق من الإنسان إلى الغابة ، باعتبار أن تنازع البقاء يحيي ويبيد ، ويقف من النبات والحيوان موقف الإنسان فى اختيار الصفات التى تعمل لبقاء الأفراد ، فإن الموقف البيولوجي ينكر هذه الأيام قيمة هذه المقارنة بين التنوع فى الدواجن والتنوع فى الأوابد . ذلك لأن المشاهدة تثبت أن التنوع فى الطبيعة قليل جداً أو يكاد يكون معدوماً . كما يثبت أن ما أحدثناه نحن البشر من التنوع فى الدواجن إنما هو عن بعيد مصلحة هذه الدواجن . وهو أشبه بالمرض منه بالصحة وقد أحدثناه بحياة غير طبيعية لهذه الدواجن .

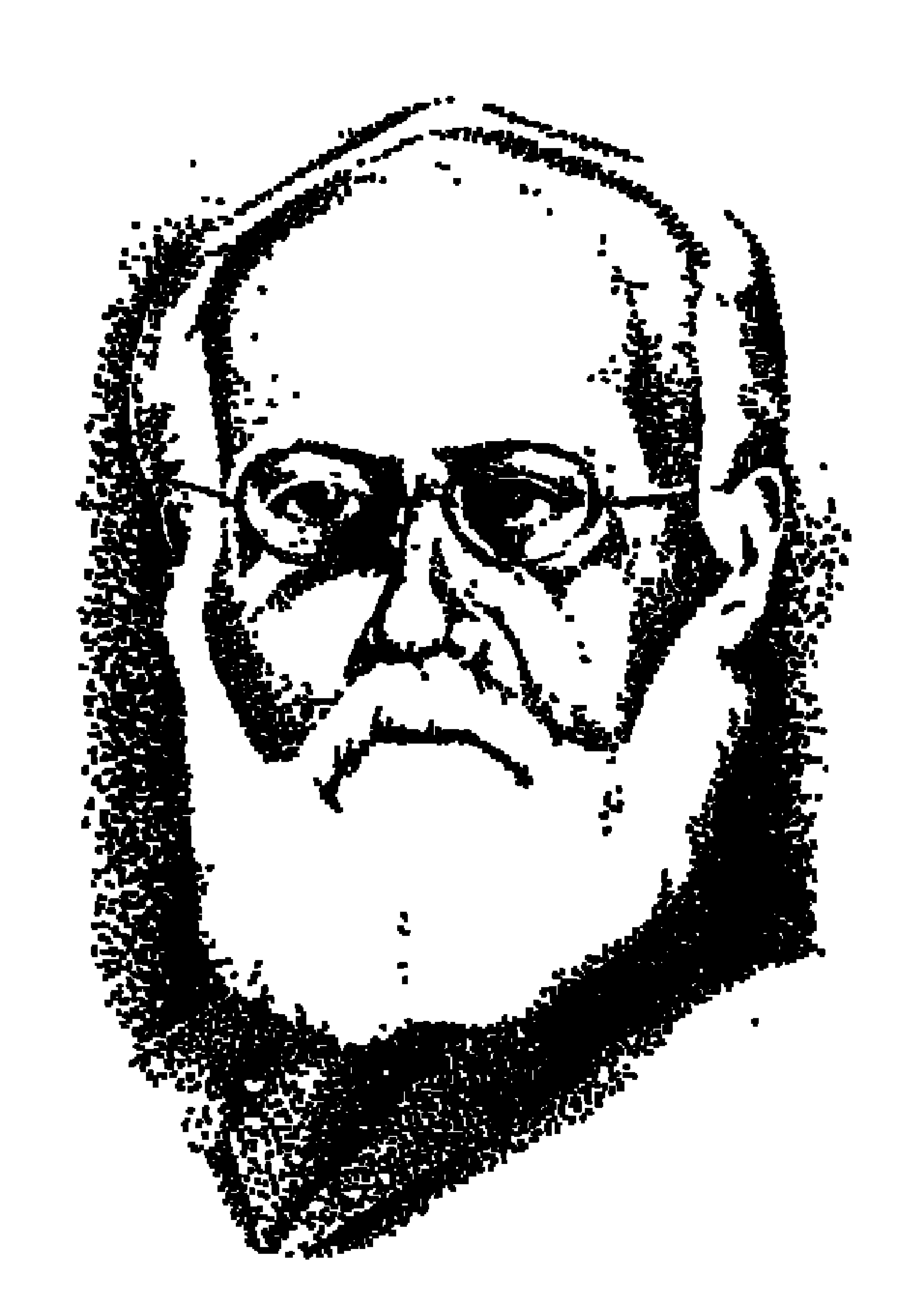
ولذلك نحن ننزع هذه الأيام إلى « داروينية جديدة » تعتمد على أن عادات الآباء يرثها الأبناء حتى إذا تراكمت أوجدت العضو الذى

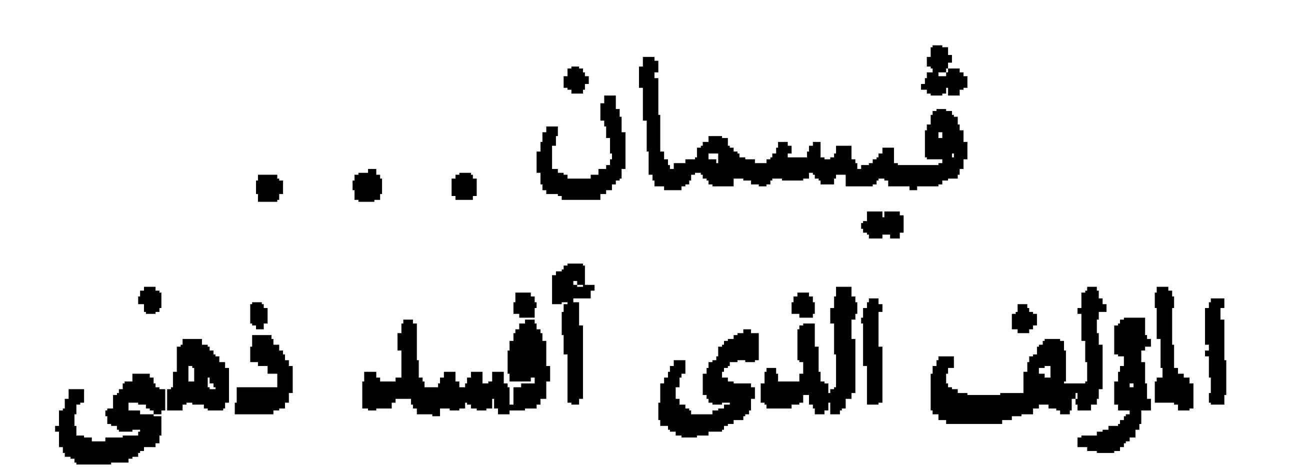
يؤديها . كالجمل الذى عاش فى الصحراء وكان يحتاج إلى أن يبرك على الحصا الذى يجرح جلده . فتضخم الجلد فى أمكنة الملامسة وأصبحت هذه الخاصة وراثية . وكاللجاة (التى كانت مثل الدلاحف على اليابسة) احتاجت إلى السمك طعاماً فنزلت إلى البحر ، ومازالت تمارس السباحة حتى استحالت يداها إلى زعنفتين . . إلخ .

* * *

ولا أعرف كاتباً تأثرت منه أكثر مما تأثرت من داروين . فإنه أعطانى القالب الذى أزن به أحياناً ، وأحياناً أهدم به التقاليد . وجعل التطور مزاجاً تفكيرياً ونفسياً عندى ، بل جعله عقيدتى البشرية التى تنأى عن الغيبيات . وقد أصبحت أقيس الأمم بمقدار تطورها ، وأقيس آمالى الاجتماعية بمقدار ما أجدُ من قدرة على التطور . ذلك أن التطور فى أساسه منطق علمى ، ولكنه قد استحال عندى إلى عقيدة قلبية .

وإذن يجب أن أعد داروين المعلم الأول الذى علمنى .





ڤيسمان . . .
المؤلف الذى أفسد ذهنى

أفسد ذهنى نحو أربعين سنة ، بل لعله أفسد أخلاقى أيضاً من حيث أنه غرس فى نفسى فلسفة اجتماعية خاطئة . فجفت عندى ينابيع السخاء البشرى ، وتولدت عندى نظريات بشأن تنازع البقاء ما كنت لأومن بها لولا هذا المؤلف الألمانى المدعو « ڤيسمان » . ذلك أنى كنت فى الأول من هذا القرن مشغول الذهن بنظرية داروين عن تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وكانت هذه النظرية فى ذلك الوقت هى ، عند جميع المفكرين ، علة التطور . فإن أوربا المثقفة كانت قد سلمت بأن الأحياء تتغير وتتطور ، وأنها تعوذ كلها إلى أصل واحد ، ولكن كان هناك خلاف بشأن العلة أو السبب لهذا التطور . .

وكان لامارك ، قبل داروين ، قد علل التطور بالعادات . أى أن

الحي عندما يتغير وسطه الذى يعيش فيه ، سواء أكان ذلك بتغيير المناخ أم الطعام أم الأعداء ، هذا الحي يتعود عادات جديدة تلائم هذا الوسط الجديد . ويتغير بذلك جسمه بعض الشيء ، ثم يأتى نسله فيرث شيئاً من هذا التغير . ثم تتراكم التغيرات على مدى الأجيال المتعاقبة بالمئات والألوف فتظهر سلالات جديدة تختلف من أسلافها . ثم تتراكم هذه التغيرات فى هذه السلالات حتى تفصل ما بينها وبين الأسلاف . وتعود السلالات القريبة أنواعاً مستقلة منفصلة .

هذا ما كان يعلل به لامارك التغيرات التى تؤدى إلى التطور . وقد سلم داروين – إلى حد ما – بهذا التعليل ، ولكنه لم يقصر التغيرات التطورية عليه ، بل اعتمد على ماسماه « تنازع البقاء » . والقارئ لمؤلفاته يفهم أن التغييرات تحدث لأسباب نجهلها ، ولكنها تورث . فإذا كانت الصفة الموروثة حسنة فإنها تؤدى إلى انتصار الفرد المتصف بها من الحيوان أو النبات فى تنازع البقاء ، أى فى مباراته لغيره من نوعه أو الأنواع الأخرى ، ولكن مع كل ما قاله داروين هنا يجب أن نذكر أنه قال إن تأثير الوسط فى الحي لم يدرس الدراسة الكافية ، وبذلك ترك الباب مفتوحاً للشك والبحث شأن الباحث العلمى المنصف .

وفيما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ كان النقاش يدور حول الصفات المكتسبة ، أى العادات ، أتورث أم لا تورث ؟ ولزيادة الإيضاح نقول : هل طال عنق الزرافة لأنها تعودت مد هذا العنق إلى الغصون العليا من الأشجار أو الأعشاب السفلى على الأرض ، ثم أورثت ذريتها هذه العادة حتى طالت أعناقها ؟ أم أن هناك سبباً أو أسباباً أخرى لهذا الطول ؟

والمعقول الذى يسلم به المفكر لأول وهلة أنه لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر لهذا التغير والتطور سوى الذى كانت تعيش فيه الزرافة . أى أنه إذا لم يتغير الوسط ، ويؤدى تغيره إلى أن يغير

الحى عاداته ، فلن يكون هناك سبب ما للتغير والتطور . ومعنى هذا أن لامارك كان مصيباً كل الإصابة فى تعليله للتطور بالعادات التى يتعودها الفرد .

هذا هو المعقول . ولكن إذا لم يتفق المعقول مع الواقع ، وجب أن نسلم بالواقع ونرضى بالنزول عن هذا المعقول. لأن ماعقلناه ربما قد خفيت عنا فيه أشياء .

ووقع فى يدى حوالى سنة ١٩٠٩ كتاب يدعى « الجرثومة المنوية » للمؤلف الألمانى ڤيسمان . وكان هذا المؤلف علمى الذهن ، لا يسأل ما هو المعقول ؟ وإنما يبحث عن الواقع الذى تثبته المشاهدة والتجربة . وقد وجد بالمشاهدة المكروسكوبية أن الجراثيم المنوية ، أى التناسلية ، فى الحيوان مستقلة تمام الا ستقلال عن الخلايا الجسمية . وهى تسكن فى أجسامنا وتتغذى من دمائنا ، ولكنها لا تتأثر بحياتنا أقل التأثر . ونحن نتسلم هذه الجرثومة من آبائنا ونسلمها لأبنائنا . وهؤلاء يسلمونها للأحفاد دون أن تتأثر بالأجسام التى التصقت بها وعاشت عليها .

وقد وصل ڤيسمان إلى هذه النتيجة بالمشاهدة . فإن الجنين فى أولى ساعات تكوينه يتألف من خليتين : إحداهما خلية تناسلية والأخرى خلية جسمية . والأولى تبقى راكدة لا تنمو إلا عند المراهقة ، حين تنشط وتتكاثر . أما الثانية فتتكاثر منذ الساعات الأولى لتكون الجنين . ، وهى التى يبنى منها الإنسان أو الحيوان أو النبات .

وإذن فمهما تغير الوسط من البرد إلى الحر ، أومن السهل إلى الجبل ، أو من الرطوبة إلى الجفاف ، ومهما تغير الغذاء من النبات إلى الحيوان أو العكس ، ومهما تغيرت حركات الجسم بالعمل والكفاح ، ومهما تغير نشاط العقل بالدراسة أو عدمها ، ومهما تغيرت عاداتنا السلوكية ،

فإن الجراثيم المنوية التي تسلمناها من جدودنا وأسلافنا سنسلمها لأبنائنا وأحفادنا كما هي دون أن تتأثر بما تأثرت به أجسامنا نحن . ولذلك ليس فى ترقية الوسط أية ترقية للإنسان . لأن التفاوت فى الكفايات لا يعود إلى تفاوت فى الوسط ، وإنما إلى تفاوت فى الوراثة . هذه الوراثة التى لا نعرف فى زعم ڤيسمان كيف تؤثر فيها أو تغيرها .

وقد كافح هربرت سبنسر هذا القول . وكانت عباراته : « إذا لم يكن الوسط سبباً لتغير الأنواع فلا أعرف سبباً آخر للتطور » . ومع أن هذه الكلمات ينادى بل يصيح بها المنطق والتفكير السليم فإنى لم أستطع إلا التسليم بما قاله ڤيسمان ، لأنه قائم على المشاهـــدة التى هى بينة العلم .

ثم عرفت بعد ذلك تجارب الراهب « مندل » ، التى كان قد أجراها فى القرن الماضى فى اللوبيا أو الفاصوليا وبعض الحبوب الأخرى ، و« أثبت » أن الوراثة صارمة . وأنها تجرى على أرقام معينة كأنها لا تتأثر بالوسط بتاتاً . وانتهيت أنا إلى الايمان بهذه الوراثة الجامدة ، وبأن الوسط لا قيمة له أصلا فى تغير السلالات وتطورها . ذلك لأنى اعتمدت على ما كان يقوله الثقات . ولست أنا ثقة مجربا فى هذه العلوم ، فيجب أن أقبل ما يقوله المجربون .

ولكن بقى التطور عندى بلا تعليل لأنى أخرجت منه تأثير الوسط .

لا ، بقى شيء واحد هو تنازع البقاء أى يجب أن نسلم بأن الأفراد من الحيوان والنبات والإنسان تتفاوت فى الكفايات ، ونحن — مع أننا نجهل المصدر لهذا التفاوت — مضطرون إلى التسليم به . إذ هو واقع يشاهد ، وإن كان هذا التسليم يشبه التسليم بالغيبيات التى لا تعلل أو بالقدر الذى لا يحتسب .

وكان لهذه العقيدة مركبات نفسية عندى تتلوها مركبات اجتماعية . ذلك أن تنازع البقاء فى الطبيعة يجب أن يكون له صداه فى مجتمعنا ، كأن نقتل العاجز العليل أو نتركه يموت دون أن نعمل على شفائه . فهؤلاء العاجزون عن التفوق يستحقون تخلفهم ، وليس من الواجب علينا أن نساعدهم على أن يرتقوا، لأنهم إنما ولدوا وارثين لهذا العجز الذى يصلحه الوسط . ثم لماذا يبقى هؤلاء الزنوج أحياء مادامت هناك شعوب أرقى منهم ؟ وما دام إصلاحهم بإصلاح الوسط غير ممكن لأنه غير علمى ؟ فزوالهم إذن خير من بقائهم . وفى هذا القول بالوراثة تعليل علمى ، وتسويغ اجتماعى ، للاستعمار والاستغلال ، لأن الأقوياء بالوراثة هم الذين يستعمرون ويستغلون الضعفاء بالوراثة . وقد اتهمت نيتشه اتهاماً لأنه كان يدعو إلى إبادة الضعفاء . ومضت على سنوات كنت أحس عندما أرى إنساناً يتصدق على سائل بقرش أنه جنى على المجتمع وأفسد الأجيال القادمة . لأنه بهذا الإحسان قد استبقى الضعف واستولده .

ولكن يجب أن أعترف أنى لم أسلم كل التسليم بأن الطبيعة كافرة إلى هذا الحد . ولكنى كنت أقف متردداً ، أكاد أحبس نفسى عن السخاء والحنان والرقة العطف . وكنت أظن أنى بذلك قد أصبحت « علمياً ». وذلك أنى كنت على الدوام أهجس بالهاجس الفسلفى المنطقى ، وهو أنه ليس هناك سبب لتغير الحيوان أو النبات سوى تغير الوسط ، أى أن عادات الفرد فى حياته ، وصفاته التى اكتسبها من هذه العادات ، ترثها أعقابه ثم تتراكم وتتبلور حتى تصير صفات جسمية أو غريزة جديدة .

وأخيراً التفت إلى الهورمونات الجنسية ، تلك المركبات التى تفرزها الخصيتان فى الرجل والمبيضان فى المرأة وتؤثر فى قوام الجسم وشكله بحيث

يتغير شكل الجسم حين نقطعها (كما نرى فى الخصيان) فرأيت أنه ليس من المعقول أن تؤثر هذه الجراثيم المنوية فى أجسامنا دون أن تتأثر هى بأجسامنا .

وقرأت بعد ذلك كتاباً للأستاذ «وود جونس» عنوانه « العادة والوراثة » أوضح فيه أن العادات التى يتعودها الحيوان بل الأنسان تنتهى إلى أن تكون وراثية . وقد ذكر حقيقة كبيرة القيمة جداً تنقض ما قاله ڤيسمان من أن خلايا الجسم تنفصل من خلايا الجرثومة المنوية . وهى أن الرحم قد نزعت من بعض الفيران والأرانب فعادت إلى النمو . بل ذكر أن مثل هذا قد حدث لبعض النسوة اللاتى نزعت أرحامهن . وبذلك أثبت أن نزع الجرثومة المنوية من جسم الفأر والأرنب والمرأة ، وهى الجرثومة التى ينمو فيها الرحم هذا النزع والمحو لا يمنعان الجسم من إنماء جرثومة أخرى . وإذا كان الأمر كذلك فإن تأثر الجراثيم المنوية فى الذكر والأنثى بخلايا الجسم لا يترك مجالا للشك . ومن هنا يجب أن نسلم بأن الصفات المكتسبة ، أى العادات التى يتعودها الجسم ، تتأثر بها الجراثيم المنوية فتعود هذه العادات وراثية .

وقد ذكر ڤيسمان أنه قطع أذناب الفيران لعدة أجيال فلم يستطع إيجاد سلالة من الفيران خالية من الأذناب . ثم ضرب مثلا بالختان عند اليهود فقال : إنهم على الرغم من ممارسة هذه العادة أكثر من ثلاثة آلاف سنة لا يزال أطفالهم يولدون وهم غلف لم يتأثروا بالختان .

ولكن هذين المثلين لا يدلان على أن ڤيسمان كان بصيراً بمعنى التطور . فإن قطع أذناب الفئران وختان اليهود لا يزيد فى دلالته على ما نفعل نحن عندما نقص شعور رءوسنا ، إذ ليست هذه الأعمال عادات .

ذلك أن معنى العادة أكبر من هذه الأمثلة . فالحيوان يتعود العادة

لأنها تنفعه ، فهو يجد أولا متكلفاً جاهداً حتى تسهل عليه بالمرانة ، ثم تصير المرانة عادة يؤديها وهو لا يكاد يلتفت إليها . كعازف الكمان ، يبدأ متعلماً متعثراً متكلفاً ثم ينتهي بالمرانة إلى أن يعزف وهو يتحدث إليك لا يلتفت إلى الأوتار .

وهكذا الشأن فى الزرافة . حين كانت قصيرة العنق تمده إلى الأغصان فتشد عضلاته ، أى تمطها . ثم تكرر هذا بالمرانة حتى صارت العضلات تطول بالوراثة . وهذا هو الشأن فى ثفنات الجمل ، أى تلك الأجزاء المتجلدة الخشنة التى تلاصق الرمل عندما يبرك ، فإننا نعرف أن أقدامنا تتجلد وتخشن عندما نمشى على سطح خشن ، أو عندما يضيق علينا الحذاء . والإخشيشان فى ثفنة الجمل هو عادة نشأت من مقاومة الجسم للرمل الخشن ، ثم صارت بعد ذلك وراثية . بل هذا هو الشأن فى عنق الجمل الذى يمده كى يصل إلى أعشاب الأرض .

فالزرافة والجمل احتاج كلاهما إلى خواص مكتسبة ، صارت بعد ذلك موروثة ، لأنها نافعة . أما قطع ذنب الفأر ، وختان اليهود ، وقص شعورنا ، فليس منها أية منفعة لنا ولسنا نجهد فى تعودها . ولذلك ليس هناك ما يدعو إلى أن تكون وراثية .

* * *

ثم عدت إلى قواعد مندل فى الوراثة فوجدت أنها ليست محكمة ، أى أى ليست علمية ، حتى أصبح المندليون أنفسهم يقولون إن هناك شذوذاً فى بعض الصفات المورثة . وهذا كلام لا يستطيع الذهن العلمى أن يسيغه لأن القاعدة العلمية لا تتسع لأقل الشذوذ .

ثم انظر إلى النبات الذى استغله الإنسان لغذائه كالقمح مثلا ، فإنه إنما نشأ فى بقعة صغيرة فى الأصل ، ولكنه يزرع الآن فى الأقاليم

الثلجية التي تتاخم القطب الشمالى ، وفى الأقاليم الحارة بأفريقيا . وليس لهذا من سبب إلا أن القمح قد تعود مختلف الأقاليم التي زرعه الإنسان فيها ، وأورث عاداته ، أى صفاته المكتسبة ، لسلالاته المختلفة .

وهكذا الشأن فى البقر الذى يعيش فى السودان الحار ، وفى نروج الباردة ، مع أن الأسد لا يعيش إلا فى أواسط أفريقية لا يتجاوزها . ولو كان الأسد مدجنا كالبقر ، ينقله الإنسان معه إلى مهاجره البعيدة ، لكان قد تعود المناخ البارد وعاش فى نروج كما يعيش الآن فى أفريقيا .

وحيوان اليابسة الذى نزل إلى البحار مثل : القيطس والفقمة والدولفين يبين بوضوح كيف أن الوسط قد غيره ، وكيف أن سلائل هذا الحيوان قد ورثت التغير . بل إن هناك إمارات تدل على أن كفاح الحيوان للأمواج قد غير فى وضعه التشريحى .

مثال ذلك أننا عندما نسبح يكون همنا رفع الرأس حتى لا نختنق بالماء . وهذا الرفع يجعل العنق مشدوداً من الأمام منثنياً إلى الخلف ، فتندفع فقاره إلى الأمام فى العنق . وهذا هو مانراه إلى الآن فى الفقمة ، فإن فقارها أقرب إلى نحرها منها إلى قفاها .

وقد كان « بوربانك » الأمريكى يطعم الأشجار بغصون من أشجار أخرى فكان يجد الفواكه التي تنشأ على هذه الغصون تكتسب صفات جديدة من الشجرة الظئر أى الأم ، ثم تورث سلائلها هذه الصفات . مع أن الغصن لم يأخذ من الشجرة سوى الغذاء ، وهو بعض الوسط . وهذا الذى حققه بوربانك قد حققه أيضاً « ليسنكو » على أبعاد كبيرة . الغصن يؤثر فى الشجرة الظئر ، والشجرة الظئر تؤثر فى الغصن .

وهذا الفهم الجديد بشأن الوراثة والوسط قد عاد فأحدث لى مركبات نفسية واجتماعية أخرى . وأكسبنى فهما آخر للتطور . وهو أن داروين

قد أخطأ خطأ فادحاً عندما زعم أن «تنازع البقاء» هو كل شيء أو يكاد يكون كذلك . وإن كان فهمه لتنازع البقاء ليس ساذجاً أو ليس محض القوة والعداوة كما يتوهم القارئ . وشرعت أبصر أن التعاون في الطبيعة أكبر أثراً من التنازع . بل لا يكاد يكون هناك تنازع في عالم الحيوان بالمعنى البشري الذي نفهمه من هذه الكلمة . فالأسد لا يقتل الأسد ، والخروف لا يقتل الخروف . وقد يكون هناك صراع دموي بشأن الأنثى ، ولكنه لا ينتهي بالموت في كل حال . ثم هو صراع قصير الأجل . أما الإنسان فيقتل الإنسان بالملايين ، لا بمحض طبيعته ولكن باتجاه حضارته ، أو بما نشأ عليه من عواطف اجتماعية .

ونحن نخطئ خطأ كبيراً حين ننقل هذا المعنى المتوحش لتنازع البقاء من مجتمعنا إلى الحيوان في الغابة ، لأن الطبيعة ليست كما قال «هكسلي» أو غيره وهو متأثر بداروين : «حمراء بين الناب والمخلب» .

وهذا الفهم الجديد للتطور يحملنا على الإكبار من شأن الوسط البشري وضرورة ترقيته حضارياً وثقافياً ، لأن العادات التي يتعودها الإنسان بكفاحه لمصاعب الوسط سوف تنتقل كما لو كانت غرائز إلى الأجيال القادمة . وليس ما نسميه غرائز طبيعية سوى عادات تبلورت بتعاقب الأجيال .

والدلالة الأخلاقية لهذا النظر الجديد هي أننا إذا تركنا الناس أو بعض الفئات تعيش في عادات سيئة ، فإننا سوف نرى السوء لا يقتصر على الجيل القائم ، بل ينتقل إلى الأجيال القادمة بالوراثة .

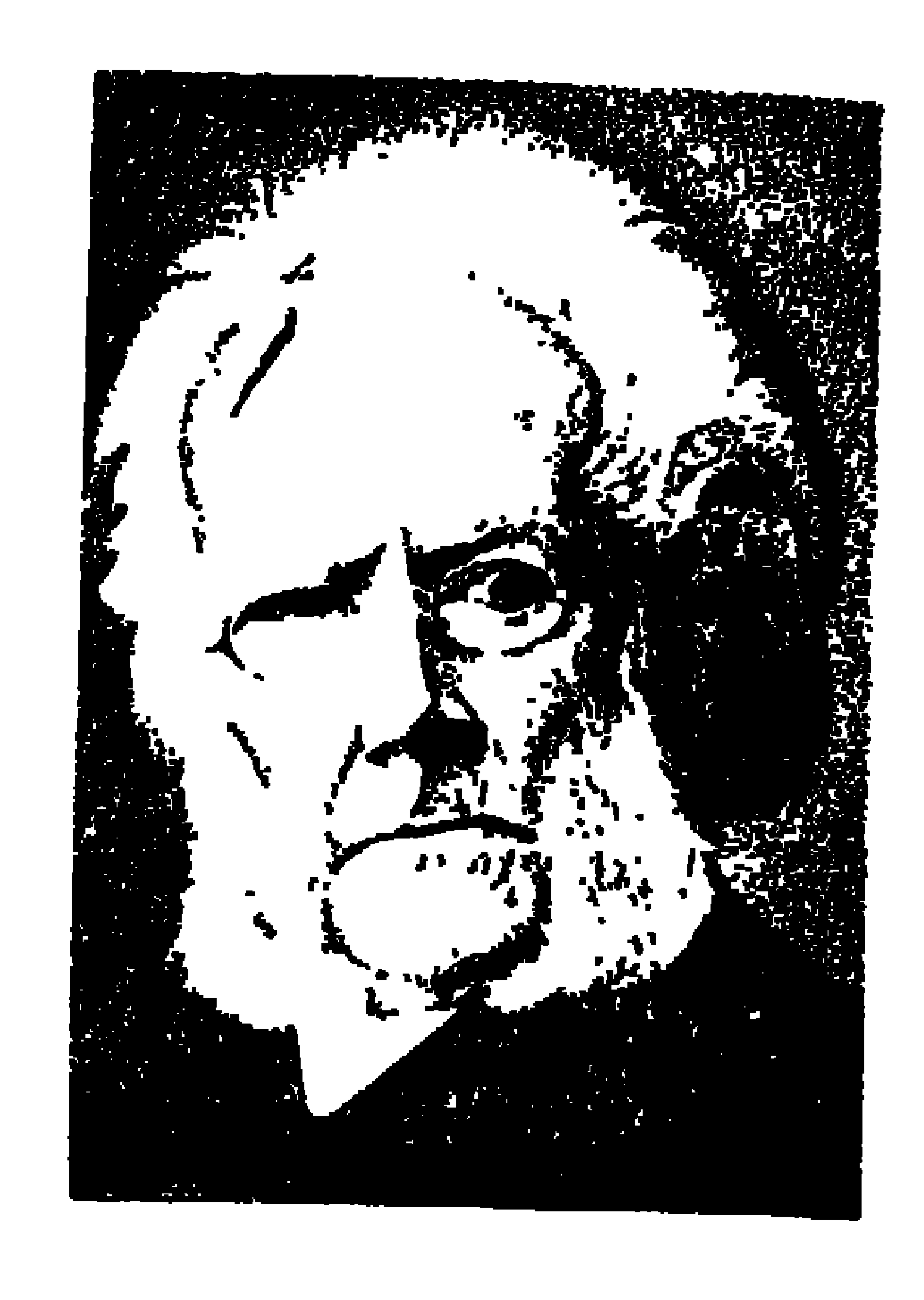
والوراثة في جمودها الذي اعتقده ڤيسمان تشبه القدر ، لأننا نعجز عن تغييرها . والإيمان بها يدعو إلى التشاؤم وإلى اليأس من إصلاح الطبيعة البشرية بغير الوسائل الإنتاجية التي لا تتفق دواماً وما نفهمه من العدالة والانسانية . وقد كانت الوراثة هي المركب السيكلوجي السيئ الذي ختم

على عقل «لومبروزو» وجعله يقول إن إصلاح المجرم غير ممكن لأنه يرث النزعة الإجرامية .

وإنى عندما أقلب صفحات ذاكرتى أجد مركبات ذهنية كبيرة انتفعت بها ، ولكن المركبات التى نشأت فى ذهنى من الإيمان بالوراثة قد أفسدت تفكيرى نحو أربعين سنة ، بل أفسدت أخلاق وجعلتنى أتشاءم كثيراً .

أما إيمانى بالوسط فقد أعاد إلى اتزانى الذهنى والأخلاق وملأنى تفاؤلا بمستقبل البشر .

هذه هى قصة الكتاب الذى أفسد ذهنى . ولكن المناخ الذهنى فى بداية هذا القرن كان يهىء للإيمان بالوراثة ويؤيدها .



هنريك إبسن . . .
داعية الشخصية

هنريك إبسن هو داعية الاستقلال الروحى للإنسان عامة وللمرأة خاصة . وقد ألف درامته « لعبة البيت » فى دعوة المرأة الأوربية إلى أن تستقل ، وتنشد الآفاق ، وتجرب التجارب . وتختبر الدنيا ، وتربى نفسها ، بدلا من أن تعيش خلف الرجل يكسب حولها ويحوطها برعايته ويدللها فى البيت ويقصر حياتها على الزواج والأمومة .

والاتجاه القديم للمرأة ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، كان ينظر إليها باعتبار أنها تابعة للرجل ، وأنها خلقت للبيت . وفى أمم الشرق القديمة بولغ فى هذا الاتجاه حتى انتهى إلى أن المرأة أنثى فقط تزود الرجل بلذاته الجنسية . وفى هذا قال شاعر عربى :

ماللنساء وللخطابة والقراءة والكتابة
هذا لنا ولهن منا ....

ولم يكن العرب منفردين فى هذا النظر فإن أوربا على الرغم من المظاهر الخادعة كانت تنظر أيضاً إلى المرأة هذه النظرة فى القرون الوسطى، ولكن أوربا كانت تمتاز بميزة كبرى هى أنها لم تفصل قط بين الجنسين فى المجتمع ، ولم تعرف الحجاب إلا فى أيام الإغريق . ومع ذلك لم يكن هذا الحجاب الإغريقى يغلق الأبواب إغلاقاً محكماً كما كانت الحال عندنا أيام القرون الوسطى .

ولكن مظهر الحرية الأوربية كان خلابا خادعاً أكثر مما كان واقعياً حقيقياً إلى بداية القرن التاسع عشر . فإن كثيراً من الأمم الأوربية كان يحرم المرأةَ الميراث ؛ كما كان يحرمها التعلم فى الجامعات . ولذلك بقيت محرومة من الاحتراف والاستقلال والكسب بممارسة الطب أو الهندسة أو سائر العلوم والفنون .

ولكن الضمير الأوربى كان فى بداية القرن التاسع عشر قد تنبه إلى وجدان جديد هو استقلال العقل البشرى وطرح التقاليد بفصل الدين من الدولة . كما أن الحركة الصناعية كانت قد جذبت آلافاً وملايين العمال الزراعيين من الريف إلى المدينة . والمناخ الذهنى فى المدن هو مناخ الحرية والاستقلال والتساؤل والشك . ولذلك وجدت الأفكار التحريرية تربة خصبة فى المصانع والمدن . وقد جذبت الصناعة أيضاً عدداً كبيراً من النساء إلى المصنع . ووجدت المرأة فى هذه المصانع جوًّا منعشاً بعث فيها الإقدام والاستقلال .

واحتاج هذا التطور إلى ألسنة تنطق وتعبر فى بلاغة الأديب وقوة المنطق ونظريات الفكر . فظهرت قصة « مدام بوفارى » للكاتب الفرنسى

چوستاف فلوبير ، كما ظهر كتاب ستورات ميل « إخضاع المرأة » ، ومدام بوڤارى قصة امرأة تزوجت أحد الأطباء فى الريف ثم وجدت الحياة دون نشاطها وآمالها فحطمت ما تعلمته من أخلاق واندفعت فى تيار من الشهوات . قضى عليها فى النهاية فانتحرت . وكأن المؤلف يقول لنا إن حال المرأة الأوربية سيىء ، وإننا لا نفتح لها أبواب الرقى . ولذلك تنزلق إلى مهاوى الشهوة الجنسية كى تخفف من سأم العيش المبتذل بين جدران المنزل . وكأنه يقول أيضاً : افتحوا أبواب العمل والنشاط الاجتماعيين للمرأة .

أما كتاب « ستوارت ميل » فهو تاريخ لاستبداد الرجل بالمرأة ، وأن هذا الاستبداد لا يضر المرأة وحدها ويعطل كفايتها ويحول دون رقيها باعتبارها إنساناً ، وإنما هو يعطل المجتمع كله نساء ورجالا .

وجاء إبسن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فتبلورت فيه هذه الآراء وأخرجها درامة موجعة سامية اهتزت منها المجتمعات الأوربية وأصبحت « نورا » بطلة هذه الدرامة قدوة المرأة الناهضة ومشعلا تهتدى بنوره .

وقد عاش إبسن فيما بين عامى ١٨٢٨ و١٩٠٦ ، وقد غير أوربا الأدبية وأحالها إلى الآراء العصرية ، إذ غرس فيها بذرة « البشرية الدينية » كما أبدل أخلاقها من تراث التقاليد إلى القيم البشرية التى توزن بميزان العقل . ودعا إلى الاستقلال النفسى ، وإلى ضرورة الجد فى الحياة ، بحيث نربى أنفسنا ونكون شخصياتنا أحراراً مفكرين مكافحين مستقلين .

وإبسن نروجى نشأ فى بيت ريفى ، ولكنه قضى صباه خادماً أو مساعداً فى صيدلية . ولم يكن شىء يفتح العين وينبه العقل إلى الأكاذيب الاجتماعية مثل الخدمة فى صيدلية وتركيب العقاقير فيما بين عامى

١٨٠٠ و ١٨٥٠ ، لأن الصيدليات فى تلك السنين كانت تعيش بما يقارب النصب ، إذ لم تكن عقاقيرها سوى مواد غريبة الأسماء معدومة النفع ولم يكن المريض ينتفع منها بأكثر من الوهم .

ولا بد أن إبسن قد تعلم تحطيم الأصنام من هذه المرانة الأولى فى الصيدليات ، ثم احترف الصحافة فى « كرستيانيا » ، والتحق بالمسرح فى « بيرجن » ، وبقى متصلا بالمسرح للإدارة وللإخراج والتأليف مدة طويلة فى كلتا هاتين المدينتين : بيرجن وكرستيانيا التى كانت وقتئذ عاصمة نروج .

وهذا الاتصال بالمسرح أكسبه بصيرة فى الفن كما أكسبه رؤيا فى التأليف . فإن دراماته غاية فى الدقة الفنية . وكثير منها يجرى على الأسس الإغريقية للفن المسرحى وهى أن الدرامة لا تزيد على أن تكون جلسة فى مكان وزمان معينين لا يتغيران من الفصل الأول إلى الفصل الأخير .

وقد نقل الدرامة الرومانتية إلى الواقعية ، وجعلها اجتماعية تعالج المشكلات التى يعانيها المجتمع . ففى إحدى الدرامات يعالج مرض السفلس وعواقبه الوخيمة ، وفى أخرى يعالج المسيحية والوثنية ، وفى أخرى يعالج استقلال الشخصية إلخ . .

ولكنه كان فى كل ذلك شاعراً ، يرى الرؤيا فتمتد نظرته إلى الآفاق البعيدة . وفيما بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٩٠ كان يعيش فى ألمانيا مستوحداً لا يكاد يعرف الأصدقاء . وكان يخرج درامة واحدة كل سنتين تقريباً . وقد أوجد مسرحاً جديداً فى أوربا ، وعندما نقرأ « برنارد شو » نجد أن إبسن مضمر فيه . فقد ألف « شو » كتيباً فى الدفاع عن إبسن وأسلوبه الواقعى . وكما أن إبسن كان يرى رؤيا الشاعر ، فإنه أيضاً كان يلتزم

الحقائق . وهذا هو شأن برنارد شو .

أما أفكاره وفلسفته فتتلخص فى قيمة الشخصية البشرية وضرورة استقلالها وتربيتها ، وأن هذا هو الواجب الأول على الرجل والمرأة . ومن هذه البؤرة تتشعع واجبات أخرى ، هى أن نأخذ أنفسنا بالجد وأن نعتمد على العقل ونحيا الحياة الشريفة الفنية الراقية . وألا نخضع لأطياف الماضى وأشباحه. وقد كتب إلى أخته خطاباً قال فيه : « أحب أن أرى كل شىء فى وضوح وصفاء ، ثم أحب بعد ذلك أن أموت » .

وهو يعنى بهذه الكلمة الإيمائية أنه يجب أن يرى المشكلات الاجتماعية مكشوفة، واضحة، خالية من المركبات التاريخية والتقليدية التى تحول دون رؤيتها على حقيقتها . أى يجب على الأديب أن يكون واقعياً، يرى الواقع الملموس ثم يبنى خياله على أساسه ، ويرى رؤياه من خلال علسته .

وأبعد ما كان يبتعد عنه إبسن هو البرج العاجى الذى يعيش فيه الأديب السخيف ، يحلم ويتخيل فى عزلة عن المجتمع ومشكلاته . كأنه الأدب لذة موسيقية فقط ، وكأنه يجب أن يترفع عن معالجة الجوع والبغاء والمرض والظلم والاستبداد .

« الشخصية البشرية » هى إنجيل إبسن .

وإذن لم يكن مفر من أن يسأل عن شخصية المرأة . وهل الحضارة فى عصره كانت تهيىء لها أن تكون إنساناً راقياً مجداً ، لها أهداف شريفة تعيش من أجلها وتحس أنها تؤدى رسالتها فى الحياة ، كما أن لها أسلوباً فلسفياً تتخذه فى عيشها ، أم لا ؟

هذه هى المشكلة التى عالجها إبسن فى درامة « بيت الدمية » أو « لعبة البيت » . واللعبة هنا هى الدمية التى تلعب بها الطفلة وهو يرمى من هذه التسمية إلى أن المرأة الأوربية (حوالى عام ١٨٧٠) هى لعبة الرجل عام يقومها ويقدرها بما تتسم به من سذاجة وجهل . وهى تولد فى بيت

أبويها فتعامل منهما كما لو كانت لعبة تزخرف بالملابس الزاهية وتدرب على إنكار نفسها ، فلا تتحدث عما يتحدث عنه الرجال فضلا عن أن تمارس أعمالهم . فتنشأ محدودة الفهم قليلة المعارف قد سدت فى وجهها أبواب العمل الكاسب الذى يعمله الرجال ويكسبون منه أرزاقهم كما يكونون به شخصياتهم .

و « نورا » هى هذه الفتاة ، تترك بيت أبويها إلى بيت زوجها فى جمال وبراءة وطهارة وسذاجة . لها وجه كأنه قد صنع من وريقات الورد وكأنه قد خلق للقبلات فقط . وجسم قد شيدته الطبيعة كأنه يمثل النبل والروعة . وهى تتحدث بلغة قد هذبت كلماتها ، فلا تنطق بما ينطق به الرجال . أما العقل فهو العقل الساذج الذى لم يختبر الدنيا ولم تمر به الأخطاء والأخطار فيتعلم ويتدرب . ويتلقاها زوجها فيعاملها كما كان يعاملها أبواها . فهى حتى عندما تبلغ الأربعين أو الخمسين ستبقى طفلة .

وإبسن يثور على هذا الوضع ويتساءل : لماذا تبقين طفلة ؟ أين شخصيتك وذكاؤك ؟ ولماذا تحرمين اختبارات هذه الدنيا ؟

وتجرى الدرامة فى سياق التمثيل الذى يوضح لنا أن المرأة لن تكون نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه . لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية إنساناً إلا عندما ترفع نفسها من الأنثوية . وأن هذا لن يكون إلا عندما تأخذ نفسها مأخذ الجد ، فتستقل بشخصيتها وتتعلم وتختبر . ونحن الرجال لا نتعلم ونرتفع إلى المقام الاجتماعى أو المكانة الذهنية أو الفهم المحيط . كما لا تتكون لنا شخصية ، إلا لأننا نختلط بالمجتمع ونعالج الخطأ ونقع حتى فى الخطر . وليس هناك رجل يفخر بأنه ساذج أو طاهر أو برىء على نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه. لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية أننا نحب جهل المرأة وإبقاءها طفلة أو « لعبة » كما يقول إبسن .

ونورا بعد أن تتكشف لها حالها ، هذه تترك بيت الزوجية ، تترك

الزوج والأطفال ، بعد أن تشرح لزوجها أنها طفلة ، وأنها لن تقبل أن تعيش سائر حياتها فى هذه الطفولة ، وأنها ستخرج إلى الدنيا كى تعامل وتختبر حتى تنجز لنفسها وعد حياتها ، وحتى تؤدى حق إنسانيتها ، بأن تبنى شخصيتها بالمعرفة والاختبار والدرس مهما ارتكبت من أخطاء أو وقعت فى أخطار . ذلك لأن رسالة الإنسان فى هذه الدنيا أن يعرف الدنيا ولا يحاط بسياج من الواجبات الاجتماعية تحول دون فهمه أو بنائه لشخصيته .

وقد أحدثت هذه الدرامة ضجة كبرى فى العالم الأوربى لأنها صدمت العقائد والتقاليد . ولكن الضجة هدأت أو انفثأت عن انتصار المرأة والتسليم بأن جمالها القديم ، جمال الوجه والصدر والقامة والفخذين ، هو جمال الأنثى .

وأما جمال المرأة الجديدة فيجب أن يعلو على ذلك ، أى يجب أن ينطوى على العقل النير والشخصية الراقية التى تدربت بالتجارب والاختبارات ، وارتقت بالثقافة واشتركت فى شئون المجتمع ، وقد كان إبسن رؤياى المنيرة حين كنت حوالى العشرين ، أتلمس المثليات الأوربية والقيم العصرية ، وأبنى شخصيتى الذهنية . وكان مركز المرأة المصرية يحز فى صدرى كأنه خزى أبدى لولا هذه المحاولات الصغيرة العظيمة فى مثل كتابى قاسم أمين ثم ، بعد نصف قرن ، فى نشاط هدى شعراوى وسيزا نبراوى ودرية شفيق وأمينة السعيد وأمثالهن .

ونحن الشرقيين قد ورثنا تراثاً سيئاً من القرون المظلمة ، هو تراث الرق والخصيان والحجاب . وأولئك الذين يدافعون عن الحجاب ينسون خصاء الزنوج كى يتممه ، أى يتمم الحجاب ، ولعلهم يخجلون حين يذكرون ذلك .

لقد تعلمت من إبسن شرفاً جديداً لم أكن أعرفه حين تركت بلادى إلى أوربا فى عام ١٩٠٧ ، هو شرف الإنسانية التى يجب ألا يحدها حجاب

المرأة . هو شرف الزواج الذى يقوم على الاخاء والمساواة ، ليس فيه سيد وعبد ، وهو شرف الأمة التى ترفع نساءها إلى مقام الوزيرات والنائبات وتفتح لهن المدارس والجامعات .

قبل خمسين سنة كنا نقعد إلى المرأة فنجد الجهل مع السذاجة ، جهل وسذاجة يبعثان الاشمئزاز الذهنى فى الرجل الناضج . ولا تزال هذه الحال باقية فى معظم أوساطنا . ولكن الدنيا تتغير ، وهى تتغير لمصلحة المرأة ورفعتها وترقيتها ، ولن ترتقى المرأة المصرية وتبلغ النضج أو الإيناع إلا عندما تختلط بمجتمعنا نحن الرجال وتمارس أعمالنا وتعب من اختباراتناوتشترك فى الصناعة والتجارة والسياسة وتواجه الأخطاء والأخطار .

وليست عبرة « لعبة البيت » مقصورة على المرأة ، فإنها تمس الرجال إلا القليل من الناضجين . ذلك أن الرجل العادى فى كثير من تصرفاته يعيش بلا استقلال ، وليس له من الشخصية سوى الاسم . يخضع للتقاليد وينساق فى تيار العرف . وصحيح أن الدنيا تربيه وتصلب عوده وتخصب شخصيته بالاختبارات والاصطدامات التى تحرم منها المرأة ، فهو يخطئ ويصيب ويتعلم ويقف على كثير من الأكاذيب الاجتماعية التى تفتح ذهنه وتنير رؤياه ، وكل هذا لانصيب المرأة منه شيئاً لأنها محبوسة بسياج أو حجاب من التقاليد .

ودعوة إبسن هنا : لتكن لكل منا شخصية ولينظر كل منا إلى الدنيا كما لو كان هو محورها ، ليس لأحد ولا لعقيدة سلطان عليه إلا ما يرى بعد التفكير الاستقلالى أنه نافع له ولمجتمعه .

إننا نطلب الحرية من القوانين والدساتير ، ولكن كل ما تستطيع هذه أن تهبنا من حقوق هو على الدوام دون ما نهب أنفسنا . لأن قيود التقاليد واصطلاحات العرف الاجتماعى تقيدنا أكثر مما تقيدنا به مظالم المستبدين التى تحاول الدساتير والقوانين محوها أو مكافحتها .

وحتى حين يستبد بنا حاكم ظالم ويستعين بالقوة المادية على تقييد حريتنا نستطيع الاحتفاظ بكرامتنا والإحساس باستقلالنا ، لأننا نقاوم ونكافح استبداده وجبروته ونحن على وجدان بأننا أرقى منه . ولكن استبداد التقاليد ينغرس فى نفوسنا ، ويعين مزاجنا ، ويعودنا عادات ذهنية ونفسية تجعل كلا منا أسيراً . أجل ، وأسير نفسه مع ذلك . فالمرأة التى نشأت على الحجاب لا تحس هوانه كما لا تعرف جهلها ، وهى لذلك لا تقاوم ولا تكافح . وكذلك شأن الرجل الذى يعيش فى أسر التقاليد وكأنها من طبيعة الأشياء التى لا تتغير ، بل لا تحتاج إلى التغيير .

والفرق بينه وبين المرأة هو فرق الدرجة فقط إذ هو فى حجاب نفسى وذهنى . وهذه الدنيا هى ملك الإنسان وعلينا جميعاً رجالا ونساء أن نتعلم وننضج ولا نكون لعبة الأقدار أو لعبة المجتمع . وعلينا أن نستقل وندرس ونختبر الحقائق ، وليس هذا واجب « نورا » وحدها ولا واجب النساء وحدهن وإنما هو واجب الرجال أيضاً .

ونِعْمَ هذا الدرس الذى علمنا إياه إبسن ، درس حق كل إنسان فى تقرير مصيره وتربية شخصيته .

* * *

كنت قبل سنوات أصطاف بالإسكندرية ، وكنا نقعد رجالا ونساء فى اجتماعات عائلية على الشاطئ نتجاذب الحديث . وما كان أسخف ما كانت تتحدث عنه النساء .

شئون الخدم ، وزواج هذه الآنسة أو تلك الأرملة ، وهذا الخطيب الثرى المنتظر لهذه الفتاة ، وخاتم الخطبة ، ومبلغ المهر لتلك الفتاة الأخرى . والسكنى فى الزمالك والأتومبيل الجديد عند فلان « بك » وهذه الخياطة البارعة وذلك القماش الجديد إلخ . .

أحاديث تافهة من شخصيات تافهة . واهتمامات زائفة نشأت من حبسة البيت وحبسة النفس . فلم يكن بين هؤلاء النسوة من كانت تهتم ببحث العبرة والدلالة للطاقة الذرية ، أو لهيئة الأمم المتحدة ، أو لفلسفة برتراندراسل أو للمخترعات الطبية أو لمستقبل المرأة فى الهند ومصر . أو لمعنى الدين أو برامج المدارس . وكأنهن لم يكن يقرأن الجرائد فضلا عن الكتب .

ولكن كان فى هذا الوسط فتاتان لم تتزوجا وإنما احترفتا التمريض فى أحد المستشفيات بالقاهرة ، وكنت عندما أقعد إليهما وأتحدث أحس أنى إزاء شخصيتين عالميتين . فقد اكتسبت كل منهما نظرة عالمية أخرى غير المنزل والخدم والطبخ وأحمر الشفاه والفستان الجديد .

وقد استمعت إلى حديث إحداهما عن المرضى والأمراض ، واختلاف الناس فى استقبال الموت ، أو الحكم بالموت ، عندما يعرف المريض أن سرطاناً قديماً قد نبت وتفرع فى جوفه .

ووصفت لى إحداهما كيف رأت رجلا قبيل النزع وكيف خففت عنه .

وكنا فى سيدى بشر وهى تبعد عن الإسكندرية بنحو عشرة كيلومترات ، فاقترحنا على أن ننهض ذات صباح ونسير على الأقدام بحذاء الشاطئ إلى الإسكندرية .

وكنت أحس وأنا أتحدث إلى كل منهما أنى إزاء إنسان قد استحال إلى شخصية ناضجة تمتاز بجمال وكرامة وذكاء . وذلك لأن اختلاطهما بالمجتمع وخدمتهما له قد زاد ذكاءهما وكون شخصيتهما ، ولو أن كلا منهما كانت قد نشأت النشأة المألوفة عند غيرهن ، اللائى يعشن فى البيت وينتظرن الزوج ، ثم يتزوجن ويقصرن اهتماماتهن على اللباس والخدم وقصص الزواج والثراء ، لما كانت لها هذه الشخصية .

والذكاء ينهض على أساس طبيعي ولكنه يربى بالمجتمع . ونحن الرجال بما نمارس من اختبارات ونكابد من كسب أو خسارة ونصادف من أخطار ، بل بما نرتكب من أخطاء ، نتعلم وننمو ونزيد حكمة . والمرأة كذلك لن تكون إنساناً حكيما إلا إذا مارست جميع الأعمال التي يعملها الرجال واقتحمت ميادينهم وتعرضت للأخطار مثلهم .

وهذه الصورة الجديدة للمرأة قد لا تعجب بعض الرجال الذين يؤثرون جهل الزوجة على معرفتها وقصورها على نضجها . وهم يحسون سيطرة ويمارسون تسلطاً عليها فى هذه الحال ، ويلتذون هذه المرتبة أو الميزة العالية لهم عليها . ولكن المرأة الرشيدة يجب أن تتنبه وترفض أن تكون لعبة الرجل كما رفضت « نورا » .

ونحن الرجال نعرف أن المدرسة والجامعة لا تربياننا وإنما الذى يربينا هو هذا المجتمع الذى نختلط به ونصطدم بمشكلاته. ونحن لا نستقطر الحكمة ، وننضج النضج الفلسفى ، إلا بعد أن نخطئ ونصيب ونخسر ونكسب ، وننساق ساعة الهوى ، ثم نفيق عقبها سنين لأننا عرفنا الحقائق بالخبرة ومارسنا هذه الدنيا فى حرية واستقلال بلا خوف من سلطة أو تقاليد .

وهذه الحكمة التى ننالها نحن الرجال من اختباراتنا لهذه الدنيا يجب أن تنالها المرأة بمثل الوسائل التى نتوسل نحن بها ، أى بالعمل والإنتاج والاختلاط والاستقلال والاختبار .

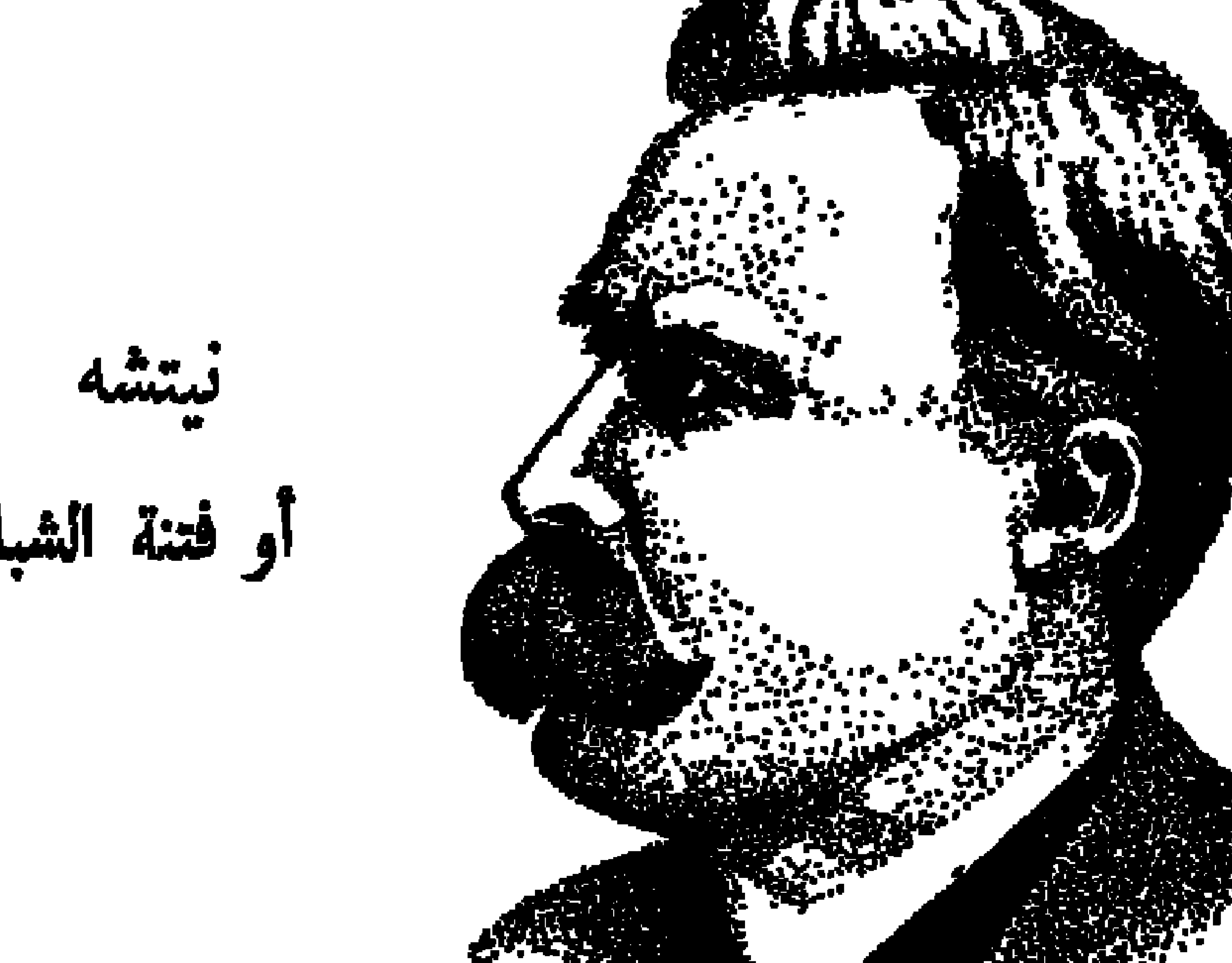
وهذه الصورة الجديدة التى رسمها لنا إبسن فى نورا قد تحققت فى المرأة الأمريكية إلى أبعد حد . وكذلك تحققت إلى حد ما فى المرأة الانجليزية والإسكندناوية والروسية حيث تعمل المرأة إلى جنب الرجل وتستقل بما تكسب . ولم يعد الرجل يعولها ، وقد أصبحت شخصيتها قوية جلية تواجه الدنيا فى شجاعة وتحترف الحرف التى ترقيها وتنبه ذكاءها

وتفتل عضلاتها . وهى فى كل ذلك لم تهمل مهمتها البيولوجية فى الزواج والحمل والولادة .

وقد جدت ظروف جعلت هذا الاتجاه نحو استقلال المرأة يسير بسرعة . ذلك أن وفرة الآلات الميكانيكية فى البيت الأمريكى أغنت المرأة عن العمل فى الطبخ والغسل . فزاد فراغها الذى احتاجت إلى أن تشغله بالعمل والكسب خارج البيت . ومعنى هذا أن التغير فى الإنتاج المنزلى قد أحدث تغيراً فى أخلاق المرأة . وحققت هذه الآلات الكهربائية دعوة إبسن من حيث لم يكن ينتظرها .

والمقارنة بين المرأة الأمريكية التى تعمل فى المصانع والمتاجر والمكاتب، وتستقل بعواطفها، وترسم بيدها خارطة حياتها، وتقرأ وتناقش وتكسب وتخسر وتصيب وتخطئ ، وقد تكونت لها شخصية رصينة بصيرة قوية من هذه الحياة ، نقول إن المقارنة بينها وبين المرأة الأوربية فى الأقطار الجنوبية مثل إسبانيا وإيطاليا ويونان حيث لايزال المطبخ يجرى على تقاليده وحيث يستأثر المطبخ والغسل بمعظم الوقت ، وحيث يسود الرجل المرأة وله عليها الكلمة العليا ، بحيث يقرر لها ، أو يكاد يقرر لها ، مصيرها — هذه المقارنة توضح لنا سمو المرأة الأمريكية الجديدة ، باعتبارها إنساناً عاقلا مستقلا ، على هذه المرأة الأوربية الجنوبية لا التى تزال مقيدة بالتقاليد .

إن العمل والكسب والاختبار والإصابة والخطأ والاختلاط بالمجتمع قد ربى المرأة الأمريكية ، فى حين أن الانزواء فى البيت قد قيد النمو الذهنى للمرأة الأوربية الجنوبية . ولا نذكر المرأة الشرقية .



نيتشه
أو فتنة الشباب

اثنان انخدعت بهما سنوات كثيرة . أولهما ڤيسمان الذى غرس فى ذهنى أن الصفات المكتسبة لا تورث . وإحساسى الآن نحو هذا الرجل هو البغض . أما الثانى فهو نيتشه الذى خدعنى ، فافتتنت به سنوات ، قبل أن أتخلص منه . وإحساسى نحوه هو الحب .

وقد عرفت نيتشه فى عام ١٩٠٩ وكنت منغمساً فى نظرية التطور .

وكان « تنازع البقاء » و « بقاء الأصلح » و « الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب » من المعانى التى أقبلها فى صمت وتسليم . وهذه المعانى جميعها تنقض الديانات التى تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشرى وحماية الضعيف .

وهبط على نيتشه كما لو كان وحياً أو كشفاً . نثر ساحر كأنه أبيات

من الشعر . وخيال يرتفع إلى آفاق المستقبل . وجرأة تكاد تجمد ذهن الناشئ رهبة وجزعاً أو تنفضه حماسة وطرباً . ثم إلى ذلك فلسفة تعلو على برود المنطق ، وتأخذ بحماسة الإيمان وغلواء التفاؤل . وفى كل ذلك ارتباط بالتطور .. « إنى أعلمكم علم السبرمان ، أو الإنسان الأعلى . ما هو القرد إزاء الإنسان ؟ أضحوكة أو خزى . . وكذلك يجب أن يكون الإنسان إزاء السبرمان ، أضحوكة أو خزى ؟ . . إنما الإنسان معبر أو جسر يصل بين القرد والسبرمان . سوف يكون السبرمان ازدهاراً وخيراً وتعبيراً نهائياً للأرض . أستحلفكم أن تكونوا أمناء للأرض. وأن تكفوا عن التطلع إلى النجوم تنشدون منها آلاماً ومكافآت . إن عليكم أن تضحوا بأنفسكم للأرض حتى يتاح لها أن تنجب يوماً ما السبرمان . الإنسان شىء يعلى عليه ، فماذا فعلتم كى تعلوا عليه ؟ »

كلمات رائعة كان وقعها فى نفسى ، وأنا حوالى العشرين ، وحياً أو كشفاً ، فتعلقت به ، وكتبت عنه مقالا فى مجلة المقتطف فى عام ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » .

وقد كانت نظرية التطور جديدة فى أوربا ، وكانت تكشف عن صورة وحشية للتطور . وقد استلهم منها أعداء المسيحية برهاناً جديداً يقيمونه لنقضها ، وكانوا قبل ذلك يقنعون بالمقارنات التاريخية بين الأناجيل يوضحون زيف الأساطير فى الدين . ولم يكن يجرؤ أحدهم على القول بأن الأخلاق المسيحية ليست هى الأخلاق المثلى أو أنها تؤخر البشرية أو أن هناك ما هو أرقى منها . ولكن نيتشه لم يبال الأساطير أو المعجزات ، إذ عمد إلى دعوة المسيحية التى امتازت بها ، وهى الرحمة وحب المساكين والضعفاء ، فحمل عليها ووجد فيها ميداناً لبحث القيم والأوزان التى يعيش بها الأوربيون المسيحيون . فقال إن هذه الأخلاق تعارض بقاء الأقوياء « الصقور » وتصدهم عن حقهم الذى تنطق به الطبيعة وهو

أن الصقر يجب أن يأكل العصفور . فإن بين البشر عصافير ضعفاء يستحقون الفناء ، كما أن بينهم صقوراً قوية تستحق البقاء . وهو فى هذا المنطق لا يذكر داروين . مع أن القارئ لمؤلفاته لا يتمالك أن يذكر نظرية التطور .

ونيتشه أديب من الطراز الأول . وهو أيضاً لغوى وفيلسوف . ومن هنا سحره الذى لا يقاوم . فإنه يفكر تفكير الفيلسوف ويكتب بلغة الأديب . وهو يرجع بحثه إلى التاريخ .

فإن الرومانيين القدماء كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية يتخذون السيف شعاراً والقوة مذهباً ، وكانت أخلاقهم تنزع إلى البطولة كما يتضح من كلمة Virtue ومعناها الفضيلة . فإنها مشتقة من كلمة Vir ومعناها الرجولة ، فالفضية كانت عند الرومانيين صفة الرجولة أو أهم خصائصها ، ولكن المسيحية جاءت فى زعم نيتشه فاستبدلت بالرجولة والبطولة ضعفاً زرياً نرى نتائجه فى شعوب أوربا الحاضرة حيث تتفشى الأمراض وتكاد تكون خالدة لأننا نحمى كل مريض ونعنى بعلاجه .

ولد نيتشه فى عام ١٨٤٤ ومات فى عام ١٩٠٠ وكان أبوه قسيساً ، كما كانت أمه امرأة متدينة . وقد هيئ لأن يدرس فى كلية دينية كى يكون قسيساً ، ولكنه التفت إلى اللغات فبرع فيها . ومن تحليل الكلمات القديمة استطاع أن يحلل التطور الأخلاقى فى أوربا . ونستطيع أن نلخص فلسفته بأنها ترمى إلى أن تجعل غاية الحياة خدمة الأقلية من الشخصيات السامية ، وليس خدمة الأكثرية أو سواد الأمة . وهو هنا بالطبع غير ديمقراطى ، بل عدو الديموقراطية .

وهو بكلمة أخرى يطلب أخلاق السادة بدلا من أخلاق « القطيع » كما يصف سواد الشعب .

ومما ينبهنا هنا أن هتلر كان كبير الإعجاب به ، وقد أهدى مجموعة فاخرة من مؤلفاته إلى موسوليني . وكلاهما ، أي هتلر وموسوليني ، كان عدوًّا للديمقراطية . ولكننا لا نعني من هذا القول أن نيتشه يحمل قارئه على الاعتقاد بأن الفاشية نظام حسن، فإن فيه أحياناً من سمو الفكرة ونضج الحكمة مايجعلنا نشمئز من المقارنة بينه وبين هذين الطاغيتين .

ونحن نضحك منه حين يقول : « اللحادون والمسيحيون ، والبقر والنساء ، والإنجليز وسائر الديمقراطيين ، ينتمون إلى أصل واحد » .

ولكننا نحس بروعة أفكاره حين يقول : « الزواج هو اجتماع إرادتين لإيجاد شخص ثالث أعلى من الزوجين ».

وقوله : « لا يجب فقط أن نتناسل إنما يجب أن نتناسل إلى أعلى » .

وهذا أحسن ما قيل عن الزواج . فإنه رفعه من معاني السعادة واللذة إلى معاني التطور والتضحية ، أي يجب أن يدبر الزواج بحيث يؤدي إلى الرقي البيولوجي وإيجاد السبرمان وزيادة الذكاء والصحة والقوة .

وحملة نيتشه على المسيحية تتساوق مع فلسفته . فإنه يجد فيها دعوة إلى التواضع والخضوع والطيبة ، في حين هو يطلب الارتفاع والكبرياء والقسوة . أو يمكن أن يقال إن المسيحية تنشد مجتمعاً أفقياً يتساوى فيه الجميع ، بل يمنع التفوق لبعض أفراده ويعيد الجميع إلى حال سواء من التوسط . ولكن نيتشه ينشد مجتمعاً عمودياً يتيح للعظماء أن يتفوقوا ويسودوا .

وعنده أن « الشرف » وثني روماني أرستقراطي . أما « الضمير » فسيحي يهودي ديمقراطي . وأن أوربا لهذا السبب مهددة ببوذية جديدة تنكر فيها الحياة . ومن أقواله :

« الغريزة هي أسمى أنواع الذكاء التي اكتشفت إلى الآن » .

« ونصيحتى إليكم أيها الإخوان هى : كونوا قساة صلاباً » .

« علينا أن نفر من أقرب الناس إلينا ، من جيراننا ، ونحب أبعد الناس عنا » .

« تفاوت الحقوق هو الشرط الأساسى لوجود الحقوق » .

« لصغار الناس صغار الفضائل ، ولكننى لا أعرف ما حاجتنا إلى صغار الفضائل » .

« ليس للأنانية قيمة فى الأرض أو فى السماء . وجميع المسائل العظيمة تحتاج إلى حب عظيم » .

« الانتقام الصغير أكثر إنسانية من العف عن الانتقام » .

« ما هو الشىء الحسن ؟ هو كل ما يزيد الإحساس بالقوة ، أى إرادة القوة ، أى القوة ذاتها فى الإنسان » .

« وما هو الشىء السيئ ؟ هو كل ما ينشأ من الضعف » .

« عيشوا فى خطر ، شيدوا مدنكم إلى جنب فيزوف . ابعثوا بسفنكم إلى بحار مجهولة » .

« لأنك جعلت الخطر حرفتك ، لذلك أدفنك بيدى » .

ومن هذه المختارات الموجزة نجد أن نيتشه لا يقدم لنا فلسفة ومنطقاً بمقدار ما يقدم لنا أشعاراً أو مذهباً وعقيدة خلاصتهما أن نتخلص من الضعف ونقسو على أنفسنا وعلى غيرنا . ومع أننا نحس من اتجاهاته الفكرية أنه على التصاق واعتناق لمذهب داروين فى التطور البيولوجى ، فإن الميزة واضحة فى أنه لا يطلب سبرماناً للمستقبل بمقدار ما يطلب منا أن نكون نحن على سمو وارتفاع فوق العامة ، وعلى مقاطعة للأخلاق المسيحية .

وإنسان المستقبل (السبرمان) الذى يرتفع فوقنا بمقدار ما نرتفع

نحن فوق القردة ، لا يحتاج لإيجاده إلى القسوة الأخلاقية بمقدار ما يحتاج إلى التنظيم الاجتماعى للزواج والتناسل . وهذا يتم بالتعاون والرفق أكثر مما يتم بالتنازع والقسوة .

ومنطق المسيحية هو المنطق الإنسانى بالتعاون . ومنطق نيتشه هو المنطق الفطرى بالتنازع .

وقسوة المبادئ الإمبراطورية . والقول بأن هناك سلالات بشرية لها حق السيادة على الشعوب السوداء أو السمراء أو الصفراء : هما أبعد ما يكونان عن تفكير نيتشه عندما نتأمل ونتعمق مؤلفاته . ولكن ليس هناك شك أن الدراسة السطحية قد عملت لتأييد هذه الاتجاهات ، كما يتضح من إكبار النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين لمؤلفاته لاعتقادهم أنه يؤيدهم .

* * *

والقارئ لنيتشه فى حملته على المسيح يحس وجاهة الرأى الذى يقول به « أندريه جيد » ، وهو أن نيتشه يغار غيرة شخصية من المسيح . فإن كلماته تحمل أحياناً بذاء أكثر مما تحمل نقداً . وهو فى كتابه « هذا ما قال زرادشت » يقحم الإنجيل ويكذب كلمات المسيح . بل نحس ، ونحن نقرأ هذا الكتاب ، أنه يقلب العبرة والدلالة من كلمات المسيح ويضع مكانها كلمات أخرى لها نقيض الأخلاق المسيحية . ثم يزيد على هذا فيحاكى أسلوب الإنجيل . فكما أن المسيح كان يجادل الفريسيين ويناقضهم ، كذلك نيتشه قد جاء كي يجادل « الطيبين العادلين . . . لأن عقولهم مقيدة فى سجون ضمائرهم » . ثم يخاطب تلاميذه بما يشابه أو يطابق خطبة الجبل حين خاطب المسيح تلاميذه ، ولكن مع الفرق فى العبرة والدلالة . إذ حيث يدعو المسيح إلى الرحمة والحنان والإخاء البشرى فى

أبوة الله» يدعو نيتشه إلى القسوة وضرورة التفاوت . ولنيتشه كما للمسيح خلوته واستيحاؤه وله أيضاً « العشاء الأخير » الذى يقول عنه بلسان زرادشت « هذا العشاء لتذكرونى » .

ثم تزداد الغيرة إلى حد الجنون فيقول : « ما هى أعظم الخطايا على الأرض إلى يومنا هذا ؟ أليست هى قول ذلك القائل : ويل لكم أنتم الذين تضحكون فى هذا العالم » . وهو هنا يشير إلى المسيح ثم يحاكى ويناقض بما فى قوله على لسان زرادشت :

« صحيح أنكم إذا لم تصيروا كالأطفال الصغار فإنكم لن تدخلوا ملكوت السموات (وهنا يشير زرادشت إلى السماء) ولكننا لا نرغب فى أن ندخل هذا الملكوت لأننا قد صرنا رجالا . ولهذا نحن ننشد ملكوت الأرض » .

بل يتحدث فى جنون ، فيأسف على أن المسيح لم يعمر طويلا . ويقول إنه لو كان قد عمر طويلا لنقض آراءه التى كان قد قال بها ، ثم يقول :

« حقاً لقد مات هذا العبرانى . .

« لم يكن قد عرف فى حياته سوى دموع العبرانى وأحزانه ، مع كراهة الطيبين والعادلين ، هذا المسيح العبرانى ، ثم إذا ببيداء الموت تطويه . . .

« ولم يعش فى البيداء بعيداً عن الطيبين والعادلين ، لعله لو كان قد فعل لكان قد عرف كيف يعيش . وكان عندئذ يحب الأرض والحياة أيضاً . .

« ثقوا يا إخوانى أنه مات دون أن يعمل ، ولو أنه كان قد عاش مثلما عشت ، وعمر مثلما عمرت ، لنقض ما كزن قد قاله ، أجل : إنه كان على شرف يحمله على أن ينقد ما كان قد قاله .

« ولكنه لم ينضج ، وحبه إنما كان حب الشباب الذى ينقصه النضج . وهذا هو علة كراهته للأرض والحياة » .

* * *

إن كثيراً من أقوال نيتشه يوهم الهوس إن لم نقل الجنون . وربما مما لا شك فيه أنه قضى نحو عشرين سنة وهو فى جنون يكاد يكون مطبقاً ، إذ كان فى الدور الأخير من السفلس . ولعل هذا الجنون كان قد تسلل وئيداً قبل أن يطبق عليه . ولعل أيضا بعض هذيانه يعزى إلى هذا المرض .

على أن كثيراً من « الهذيان » لا يزيد أن يكون إسرافاً وتوتراً فى التعبير .

ولكن ليس من الصواب أن نحذف نيتشه بدعوى الهوى أو الهذيان أو الجنون ، فإنه قد عرض لقضية إنسانية واضحة يجب على كل فيلسوف أن يواجهها فى صراحة وأن ينتهى فيها إلى حكم فاصل . وليس ثم مفر من هذه المواجهة .

وهذه القضية هى أن مصلحة البشر وارتقاء الإنسان يقتضيان محاربة الضعف والمرض والنقص كما يقتضيان تشجيع وتأييد الصفات العالية كالصحة والقوة والذكاء فما دام هذا هو الهدف فهل من الخير للناس أن يؤسسوا المستشفيات لمعالجة المرضى ؟ وهل من الخير أن يباح الزواج للأبله والمغفل والأشوه ؟ ثم ما دمنا نؤمن بأننا كنا على مستوى منخفض من الذكاء قبل مليون سنة ، حين كنا والحيون سواء ، فلماذا لا نعمل فى اطراد التطور كى نزداد صحة وقوة وذكاء ؟

لقد كنا فى الغابة نعيش بالفطرة ، وكانت الطبيعة قاسية لا ترحم ولا تعرف دواء لمعالجة المرضى ، وكان الموت يفشو ويفتك بالآلاف ولا

يبقى منا غير الصالح القوى القادر على المشقات . ثم جاءت الحضارة فجمعت الضعيف إلى جنب القوى . وسادتنا أخلاق الرحمة والإخاء والتصدق ، فعاش بهذه الأخلاق ناس ما كانوا ليستطيعوا العيش فى الغابة. ثم هم مع ذلك يتزاحمون و يتناسلون فيجعلون المرض والضعف والدمامة مخلدة فى العناصر البشرية .

وصيحة نيتشه هنا : عودوا إلى شريعة الغابة ، عودوا إلى تنازع البقاء، هى صيحة تستحق النظر والتأمل . ولا يغنى فيها القول بأنه كان مريضاً بالسفلس أو أن هذا القول هذيان . إذ ليس هذا هذياناً .

لقد كان القرن التاسع عشر عصر الإيمان بالوارثة ، وهى القدر الذى يعين لنا حظنا فى الحياة بما ورثنا من كفايات من آبائنا . ومع أن القرن العشرين قد نقض كثيراً من هذا الرأى ، وأدحض بعض الأركان لهذا القدر ، فإن الوراثة لا تزال تحتل جزءاً كبيراً من التفكير البيولوجى . وكلنا يثق هذه الأيام بقيمة الوسط فى التغير والتطوير ولكن مع اختيار السلالات التى تعينت لها صفات واستقرت فيها خصائص بحيث نعود فنستغل هذه الصفات والخصائص فى الوراثة .

وقد ظهرت « اليوجنية » أى علم ترقية السلالات البشرية بناء على الإيمان بالوراثة ، وهى إلى الآن يوجنية سلبية . بمعنى أن الأمم المتمدنة تعمد إلى تعقيم الناقصين والبله حتى لا يتناسلوا . وقد عمد هتلر إلى شىء من اليوجنية الإيجابية بتشجيع المتفوقين على التناسل وخصهم بميزات لم يكن يحصل عليها سائر أفراد الشعب . وذلك أيام النازية . وهذا كله من وحى نيتشه كما هو من التعاليم التى فشت عقب نظرية التطور .

وقد كان لكتاب البيولوجى فيسمان « الجرثومة المنوية » أكبر الأثر فى الإسراف فى الإيمان بالوراثة ، وقد أفسد هذا الرجل ذهنى بل أخلاقى

مدة طويلة .

ولكن رويداً رويداً تغيرت النبرة فى التطور . فبدلا من القول بتنازع البقاء فى الطبيعة أثبت كوربتكين أن التعاون ، وليس التنازع هو شريعة الغابة . ثم انتهينا فى السنوات العشر الأخيرة إلى التسليم بأن الوسط يغير الحي ، نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، وأن هذا التغير الوسطى يعود فيثبت بالوراثة .

فنى ضوء التطورات وفى تجارب الوسط لا نستطيع أن نسلم بمذهب نيتشه بأن نكون قساة لا نرحم . فالتطور يصيح بالتعاون ، والوسط يستطيع أن يغير ، ونحن البشر بما وصلنا إليه من معارف بيولوجية نستطيع أن نزيد سرعة التطور بالتنظيم الاجتماعى الذى يحقق الارتقاء البيولوجى .

* * *

كثيراً ما أعود إلى قراءة نيتشه لا لأننى مقتنع بمنطقه ، ولكن لأنى أجد سحراً على الدوام فى تعبيره وأحياناً فى تفكيره . انظر إلى ما يقوله عن الرحمة :

« إن الرحمة تناقض الشهوات الحية المنعشة التى ترفع نشاط البشر وتزيد إحساس القوة ، إذ هى تكرب وتغم . ونحن نفقد حيوينا حين نمارس الرحمة . وما نفقده من قوة وحيوية ، بسبب الألم مثلا ، يزداد ويتضاعف بالرحمة . حتى ليصير الألم معدياً بالرحمة . وقد يؤدى فى بعض الظروف إلى أن نفقد الحياة ذاتها ، وإذا شئت برهاناً على ذلك فاذكر هذا النصرانى الذى انتهت به رحمته لأبناء البشر إلى الصليب !

« وأيضاً تفسد الرحمة شريعة التطور التى تقول ببقاء الأصلح . وهى ، أى الرحمة ، تستبقى ما كان يجب أن يموت ، كما تعمل لمصلحة

الذين حكمت عليهم الطبيعة . وهى تضفى على الحياة لوناً قاتماً بعدد الناقصين الفاسدين الذين تعولهم ، وهى تضاعف التعس كما تحافظ عليه. وهى الأداة الأولى لترويج الانحطاط . وهى تؤدى إلى الفناء ، إلى إنكار الغرائز التى تنبنى عليها الحياة . . » !

وليس شك أن فى هذا الكلام هذياناً كثيراً ، ولكنه كان هذياناً يسحرنى لأول وقعه فى نفسى ، وأنا خام أخضر فى سن العشرين . كان يسحر وينبه ، إذ كان يبعث على المراجعة والفحص عن الأخلاق العامة والتقاليد الموروثة التى كنا نعيش فيها مستسلمين غير متسائلين أو مستطلعين .

أو انظر على ما يقوله عن الحياة :

« إنما الحياة فى صميمها امتلاك واحتياز وإيذاء ، ومحق للضعفاء والعاجزين عن التلاؤم والتكيف . وهدف الحى هو إبراز شخصه والتمكن من تأدية وظائفه غير معارض أو معطل » .

وهذه المقتبسات التالية هى صورة المجتمع والحضارة كما يراهما نيتشه إذ يقول :

« إن نظام الطبقات هو السنة السائدة للطبيعة . وهى سنة لا تستطيع أية قوة بشرية أن تتغلب عليها فى كل مجتمع صحيح توجد ثلاث طبقات لكل منها أخلاقه وعمله وما يفهمه من معانى الكمال والسيادة . وتتألف الطبقة الأولى من أولئك الذين يمتازون بالتفوق الذهنى على سواد الأمة . وتتألف الثانية من أولئك الذين يمتازون بالتفوق العضلى ، أما الطبقة الثالثة فمن المتوسطين .

« وللطبقة الأولى ميزة التمثيل للجمال والسعادة والطيبة على الأرض . وأفراد هذه الطبقة يقبلون هذا العالم كما هو ويستخدمونه بما فى مستطاعهم ،

وهم يجدون سعادتهم فى تلك الشئون التى تدمر من هم دونهم فى الصعوبات والقسوة نحو أنفسهم ونحو غيرهم من الجهد ولذتهم فى حكم أنفسهم . والنسك عندهم طبيعة وضرورة وغريزة . وهم يتحملون الواجبات الشاقة كما لو كانت امتيازات يمتازون بها . وهم يرتاضون بتحمل الأعباء التى تسحق غيرهم إلى الموت . وهم زبدة الناس وأكثرهم حباً وفرحاً . وهم يحكمون عفو طبيعتهم . كما أنهم ليسوا أحراراً فى أن ينتظموا فى الصف الثانى .

« أما الطبقة الثانية فتتألف من الأوصياء وحفظة النظام والأمن ؛ رجال الحرب والأشراف والملك ، وفوق هؤلاء القضاء حماة القوانين . وهم أسمى طرازاً من المقاتلين الحربيين ، فإنهم ينفذون أوامر الطبقة الأولى ويريحونها من الأعمال اليدوية أو الخشنة التى يحتاج إليها الحكم .

« وفى أسفل توجد الطبقة الثالثة من أفراد الصناعات اليدوية والتجارة ومعظم الفنون والعلوم . ومن سنن الطبيعة أن يكون كل هؤلاء من المرافق العامة فى الأمة أو دواليب تدور ووظائف تؤدى . والسعادة الوحيدة التى يستطيعها أفراد هذه الطبقة هى قدرتهم على أن يكونوا آلات ذكية ، لأن الرجل المتوسط يفهم من السعادة أنها حال التوسط . والتخصص أو التفوق فى تدريب معين هو غريزتهم .

« ولا يليق بالذهن الضيق أن يعارض حال التوسط هذه ، لأن هؤلاء المتوسطين ضرورة للمجتمع البشرى . إذ يتيحون للرجل الفذ أن يوجد .

« من مِنَ الناس أكرهه أكثر من غيره ؟

« أكره ذلك الاشتراكى الذى يهدم الغرائز السايمة عند العامل بأن ينزع منه إحساس القناعة بمكانه ويجعله حسوداً ويعلمه الانتقام . . .

« أجل يجب أن نعرف أنه ليس هناك ظلم فى تفاوت الحقوق » .

* * *

مات نيتشه فى عام ١٩٠٠ ، أى دفن فى هذه السنة . ولكن الواقع أنه كان ميتاً منذ حوالى عام ١٨٨٥ للمرض الذى أشرنا إليه . وهو مرض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه . ولم يكد العالم المتمدن يحس بوجوده إلا بعدوفاته . وكان الإحساس عندئذ حاداً . فمنذ عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٥٠ ونيتشه يعلو على جميع المفكرين الأوربيين ، بل يمثل مشكلة الضمير الأوربى مشكلة السياسة الأوربية ، سياسة التنازع إزاء سياسة التعاون.

وهو لو كان فيلسوفاً فقط ، يكتب بالرطانة الفلسفية التى لا يفهمها غير المثقفين ، لما كان خطره كبيراً . لكنه كان شاعراً يتغنى ويترنم ولذلك كان ولا يزال، يجذب إليه الشباب الذين يقودهم إلى الضلال أو يهديهم إلى الرشاد ، فهو غواية وفتنة كما هو نور ومعرفة . هو جنون وعقل .

وأكاد أقول عندما أجد شاباً يقرأ نيتشه : حذار ، لا تقدم . إنك على طرف هاوية . وقد تنزلق فتتردى ، ولكن اقرأ دستوفسكى وغاندى وشيفتزر وبرناردشو ، فهم الترياق الذى تحتاج إليه إذا قرأت نيتشه . لا . بل يجب أن تقرأ نيتشه ، لأن أقل ما فيه أنه يحثك على التساؤل والاستطلاع ، ويحول بينك وبين التسلم المطلق للعرف والعادة . إذ هو قوة تحريرية عظمى ، ولكنه أيضاً يحملك تبعات سامية بشأن المستقبل البشرى على هذه الأرض ويكسبك العقلية الفلكية التكهنية فى الفلسفة وعندئذ ستعرف أن القيمة العظمى فى الفلسفة ليست نظاماً منطقياً يقول بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وإنما هى فى تعيين القيم والأوزان الأخلاقية التى تخدم رقى الإنسان، وفى التكهن بالمستقبل البشرى والاستعداد له . وميزة نيتشه هنا أنه استطاع أن يقنع أوربا بأن الأخلاق يجب أن تنبنى على أساس بيولوجى بشرى .

كتب نيتشه حوالى عام ١٨٨٠ إلى أخته يقول :

« عدينى أنى عندما أموت لن يقف حول نعشى سوى أصدقائى ولن يكون حولى أحد من الغوغاء المتسائلين . واعملى على ألا يلقى قسيس على قبرى أكاذيب وأنا عاجز عن حماية نفسى ، وودعينى إلى قبرى وأنا وثنى شريف » .

ومات فى عام ١٩٠٠ مغموراً لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة . ولكنه بعث بعد موته ، إذ أصبح الضجة الكبرى والصيحة العالية فى جميع الأوساط المثقفة ، ولا يزال دويه عالياً واسمه رمزاً للتساؤل .

وفى نفسى له حب وأسف وإقبال وصدود .



إرنست رينان !

فى السنين الأولى من هذا القرن كان شاب لبنانى يدعى فرح أنطون يصدر فى مصر مجلة صغيرة تسمى « الجامعة » . وكانت الثقافة الغالبة على هذا الشاب فرنسية . وهو كان يكتب اللغة الفرنسية بكلمات عربية . وكان لذلك فهمه للثقافة والأسلوب والأدب يختلف عما كنا نفهمه من كتابنا المصريين البارزين الذين كانت تغلب عليهم الثقافة العربية القحة .

وقد عرفت عن طريق فرح أنطون كتاباً فرنسيين بعثوا فى نفسى استطلاعاً للثقافة الأوربية ، وغرسوا فى ذهنى شكاً فى العقائد والعادات الشرقية ، ووصلوا بينى وبين الآداب البشرية بصلة القربى والرحم . وحببوا إلى الطبيعة ، وفتحوا عينى إلى الأجواء والآفاق ، فلا يغرب عنى

نشاط فكرى ، ولا يفصل بينى وبين كاتب قديم أو حديث فاصل من دين أو عنصر أو لغة . وقد رأيت فى حياتى كتاباً أضلهم الاستغراق العنصرى أو الدينى أو القومى وغمرتهم موجاته . ومع أن هـــذه الموجات قد مستنى بطلاوتها السطحية ، فإنى سرعان ما كنت أتخلص منها بل أتطهر منها .

ذلك أن فرح أنطون قد وجهنى نحو أوربا الجديدة ، أوربا البشرية ، أوربا التى كانت تسترشد بفولتير وروسو ورينان . وما زلت أذكر طرب الحماسة الذى غمرنى حين كنت أقرأ قصة صغيرة ترجمت إلى العربية باسم « الكوخ الهندى » لمؤلفها الفرنسى برناردن دو سان بيير . فقد كان هذا المؤلف يصف سذاجة العيش وجمال الحب وروعة الطبيعة بكلمات ساحرة تترك فى النفس إحساساً دينياً نحو المرأة والشجرة والسماء والأرض . كما تفتح الذهن لمعانى القناعة والاستغناء . وكان هذا المؤلف من أولئك الذين دعوا دعوة الطبيعة مع جان جاك روسو ، وأعطوا أوربا عيوناً جديدة رأت من خلالها وعرفت بها هيئة الجبال وروعة الأشجار ، ومعنى الاصطياف على الشواطئ ، والانغماس فى الماء : بالرجوع إلى الطفولة التى أفسدتها الحضارة ، والتى يجب ألا تفارقنا طوال أعمارنا ، فى القدرة على الاستمتاع بحيوية الحياة ولذة اللعب والنفور من تعقد العيش وارتباكات الترف المرهقة .

وهناك من لا يزالون يستصغرون قيمة الأديب العظيم فى توجيه الحضارة وتكوين الأذواق . ولهؤلاء نذكر جان جاك روسو ، فإن العالم قبله لم يكن يعرف معنى التجوال فى الحقول أو الاصطياف على الشواطئ . وهذه الحقول والشواطئ كانت مع ذلك فى مكانها كما هى الآن قبل روسو ، ولكنها كانت خالية ممن يجول فيها ويتأمل سماءها وأرضها وأشجارها أو ينغمس فى مياهها ، ولكن روسو بدعوته الحارة

إلى الطبيعة ، وتقديسه لها ، رد إلى الناس هذا الإحساس وبسط لهم ميادين جديدة للاستمتاع النفسي كانوا يجهلونها قبله .

وحين أجد شفيتزر يدعو إلى تقديس كل شيء حي ، وحين أجد ثورو يتساءل : لماذا لا تقرع النواقيس في الكنائس حين تقتلع شجرة من مكانها نعياً لها وحزناً على الطبيعة المجروحة ؟ وحين أجد غاندى يترك المدن ويقنع بأن يعيش في كوخ بين الحقول بثلاثة قروش في اليوم ، وحين أجد الطرب البشرى يغمر سواحل الإسكندرية أو بور سعيد في أطفال وفتيات وشبان يمرحون و «يزأطون» في الماء والهواء وقد خلعوا مركبات المدنية وعادات العرف ، حين أجد كل هـــذا لا أتمالك أن أذكر جان جاك روسو نبي الطبيعة وأديبها ، الذى غير أذواق الناس ووجه النفوس وجهات جديدة زادت البشر سروراً واستمتاعاً وحباً .

لقد عرفت روسو ، أول ما عرفته ، بقلم فرح أنطون .

ثم عرفت أديباً آخر بقلمه أيضاً كان له أبلغ الوقع وأبعد الأثر في ثقافتي وتربيتي . . هو إرنست رينان . وهو الذى غرس في نفسي الروح البشرى ، وبهذا الروح أحببت تلك الشخصية السامية التي وصفها رينان في كلمات الحب والإعزاز والتي أحاول مع العجز ، ولكن مع الأمل ، أن أرتفع إلى الأخلاق التي رسمها في شخصية المسيح .

وقد تحطم فرح أنطون بما وقع فيه من مناقشات تاريخية مع الشيخ محمد عبده بسبب إرنست رينان . وتحطم إرنست رينان بسبب كتابه عن المسيح . ومثل هذه المعارك الأدبية تحتاج إلى الشرح الذى لا يسمح له هذا الفصل ، ولكن قصارى ما أقول إن فرح أنطون نقل عن رينان اضطهاد الحكومات الإسلامية للأحرار . فرد عليه الشيخ محمد عبده بأن اضطهاد الحكومات المسيحية كان أكبر وأقسي . ودارت المساجلات

بين الاثنين ، هذا يكتب فى الجامعة وهذا يكتب فى المنار . ولم يكن الجمهور المثقف يتحمل فى ذلك الوقت الوهج اللاسع من هذه المساجلات. وانهزم فرح ورحل إلى أمريكا كى يعود بعد ذلك إلى مصر وينغمس فى الثورة الوطنية إلى جنب سعد .

أما إرنست رينان فكان تحطمه أكبر وأبلغ . فقد ولد هذا الأديب فى عام ١٨٢٣ ومات فى عام ١٨٩٢ ، وقضى من العمر نحو أربعين أو خمسين سنة وهو يخيم على أوربا ويضىء عقولها ويربى نفوسها . وأوربا بعده غير أوربا قبله . بفضل ما كتب وبفضل ما تألم . وقد تعلم كثيراً .

وما زلت أحس كأن سكيناً تمزق أحشائى حين أذكر أن هذا الأديب العظم ، بعد أن حرمته الكنيسة الكاثوليكية ومنعت رعاياها من قراءة مؤلفاته . وبعد أن حطت عليه الشيخوخة حتى كادت تقعده ، بعث بخطاب إلى ناظر المدرسة الابتدائية التى كان قد تعلم فيها قبل ستين سنة يطلب منه أن يأذن له بزيارتها كى يرى الفصل الذى تعلم فيه حروف الهجاء ، والفناء الذى لعب فيه مع أقرانه ، وكى يلمس جدرانها التى تمسح بها : ويصلى فى إحدى غرفها على اختلاء : صلاة الحب والذكرى لهذه الأيام الماضية والتى تنفصل عن حاضره بما يشبه قرناً من الزمان .

وتسلم ناظر المدرسة الخطاب . وكانت المدرسة دينية كاثوليكية ، كما كان ناظرها راهباً يعرف أن رينان مطرود من الكنيسة وأن مؤلفاته من المحظورات . فلما قرأ الخطاب وتأمل الإحساسات الجميلة التى يحتويها كتب إلى رينان فى رقة بالغة يشكره على أنه تذكر الرهبان الذين علموه طفولته ، وتذكر الأقران من الصبيان ، بل لعله تذكر صلاة الصبح التى كان يقولها فى ابتهال قبل ابتداء الدروس . ثم بعد ذلك يقول له إنه لا يستطيع أن يأذن له بزيارة المدرسة لأنه . . لأنه كافر ، منبوذ من الكنيسة .

ولا بد أن رينان قد تضور على فرشه من ألم هذه الصدمة ، بل لابد أنه بكى ، وانهمرت دموعه وبللت هذا الخطاب .

ولكن ليست هذه هى الدموع الأولى التى انهمرت من المؤلفين الذين علموا أوربا . ولولا هذه الدموع . ولولا هذه الآلام ، لبقيت أوربا جامدة متأخرة مثل الشرق .

نشأ رينان نشأة كنسية إذ تعلم فى مدرسة للإلهيات . ولكنه تركها وآثر دراسة اللغات والأدب . ودرس اللغات السامية وأتقن اللغة العربية ، ودرس فلسفة ابن رشد ونقلها ووضحها فى اللغة الفرنسية . وقد نقل فرح أنطون عنه هذا الكتاب تلخيصاً وترجمة تحت عنوان « ابن رشد وفلسفته ».

وأوفدت الحكومة الفرنسية فى عام ١٨٦٠ بعثة إلى فلسطين لدراسة الآثار كان هو من أعضائها ، وكانت أخته أڤريت ترافقه . وعاد إلى باريس . وحاولت الحكومة الفرنسية أن تعينه أستاذاً للغات السامية ، ولكن الكنيسة اعترضت لأنه كان قد ألف كتاباً عن المسيح بعنوان «حياة يسوع» فى عام ١٨٦٣ باعتباره إنساناً لا أكثر . . .

وتتابعت مؤلفاته عن الشئون السامية ، مثل « تاريخ إسرائيل » ومثل « محاورات فلسفية » ومثل « مستقبل العلم » .

وزاره جمال الدين الأفغانى فى باريس فوصفه رينان بأنه ملحد عظيم . وهنا مجال للتفكير ومراجعة الآراء فى مصر . وقد سبق أن شرح لنا على عبد الرازق (باشا) هذا الموضوع .

ولم يكتب أحد فى سحر الأسلوب الذى كتب به رينان وضوحاً ويسراً وقد قيل عنه إنه كان يفكر كما لو كان امرأة ، ويعمل كما لو كان طفلا . وهذا أحسن أو من أحسن ما يقال عن كاتب أرصد عمره للتفكير

المثمر ، فإن المفكر العميق يجب أن يكون عميقاً أيضاً فى إحساسه . أما من حيث العمل فإن هذا ليس من شأنه ؛ وإنما هو شأن زوجته أو صديقه إذ ليس له وقت أو كفاءة للعمل .

وكانت ثقافته تنبسط إلى الآفاق أكثر مما تسبر الأعماق . ولذلك نجد له الاشارات والإيضاحات عن العرب والإغريق واليهود والعلم والأدب ، ولكننا نجد أنه حين يتخصص لا يتعمق .

وكتابه عن حياة المسيح الذى ترجمه فرح أنطون إلى اللغة العربية فى تلخيص غير مخل ، هو جوهرة من جواهر الأدب الفرنسى بل الأدب العالمى . ومع أنه قد جرد شخصيته من الغيبيات فإنه أبرز ميزاته الأخلاقية ودعوته الانسانية بحيث إن القارئ للكتاب سواء أكان تقليدياً أم عصرياً ينتهى بالحب والاحترام إذ يجد فى المسيح جمالا وفتنة كما يجد فى دعوته تحدياً لكل رجل فى شرفه وأسلوب حياته .

ومن هنا يعد إرنست رينان من دعاة البشرية . وهو وإن لم يكن قد دعا هذه الدعوة مباشرة ومواجهة ؛ فإنه بمؤلفاته العديدة قد دعا إليها مداورة ومواربة . إذ هو يجمع بين الأدباء والأنبياء والفلاسفة ويضعهم جميعاً فى صف لتربية الضمير البشرى . فهو مسيحى مسلم يهودى بوذى ، وهذا هو شأن الكثيرين من أدباء عصرنا الممتازين بل كذلك هذا هو إيمان الساسة المتمازين أمثال غاندى ونهرو . بل ماذا أقول ؟

لقد كان هذا إيمان السلطان أكبر الذى حاول أن يوجد ما أسماه « الدين الإلهى » حين عقد مؤتمراً فى الهند من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين والبوذيين .

بل لقد كان هذا إيمان محى الدين بن عربى حين قال هذه الأبيات الخالدة :

لقد كنت قبلي اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

أجل . دين الحب . هذا هو الذى دعا إليه رينان . وهو رسالة حياته.



دستوفسكى

ذكاء العاطفة

كان من حظى الحسن أن هبطت على الأدباء الروس وأنا حوالى العشرين ، فارتفعت بذلك إلى مستوى من التقدير للفن القصصى جعلنى فى مستقبل عمرى أتأنق وأحجم عن قراءة تلك القصص الإنجليزية والفرنسية والأمريكية التى لا ترتفع إلى مقام المؤلفات العظيمة التى ألفها تولستوى ودستوفسكى وجوركى وجوجول وتيشهوف وترجنيف . والحق أن الانتقال من دستوفسكى الروسى إلى أرنولد بنيت الإنجليزى هو وثبة إلى الحضيض يفزع منها الإنسان . والانتقال من تولستوى إلى أى أديب آخر فى أوربا أو أمريكا هو انهيار فادح .

وأحياناً أحاول أن أعلل حبى لهؤلاء الأدباء الروس بأن الحال الاجتماعية التى وصفوها كانت تشبه حالنا فى مصر . وأن الوسط الاجتماعى

الأوربى الأمريكي كان يجرى على نظم ديمقراطية حرة لا تتيح للأوربى أن يستمرئ هذا المجتمع الروسى القديم وما حفل به من فوضى وفاقة واستسلام وركود . ولكن هذا التعليل لإحساسنا بتفوق الأدب الروسى على الآداب الغربية لا يكفى .

وقد حدث لى ما يشبه ذلك فى الموسيقا . فإنى فى مقتبل عمرى عرفت الموسيقا الأوربية الكنسية والمسرحية . فارتفع ذوقى إلى حد الكراهية ، بل العداء ، للموسيقا الشرقية الباكية الجنسية المخنثة . فلست أطيق إلى الآن أغنية أو لحناً مصريين ، بل إنى أوثر عليها « موالا » من تلك المواويل التى يغنيها فلاحونا . فإن فيه أحياناً من الصدق والرجولة ما يبعث على الاحترام ، فى حين نشمئز من الأغانى والألحان المصرية الحاضرة لما فيها من التباكى والتخنث . ولعل ميزة أوربا علينا فى الموسيقا أنها أدخلتها الكنائس فأكسبتها شيئاً يقارب حرمة الدين ، وهذا فى الوقت الذى تركنا نحن فيه موسيقانا وأغانينا تعيش وترافق الرقص الذى كانت تمارسه البغايا . وقد كا رقصاً جنسياً مخنثاً فسقطت مكانة الموسيقا والأغانى فى نفوسنا .

* * *

ولد دستوفسكى فى عام ١٨٢٢ ومات فى عام ١٨٨١ . وكان مريضاً طوال حياته ، تنتابه نوبات من الصرع . وقد أخرج قصته الأولى « المساكين » فى عام ١٨٤٦ وثب بها إلى مصاف الأدباء الأفذاذ ، وفى عام ١٨٤٩ ألقى القبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سياسية غير مشروعة وحكم عليه بالإعدام. ثم خفف الحكم إلى النفى إلى سيبريا حيث قضى أربع سنوات ألف عنها كتاباً بعد ذلك باسم « ذكريات من بيت الموتى » . وبعد سنوات أخرى فى الجندية والسياحة استقر على التأليف القصصى . فأخرج « الإخوة كرامازوف » وهى الأولى بين قصص العالم جميعها . وأخرج أيضاً قصة « الجريمة والعقاب » . وقد بعثتنى حماستى لها

أنى فى سنة ١٩١١ ترجمت منها نصفها ثم طبعت الربع بهذا الاسم ولم أتمم الترجمة .

وتتسم قصصه بحنان ورقة يشيعان فى نفوسنا إحساس الدين . وهى جميعاً دعوة إلى الخير وحب الأطفال وحماسة الأمومة ، ولذة التضحية ، وارتفاع عن الدنايا المادية ونحو ذلك . وقد كانت حياته هو نفسه مليئة بهذه العواطف .

* * *

ولنذكر شيئاً مما وقع له ، ولعله كان لهذه التجربة القاسية أثر فى فنه .

فنى يوم ٢٢ أبريل من عام ١٨٤٩ ألقى القبض فى بطرسبورج على نحو ثلاثين شاباً كان بينهم دستوفسكى ، وكانت التهمة الخطيرة التى اتهموا بها أنهم اجتمعوا واحتفلوا بميلاد الكاتب الفرنسى فورييه .

وكان فورييه مشهوراً ببرنامج يقترحه لتغيير المجتمع . وهو حين نقرأه هذه الأيام نجد فيه سخفاً عظيما . ذلك أنه ينص على تأليف جماعات لا تزيد إحداها على ١٦٠٠ شخص يعيشون معاً متعاونين مستقلين عن الجماعات الأخرى . وقيل إن هؤلاء الثلاثين المجتمعين فى بطرسبرج قد تآمروا على ترجمة كتاب فورييه هذا ، ومما زاد فى هذه « المؤامرة » الخطيرة أن أحد الحاضرين قرأ خطاباً من أديب يدعى بيلنسكى إلى القصصى جوجول يوبخه فيه لأنه عاد إلى الإيمان بعد الكفر .

وبعد أن قضى المتهمون سبعة أشهر فى السجن حكم عليهم بالإعدام ، ثم قضوا شهراً آخر قبل التنفيذ . وفى يوم التنفيذ نصبت أعمدة فى أكبر ميدان فى بطرسبرج ثم ألبس المتهمون جلاليب بيضاء وعلى رأس كل منهم طرطور وأخرجوا فى الصباح من يوم ٢٢ ديسمبر ، والثلج يغطى الأرض ، ثم حضر قسيس يحمل صليباً من الفضة ويطلب إلى كل منهم تقبيله حتى

يغفر لهم فى العالم الآخر . ووقف ستة عشر جندياً يحملون البنادق ، وربط كل منهم إلى العمود كى يتلقى الأعيرة النارية . ثم أمر الجنود بفتح الأزندة استعداداً لإطلاق النار .

وفى هذه اللحظة فقط أعلنوا جميعهم بأن القيصر قد استبدل بحكم الإعدام الحكم بالنفى إلى سيبريا أربع سنوات .

وبعد هذه المأساة أو المهزلة سافروا إلى سيبريا . وقبل السفر كتب دستوفسكى إلى شقيقه هذا الخطاب التالى :

« قلعة بطرس وبولس فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩ .

« أخى : صديقى الحبيب : كل شىء قد تم، وحكم على بالسجن والأشغال الشاقة أربع سنوات فى القلعة (أظنها قلعة أورنبورج) وبعد ذلك التحق بالجيش جندياً . وفى هذا اليوم ٢١ ديسمبر نادونا إلى مكان العرض فى سميونوف وقرءوا علينا الحكم بالإعدام . ثم أمرونا بأن نلثم الصليب ، ثم كسروا سيوفنا فوق رؤوسنا ، ثم نزعوا ملابسنا وألبسونا القمصان البيض . وبعد ذلك ربطوا ثلاثة منا إلى عمود كى يضربوا بالبنادق . وكان ترتيبى السادس ، وكان النداء على ثلاثة كل مرة ، وكنت أنا بذلك فى الفرقة الثانية فلم يكن باقياً لى من الحياة سوى دقيقة ، وقد ذكرتك أيها الأخ أنت وأولادك . وفى هذه الدقيقة لم أذكر سواك يا أخى وحبيبى ، وعرفت عندئذ مقدار حبى لك . وقد تمكنت من أن أقبل بلاتسياف ودوروف . وكانا واقفين جانبى وودعتهما . وأخيراً نفتخ البوق وأعلن الأمر بالرجوع ، وحل الذين كانوا قد ربطوا إلى العمود .

« ثم قرئ علينا أمر صاحب الجلالة الإمبراطورية بمنحنا حياتنا ، والحكم علينا بالأحكام الجديدة . ولم يفرج عن أحد سوى بالم الذى أرجع إلى الجيش برتبته السابقة .

« وقد أبلغت يا أخي الحبيب بأنهم سيرسلونني اليوم أو غداً . وقد طلبت رؤيتك ، ولكنهم أخبروني بأن هذا محال وأن كل ما يستطيعونه أن يسمحوا لي بالكتابة إليك . فأسرع وابعث لي الرد . وأنا أخشى أن يكون قد بلغك الحكم علينا بالإعدام ، فقد نظرت من نافذة العربة التي حملتنا إلى ساحة الإعدام ورأيت في الطريق جمهوراً كبيراً ، وخشيت أن يكون من رأوني قد أبلغوك وآلموك بذلك . ولكن الآن يمكنك أن تهنأ بشأني . يا أخي . لا تظن أن الحكم قد هدني أو غم علي ، فالحياة في كل مكان هي الحياة . هي في داخلنا وليست فيما هو خارج عنا . وسيكون قريباً مني أناس ، وسأكون رجلا بينهم ، وأبقى كذلك إلى الأبد . ولن يهن قلبي أو تفشل عزيمتي أمام المصائب . وهذا في اعتقادي هو الحياة أو الواجب في الحياة . وقد حققت ذلك وصار هذا الخاطر جزءاً من لحمي ودمي . أجل ، هذا صحيح . فهذا الرأس الذي كان يبتكر ويعيش في أسمى الحياة الفنية ، والذي حقق أسمى الحاجات الروحية واعتقادها — هذا الرأس قد قطع من عاتقي ولم يبق عندي سوى الذكريات والخيالات التي أخترعها ولكنها لم تتجسم في بعد . وإني لأعرف أنها ستمزقني ، ولكن ما يزال باقياً لي قلبي وهذا اللحم والدم الذي ما يزال قادراً على الحب والألم والرغبة . ولا تنس أن هذه هي الحياة . أجل . ما زلت أرى الشمس . والآن وداعاً يا أخي ولا تحزن من أجلي .

« والآن هلم إلى الماديات . إن كتبي (باستثناء الكتاب المقدس الذي ما يزال عندي) وعدة أوراق من مخطوطاتي ، وتخطيط درامة ، وقصة (وقصة أخرى كاملة تسمى قصة طفل) قد أخذت كلها مني . والأرجح أنك ستتسلمها .

« وقد تركت معطفي وملابسي فيمكنك أن تأخذها . والآن يا أخي أظن أنني سأمشي مسافة طويلة وأحتاج إلى نقود . أخي الحبيب : إذا

تسلمت هذا الخطاب وكان يمكنك أن تحصل على قليل من النقود فأرسلها إلى بأسرع وقت ، فأنا أحوج الآن إلى المال منى إلى الهواء (لغرض خاص) . وابعث لى ببضع كلمات . ثم إذا جاءت نقود من موسكو فتذكرنى ولا تنسى . وهذا كل ما أريده ، وأنا أعرف أن على ديوناً ولكن ماذا أفعل !

« قبل زوجتك وأولادك واذكرنى عندهم كثيراً ولا تجعلهم ينسوننى فعلّنا نلتقى يوماً ما . أخى ، أوصيك بالعناية بنفسك وأولادك ، وأن تعيش فى هدوء ويقظة ، وأن تفكر فى مستقبل أولادك . عش عيشاً إيجابياً . إنى ما شعرت قط بوفرة الحياة الروحية فى شخصى كما أشعر بها الآن وأنا مريض بالاسخربوط ، ولكنى لا أبالى بذلك . أخى ، لقد كابدت من الحياة الشيء الكثير حتى ما يكاد شيء يخيفنى الآن فى العالم . فليكن ما هو كائن . وسأكتب إليك فى أول فرصة ، وابعث لأسرة مايكوف بتسليمانى وتحياتى واشكر لهم اهتمامهم بحظى ، وقل بضع كلمات حارة يمليها عليك قلبك ليوچينيا بتروفنا .

« فأنا أدعو لها بالسعادة وسأذكرها على الدوام بجميلها . واضغط يد نيكولاى أبولو نوفتش أبولون مايكوف وجميع الآخرين . وابحث عن يانوفسكى واضغط يده واشكره ، وأخيراً صافح جميع أولئك الذين لم ينسونى ، وقبل أخى كوليا . واكتب خطاباً إلى أخى أندريه وأخبره بكل شيء عنى واكتب لعمى وعمّتى ، وافعل ذلك باسمى . وابعث لهم تحياتى واكتب لأخواتى اللواتى أدعو لهن بالسعادة .

« وربما نلتقى يا أخى فى المستقبل . لاتهمل العناية بنفسك بل عش وابق حيّاً حتى نلتقى ثانياً ، فعلّنا نتعانق يوماً ونذكر شبابنا ذلك الوقت الذهبى ، ذلك الشباب وتلك الآمال التى أمزقها الآن من قلبى ودمى كى أدفنها . .

« هل يمكن حقاً أنى لن أتناول القلم بيدى مرة أخرى؟ أظن أنى سأعود إلى الكتابة بعد هذه السنوات الأربع وسأرسل لك كل شيء أكتبه إذا كتبت شيئاً . وا رباه ! كم من خيالات عشت فيها أو اخترعتها ستموت وتنطفئ فى دماغى ، أو تتمزق وتسير فى دمى كالسهم . أجل . إذا لم يسمح لى بالكتابة فإنى سأموت . وخير لى من ذلك أن أسجن خمس عشرة سنة ويكون فى يدى قلم .

« اكتب لى كثيراً ، واكتب بالتفصيل والإسهاب واذكر لى حقائق.. حقائق كثيرة . وفى كل خطاب اكتب لى عن شئون الأسرة مع التفصيل ومع ذكر الأشياء التافهة . ولا تنس هذا فهذه الخطابات تعيد إلى الرجاء والحياة . آه لو تعرف كيف أحيتنى وأنعشتنى خطاباتك التى أرسلتها إلى وأنا فى هذه القلعة ، وقد كان الشهران والنصف شهر الماضية ، حين منعنا من كتابة الخطابات أو تسلمها ، من أشق ما كابدته . وقد كنت مريضاً .

« ولما أهملت أنت إرسال النقود إلى ساورنى القلق من أجلك لأنى فهمت من عدم إرسالك للنقود أنك أنت فى حاجة شديدة . قبل الأطفال مرة أخرى ، فإن وجوههم الحلوة الصغيرة لا تغيب عن بالى . لتكن لهم السعادة ! وأنت يا أخى كن سعيداً . كن سعيداً .

« ولكن لا تحزن ، وبحبك الله لا تحزن لأجلى ، وثق أنى لم أهن وتذكر أن الرجاء لم يهجرنى ، وبعد أربع سنوات سيخفف عنى ما فعلته الأقدار وأصير جندياً فينقضى سجنى . وتذكر أنى سأعانقك يوماً ما . لقد كنت اليوم فى قبضة الموت ثلاثة أرباع الساعة ، وعشت هذه المدة بهذا الخاطر وبلغت آخر لحظة من الحياة . وها أنا ذا حى مرة أخرى .

« وإذا كان أحد يتذكرنى بسوء ، أو إذا كنت قد تشاجرت مع أحد

أو أسأت إلى أحد ، فأخبره إذا لقيته بأن ينسى الإساءة وليس فى نفسى مرارة أو نقمة على أحد ، وأود لو أعانق فى هذه اللحظة كل واحد من أصدقائى السالفين . وقد شعرت اليوم بالراحة وأنا أودع أحبابى الأعزاء قبل الموت ، وخطر ببالى فى هذا الوقت أن خبر إعدامى سيقتلك. ولكن استرح الآن فإنى ما زلت حياً . وسأعيش راجياً بأن أعانقك يوماً ما . وهذا كل شىء فى بالى الآن .

« ماذا تفعل ، وبماذا فكرت اليوم ، وهل عرفت شيئاً عنا ؟ وماذا كان مقدار البرد اليوم . آه ما أشوقنى إلى أن يصل خطابى هذا إليك بسرعة ، وإلا فإنه إذا تأخر فإنى سأبقى أربعة أشهر بدون خطاب منك . وقد رأيت الظروف التى أرسلت فيها النقود لى مدة الشهرين الماضيين وكان عنوانى مكتوباً عليها بخطك وسررت برؤية الخط .

« وعندما التفت إلى الماضى وأتذكر مقدار الوقت الذى ضاع عبثاً وكم منه ضاع فى الأوهام والكسل والجهل بالعيش ، وكيف أنى لم أقدر الوقت حق قدره ، وكيف جنيت على قلبى وذهنى ، أحس بأن قلبى يسيل دماً . أجل إن الحياة عطية وهى سعادة وكان من الممكن أن نجعل من كل دقيقة منها عصراً طويلا من السعادة .

« آه لو عرف الشباب . . . ! . والآن هذه حياتى تتغير وأنا أولد من جديد فى شكل آخر . أخى . أقسم لك أنى لن أفقد الأمل وسأصون روحى وقلبى فى الطهارة ، وميلادى الجديد سيكون إلى حال أحسن من حالى الماضية . وهذا كل رجا . وهذا كل عزائى .

« إن حياة السجن قد قتلت فى جسمى مطالب اللحم التى لم تكن كلها طاهرة ، ولم أكن قبل هذه الحياة أعنى بنفسى كثيراً . أما الآن فالحرمان لا قيمة له عندى ولذلك لا تخش على من المشاق المادية وتحسب

أنها ستقتلني . كلا ، لن يحدث هذا .

« وداعاً . وداعاً يا أخي . إني أعانقك بقوة وأقبلك بحرارة ، تذكرني ولكن بلا ألم في قلبك ، فأرجوك ألا تحزن . وفي الخطاب الآتي سأخبرك بما يتم لي . . وتذكر عندئذ ما أخبرتك به : لا تعش جزافاً دائماً . دبر حياتك ورتب حظك وتفكر في أولادك ، آه لو أراك . وداعاً . إني أنزع نفسي الآن من كل شيء أحببته . وهذا النزاع مؤلم . ومن الموجع أن أقطع نفسي نصفين وأشق قلبي شقين . وداعاً . . وداعاً . ولكني سأراك . أنا واثق ، واع أنا فلا تتغير ، وأحبني ، ولا تدع ذاكرتك تبرد . . وذكرى حبك ستكون أحسن شيء في حياتي . . ومرة أخرى وداعاً . وداعاً . وداعاً وداعاً لكم جميعاً » .

أخوك

فيدور دستوفسكي

« لما قبض علىّ أخذوا مني كتباً عدة ولم يكن بينها سوى كتابين ممنوع تداولهما . فهل لك أن تطلب الباقي لنفسك . ولكن لي طلباً ، وهو أن أحد الكتب يحتوي على مؤلفات فاليريان مايكوف . وهو مقالاته الانتقادية . وهذه النسخة كنت أخذتها من أوجينيا بتروفنا . وكانت تعدها كنزاً . وقد أقرضتها لي ، ولما قبض علي طلبت من الشرطي أن يرد إليها الكتاب وأعطيته عنوانها . ولا أعرف إذا كان قد رده . اسأل عن ذلك لأني لا أحب أن أحرمها هذه الذكرى . وأخيراً وداعاً . وداعاً » .

أخوك

ف. دستوفسكي

« على الهامش : لا أعرف هل أمشى أو أركب فرساً . وأظن أنهم سيركبون الخيول . ربما . قبل يد إميلى فيدروفنا وقبل الصغار واذكرنى عند كريافسكى . اكتب لى عن القبض عليك وحبسك والإفراج عنك »

* * *

هذا الخطاب هو جزلة حية ترشح بالدم من نفس دستوفسكى .

تمتاز قصص دستوفسكى بأن أشخاصها يتسمون بالإحساس والذكاء معاً ، فإن بطل « الجريمة والعقاب » طالب فى الجامعة يتأمل ويتفلسف ويتساءل ! لماذا لا يقتل هذه العجوز الثرية المقترة التى لا تزيد قيمة حياتها على حياة برغوث ؟ أليس هو أولى بثروتها ينفقها فى الخير والنفع ؟

ثم يقتلها . ثم يعود إلى التأمل والفلسفة فيسلم نفسه فى النهاية إلى البوليس حيث يحاكم ويحكم عليه بالنفى إلى سيبريا . ويرضى لنفسه هذا المصير لأنه وجد شيئاً أكبر من ذكاء العقل هو ذكاء الإحساس .

وسائر قصصه على هذا الغرار ، إحساس فوق الذكاء ، وخيال فوق العقل . وقصصه تكاد جميعها تخلو من العقدة إلا القليل جداً . وفى النهاية نجد أنه يهدف إلى خيال الشعر . فهو يتناول الواقع ثم يسير به نحو آيات من الفن والشعر . وهذا هو ما يجب أن يكون . لأن القصة هى التفسير الخيالى للحياة حيث يرتفع المؤلف بالواقع إلى المثليات فيكسب هذا الواقع دلالة جديدة . فالفتاة التى تبيع عرضها كى تنقذ إخوتها من الجوع ، والسكير الفانى الذى يتعلق بالدين ولا يزال يؤمل الآمال ، والراهب الذى يحب ولكنه لا يسقط ، والشاب الذى يملأ الشرف صدره فيذهب إلى أحد الأثرياء ويعرض عليه فى غرارة وسذاجة مشروعاً للخير فلا يجد سوى الاستهزاء ، والأبله الذى يؤمن بالعلم فيرتكب

جريمة الاغتيال استناداً إلى العلم . . . وهذا يذكرنا بالبله العلماء الذين اخترعوا القنبلة الذرية !

كل هذا يقع فى قصص دستوفسكى . وهو بفرط حنانه وجمال خياله قد يناقض العقل والمنطق ، ولكن كما كان يناقضه غاندى أو تولستوى... وقد كسبت من دستوفسكى أكثر مما كسبت من غيره، وهو ذلك الإحساس الأدبى الذى لا يختلف من الإحساس الدينى أو الموسيقى... وذلك أننا إزاء الدين والأدب والموسيقا لا « نعرف » وإنما نحس . وقد قلت فى أول هذا الفصل إن هبوطى المبكر على القصصيين الروس قد جعلنى أستصغر شأن الأدباء الأوربيين والحق أنى قرأت برنارد شو ، وولز ، وديكنز ، وأناطول فرانس ، وأندريه جيد ، وكثيراً غيرهم فكان تقديرى لهم اجتماعيًّا أكثر مما كان أدبيًّا. وقد وجدت عندهم الرأى والمعرفة أكثر مما وجدت الفن والإحساس . وعندما أتأمل هؤلاء الأدباء الروس جميعهم ، حتى مكسيم جوركى ، أجد أنهم ينشدون الدين ، فإن الإحساس الدينى البشرى فى هذا الكاتب الأخير على الرغم من إلحاده كبير جدًّا . وقد استطاع دستوفسكى وتولستوى أن يجعلا المسيحية ديناً وأدباً معاً ، بل إنهما أبرزا الميزة الأصلية لهذه الديانة وهى الحب البشرى العام أكثر مما أبرزها كهنة هذه الديانة أنفسهم .

كان دستوفسكى يكره الشبان الثائرين على القيصر ، وكثيراً ما نجد فى قصصه ثائراً أو أكثر يستهزئ بأفكارهم ويسخر من عقائدهم . ولكن كراهيته لهم لم تكن تستند إلى حبه للنظام الاستبدادى الذى كان يسود حكومة القيصر ويوجهها ، وإنما كان يكره أوربا أيضاً لهذا السبب . وقد دعا إلى مقاطعة الثقافة الأوربية فى الوقت الذى كان يدعو فيه تورجنيف إلى اعتناقها .

وعندما نتعمق أقوال دستوفسكى لا نتمالك الإحساس بأنه يكره

العلوم المادية جميعها ويكره الحركات الاجتماعية الارتقائية القائمة عليها ، وأن فى نفسه شوقاً ماحناً إلىأن يعيش الناس فى إيمان بالله قانعين بكلمات الإنجيل التى يجب أن تكون الأساس الذى تنبنى عليه الأخلاق .

وقد عجز دستوفسكى عن أن يفطن للحقيقة الأوربية البازغة وهى أن الأوربيين قد شرعوا منذ أوائل القرن التاسع عشر فى استبدال الرؤيا البشرية للرقى والأخلاق والدين برؤيا الكنيسة . وأن الإحساس الدينى البشرى الجديد ، على الرغم من أنه لا يزال ضعيفاً ، يجد أنصاراً أقوياء يسلكون فى حماسة وحب للبشر ويخدمون ويضحون للإنسانية .

ولكنه فطن إلى أن علماً بلا دين هو دمار بشرى عام . بل نستطيع أن نقول إنه بصر بقوة العلم الطاغية فى القنبلة الذرية التى يخرج بها طيار يشرب كأساً من الكونياك فى نزق ومجانة ثم يقتل ثمانين ألف إنسان فى ثانية ويعود ضاحكاً إلى معسكره كما حدث فى هيروشيا فى أغسطس من عام ١٩٤٥ .

بعد أن قضى دستوفسكى مدة عقوبته فى سيبريا وأفرج عنه كتب إلى السيدة ڤون ويسين خطاباً جاء فيه :

« ... ومع ذلك فإن الله يمتعنى أحياناً بلحظات من الهدوء الكامل ، وفى هذه اللحظات أجد الإيمان الذى يتجلى لى فيه كل شىء فى وضوح وقداسة . وإيمانى هذا فى غاية البساطة ، وهو أنى أعتقد أنه ليس هناك ما هو أروع وأحب ، وأعقل ، وأشجع ، وأكمل ، من المسيح . وليس هذا فقط بل إنى لأقول لنفسى فى إحساس المحب الغيور إنه لا يمكن أن يكون هناك شىء . أكثر من هذا ، وهو أنه لو أن أحداً قال لى : المسيح يجافى الحق ، ولو أن هذا القول كان صحيحاً ، لآثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق » .

وقصص دستوفسكى جميعاً تنشد الإيمان الذى يستطيع أن يستقر به الإنسان على هذه الدنيا حتى ولو كان هذا الإيمان يخالف منطق العيش وأسلوب البحث العلمى .

وقد وجد دستوفسكى حافزاً عظيماً للاعتماد على الإيمان ، هو هذا الاختبار المؤلم حين وقف أمام الجنود ينتظر إطلاق النار . فإنه بقى طوال عمره بعد ذلك ينظر إلى الحياة من موقف الموت ، وهو موقف جديد بأن يغير النظرة والنبرة للحياة معاً . وواضح أنه لم ينسه بتاتاً فى كل ما كتب .

وأكاد هنا أقول إن الدين ليس شيئاً آخر سوى النظر إلى الحياة من موقف الموت . فإن الموت أكبر حقيقة بشرية . وهو عندما نتأمله نجد أنه يغير القيم والأوزان ويحيلها من التقدير الاجتماعى إلى التقدير البشرى . فنحن فى هرولة الحياة الاجتماعية نتعب ونلهث لأجل الثراء أو الوجاهة أو ننساق فى أنانية بشعة لا نبالى مصالح الغير ولا نرحم من ندوسه فى سبيل الاقتناء أو التغلب . وكلنا على هذه الحال بدرجات متفاوتة ، ولكن فكرة الموت تنقدح فجأة فى أذهاننا فنقف فى طريق الحياة ونتساءل عن نهايته . وهذا وجدان أكبر الوجدان بالحياة التى تتخلص عندئذ من ملابساتها الاجتماعية . وعندئذ نحس كما أحس دستوفسكى ، بل كما يعلم ويكرر فى جميع قصصه ، إننا نحن بنو البشر كيان واحد قد تعددت أجزاؤه وانفصلت ، ولكن انفصالها لم يمنع بينها التراحم والحب والحنان . فكلنا عندئذ ، بعد تأمل الموت ، أب وأم وأخ لأبناء البشر جميعاً .

وهذا هو إحساس المسيح ، وغاندى ، وتولستوى ، بل ڤولتير وروسو وشڤيتزر . بل كل إنسان استطاع أن يقف عن هرولته الاجتماعية ويتأمل حقيقة الموت . أجل إن تأمل الموت هو كشف دينى . كأنى

ـ حين أوقن أنى فى إحدى اللحظات سأفارق هذا العالم فلا يبقى لى فيه جسم أو اسم أو ذكرى ـ لا أسأل عندئذ عن هذا الرجل هل هو باشا أو بك ؟ وثرى أو فقير؟ وهل يملك ضيعة أو أتومبيلا أو قصراً ؟ وإنما أسأل عن ميزاته الإنسانية . بل إنى لأهتم به وأتأمله كثيراً عندما أعرف أنه يحب الزهور ، ويحنو على الأطفال ، ويفرح لرؤية الشفق ، وتلتمع فى ذهنه أشعة الذكاء وشهوة الحرية ويحس قرابته للحيوان بل للنبات .

إن يقيننا بالانعدام بعد الموت يزيدنا وجداناً بالحياة . وهذا هو إحساسنا عندما نقرأ دستوفسكى ، فإن الحياة تصخب حولنا وتكاد تتجمع فى بركان تحتبس فيه العواطف ثم تنفجر .

ومع أن القارئ لقصصه يحس من وقت لآخر أن إيمانه بالله يتزعزع ، هنا وهناك ، فإن إصراره على الإيمان يتكرر فى لهجة التأكيد والغضب من المنطق العلمى وتفشى المادية الأوربية . فهل نستطيع أن نفسر ذلك بأن رهبة الموت حين وقف لتلقى النار قد حملته أيضاً على التشبث بالإيمان فراراً من معانى القلق والشك والخوف ، وجميعها من معانى الموت !

قد يكون ذلك ، ولكن هذا الإيمان قد جعل قصصه تذوب ، رحمة وحناناً وإخاء وبراً حتى لنحس ونحن نقرأها هذه الفضائل تسرى فى كياننا ، كما لو كانت بلسما ، وترفعنا فوق أنفسنا .

* * *

لا نتمالك ونحن نقرأ دستوفسكى أن نقارن بينه وبين نقيضه نيتشه . وقد عرف داعية القوة وعدو المسيحية داعية الرحمة والمسيحى الأول من إحدى قصصه . والعجب أننا على الرغم من هذا التناقض بينهما

نجد اشتراكاً فى الأسلوب الفكرى ، حتى لقد أحب نيتشه دستوفسكى وقال عنه : هو الإنسان الوحيد الذى علمنى شيئاً عن السيكلوجية .

وهما يشتركان فى الكراهة للحضارة العصرية ، ولكن لسببين متناقضين . فإن دستوفسكى يكره أوربا لأنها تركت الإنجيل والمسيح ، ونيتشه يكرهها لأنها اعتنقتهما . فالأخلاق العامة فى أوربا تحولت فى رأى دستوفسكى إلى أخلاق المادية العاممية والمباراة الاقتصادية والبعد عن الإخاء والرحمة . ونيتشه يكره الأخلاق الأوربية لأنها ابتعدت عن الفطرة الحيوانية واستبقت الضعفاء والعجزة والمرضى الذين يفسدون المادة البشرية ، لأنها أخلاق مسيحية !

ولكنهما يتفقان من حيث إن لكل منهما رؤيا بشرية ، فكلاهما حالم ، ولكن حلم دستوفسكى هو المسيحية العامة ، وحلم نيتشه هو تنازع البقاء . وقد قال كلاهما : إن البطولة خير من السعادة .

ولكن البطل عند دستوفسكى هو ذلك الذى يضع إحساسه البشرى فوق عقله المنطقى . والإحساس هنا هو الرحمة والحب . وكذلك نيتشه يزدرى العقل والمنطق ، ويقول بالإحساس ولكن إحساسه هنا هو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور ولا يرحم .

لقد انتهى رسكلنيكوف فى قصة « الجريمة والعقاب » الذى قتل العجوز كى يحصل على مالها إلى أن يجحد عقله ويعود إلى إحساسه ويرضى بالتكفير عن جريمته فى سيبريا . ولو أن نيتشه كان قد ألف هذه القصة لسخر من هذه النهاية . ولكنه ، مع سخره هذا . لم يكن ليقبل قتل العجوز لأنه لم يكن داعية للفوضى ، وإنما الأغلب أنه كان يطلب نظاماً اجتماعياً منطقياً يؤدى إلى الاستغناء عن العجزة الذين انتهى نفعهم للبشر ؛

. وحين نقرأ قصص دستوفسكى لا نتمالك أن نحس أنه يريد أن نفهم منه أن الإنسان مزيج من الخير والشر ، وأن فى نفس المجرم الآثم أو الشرير القارح جواهر من الشرف والبر . وهذا صحيح .

وثلاثة يمثلون العبقرية البشرية ، هم نابليون الذى يمثل عبقريه الإرادة ، وأينشتين الذى يمثل عبقرية الذهن ، وأخيراً دستوفسكى الذى يمثل عبقرية الإحساس .



ثورو
ونداء الطبيعة

سبق لى أن أوضحت بعض الأسباب التى تجعلنى أحب أحد المؤلفين دون الآخرين . ولكن هناك حالات من الحب تتعمق قلبى وتتغلغل فى خلايا مخى بحيث أعجز عن التحليل ، فلا أصل إلى الجذور التى تربطنى بأحد المؤلفين . وقصارى ما أقول عندئذ إنى أحبه كما أحب اللحن الموسيقى العظيم ، أو أعجب به كما أعجب بالتمثال الرائع . وأتعلق به برباط من الحنان كما لو كان هذا المؤلف أبا أو أماً .

فإنى أعجب بتولستوى مثلا لأنه ألف قصة خالدة رائعة تدعى « أنا كارنينا » هى فى الذروة من الفن . ولكن حبى له لا ينبنى على هذه القصة وحدها . بل أحرى أن تبعث هذه القصة فى نفسى إعجاباً بقدرته .. ولكنى لا أحبه لأنه قادر فقط وإنما لأنه ضعيف عاجز أيضاً ، قد ارتكب

أخطاء وتورط فى مشاكل لم يعرف كيف يتخلص منها . فإحساسى نحوه هو الحنان والرقة . هو عندى : بابا تولستوى ، لهذه الأخطاء والتورطات نفسها .

عاش تولستوى عيشة الفسق وهو شاب ، ثم حاول أن يكون شيخاً طاهراً وأسرف فى معنى الطهارة حتى قال — وحاول أن يمارس ما كان يقول به — إن الزوج يجب ألا يتصل بزوجته إلا بغية التناسل . ولكنه أخفق ، إذ كان يصارع جسده وهو فوق السبعين . ويعود من هذا الصراع خائباً .

وقضى شبابه وهو لا يكاد يدرى أن فى هذه الدنيا أدياناً يؤمن بها الناس ويجعلون منها دستور حياتهم . حتى إذا اكتهل شرع يشتغل بالدين ويحاول الإيمان ، فإذا به يتورط فى ارتباكات ذهنية وعادات سلوكية انتهت به آخر حياته إلى اثنى عشر يوماً من الضلال والدمار ، ثم الموت . .

وكان شريفاً له لقب كونت ، وعنده آلاف الأفدنة ، يستغل عشرات الفلاحين فى زراعتها . ثم انبلج له نور جديد ، فإذا به يجمع هؤلاء الفلاحين ثم يعرض عليهم أن يوزع الأرض بينهم إذ لا حق له فى استغلالهم . ويغادر الفلاحون منزله وفى نفس كل منهم شك أو شبهة فى سلامة عقله ، ثم تدرى عائلته بما جرى فى هذا الاجتماع فتكفه عن التصرف وتمنعه من التنازل عن أرضه ، وتستمر على الرغم منه فى استغلال الفلاحين .

وألف عشرات القصص الخالدة ، وكلها فن ومجد وحب . ملأت الدنيا موسيقى وأدخلت السعادة إلى قلوب الملايين من البشر . ثم يختمر فى نفسه الإيمان الجديد بأن الناس لا يحتاجون إلى الفن وإنما يحتاجون

إلى الحنان والخير والقناعة وسذاجة العيش . . . فيكف عن التأليف ويرفض أن يتناول قرشاً من أرباحه من هذه القصص .

ثم لا يكتفى بهذا بل يعمد إلى شراء الجلود ويصنع بيديه أحذية للفلاحين ، لأن صنع حذاء يدفئ قدم الفلاح خير من إخراج كتاب يجد فيه القارئ لذة فنية !

وتثور العائلة فى وجهه ، وتضرب عليه حصاراً حتى لا يتورط فى عمل أرعن جديد .

وكان له صديق طبيب من أولئك الرجال الذين يحابى القدر بهم بعض الناس ، فهم حب وإخلاص وتضحية . وهم سعادة لأصدقائهم ونور للعقل والقلب .

وكان تولستوى إذا جاءه هذا الصديق شهق شهقة الخلاص . فهو يستقبله ويدخله غرفته ويقفل الباب ، ويبقى الاثنان يتناجيان .

ولكن زوجة تولستوى لا تطيق كل هذا الحب ينحرف عنها من زوجها إلى هذا الطبيب فهى تغار وهى تحقد . ثم تنفجر ، فتكتب فى مذكراتها بأنها نظرت من صير القفل ، ولا تشك فى أن بين تولستوى وبين هذا الطبيب حباً جنسياً شاذاً . وكلا الرجلين قد أوشك على الثمانين . . . وهذا حقد الغيرة ، وعمى الغيرة ، وكفر الغيرة !

ويستقر فى ذهن تولستوى أنه قد فشل فى حياته ، فلا هو استطاع أن يوزع الأرض على فلاحيه ، ولا هو استطاع أن يؤمن بالإيمان الساذج الذى كان ينشده بإحساسه . ولا هو قادر على أن يعيش العيش الساذج الذى قال به ودعا إليه . بل إن نفسه لتهفو حتى وهو فى هذا النسك إلى أن يؤلف قصة غرامية . وأنه مع دعواه بأن التناسل هو الغاية المفردة من التعارف الجنسى ليتقدم فى ذل إلى زوجته .

والدنيا حوله فى آلام : فقر وجوع ودنس وظلم. أجل ، ليس له الحق فى أن ينعم بطعام طيب أو فراش دافئ ، وهو يحس أنه قد اقترب من الليل الطويل والنوم الأخير ، وأنه يجب أن يتنكر الإنكار العظيم لحياته الماضية وأن يفر من الدنيا إلى . . . إلى الله .

وكيف يفر إلى الله هذا الشيخ الذى بلغ الثانية والثمانين ؟

فى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر من عام ١٩١٠ تأتى إليه عربته التى ينتظرها بميعاد ، ويحرص الحوذى على الصمت والسكون حتى لا يستيقظ أحد آخر ثم تسير به العربة إلى محطة السكة الحديدية ، فينزل ويجد صديقه الطبيب فى انتظاره ، ويأتى القطار فيركبان فى إحدى عربات الدرجة الثالثة .

وينزل كلاهما فى إحدى المحطات ، ويسيران إلى دير حيث تستقبلهما الراهبات .

ولكن لا تمضى أيام حتى تعرف ابنة تولستوى ، وهى فتاة فى السادسة والعشرين ، مكانه . فتذهب إليه وتدخل الدير وتقف إلى جنب والدها . ولكنه هو يحس من هذه الزيارة أن الدنيا قد شرعت تجره إليها بعد أن تركها . فهو يستيقظ فى الرابعة من الصباح ، والثلوج تكسو روسيا بأجمعها ، فيفر مرة أخرى مع ابنته والطبيب .

ويحس قشعريرة تلجئه إلى أن يرتاح فى غرفة بإحدى محطات السكك الحديدية . وبعد أيام ، بين يدى ابنته ، يموت . . . يموت موتاً عظيماً بعد أن عاش حياة عظيمة .

لقد ألف تولستوى عشرات القصص الجميلة . ولكن قصة حياته أجمل بل أخلد .

إنها كانت جهاداً شاقاً وأخطاء متوالية فى سبيل الحق والشرف.

ونحن أعجز من أن ننهج هذا النهج فى الحياة ، ولكن هذا العجز يزيدنا حباً له . وحياته هى رؤيا دائمة ، هى دعوة إلى أن نتحرى الحق ونجرب التجارب فى العيش ، فننفض العادات ، والتقاليد ، والعرف ، إذا لم نجد أنها تلائم العيش المثمر البار .

وتجارب العيش هى فى النهاية أثمن ما نطلبه من المؤلف أو المفكر ، ونحن ننتفع ونسترشد بحياة المؤلف كما ننتفع بمؤلفاته ، بل ربما أكثر لأن حياة المؤلف هى نهج جديد للبشر .

وكثيراً ما أقارن بين حياة ڤولتير ومؤلفاته ، فأجد أن كفاحه الشخصى للتعصب الدينى قد ربى أوربا وعلمها معانى جديدة لشرف الفكر . رباها وعلمها بأكثر مما ربتها وعلمتها مؤلفاته ، وكذلك الشأن فى حياة غاندى أو شفيتزر .

ذلك لأننا لسنا واثقين بأننا نعيش فى حضارتنا الراهنة الحياة الفضلى على المستوى الأرحب . ومن الحسن أن نصدم من وقت لآخر بمن يوضحون لنا الخطأ والخطل فى عيشنا الحاضر . أو على الأقل يغرسون الشك فى نفوسنا حتى لا نسرف فى عاداتنا الاجتماعية الموروثة ونتقيد بها كما لو كانت شعائر دينية . فمجتمعنا الذى نعيش فيه مثلا هو مجتمع اقتنائى يعلمنا كيف نقتنى ، ويغرس فى نفوسنا عواطف الكسب والجمع والغيرة والحسد . وكثيراً ما نسير إلى أقصى حد مع هذه العواطف فنقع فى هموم هى سموم تأكل فى نفوسنا وأجسامنا معاً ، ونشقى بما نقتنى .

وقد رفض غاندى أن يعيش وفق المبادئ التى يدعو إليها هذا المجتمع فقنع من الدنيا بشملة وعنزة ، وعاش سعيداً إلى سن الثمانين تقريباً . ولعله كان يعيش أكثر لو لم يقتل . وكانت له مبادئ فى الخير والبر والإخاء والحب هى ثمرة هذا العيش الساذج [١]، أو على الأقل كانت بعض

ثمرته . . . لأننا يجب ألا ننسى أن أسلوب عيشنا « يكيف » أفكارنا ويعين أخلاقنا إلى حد بعيد ، وأسلوب الاقتناء فى العيش يبعث الطمع والحسد ، وأسلوب القناعة فى العيش يبعث الطمأنينة .

* * *

وإنى أذكر هنا رجلا جرب تجربة فى العيش كانت إلهاماً لغاندى هو هنرى ثورو الكاتب الأمريكى . الذى كسب غاندى عنه أسلوب العيش ، كما أخذ عنه شعار الثورة الهندية على الإمبراطورية البريطانية ، وهو « العصيان المدنى » .

وقد كان هنرى ثورو يقصد من هذه العبارة إلى أننا نكون أحراراً بحيث لا يربطنا المجتمع بعاداته وأهدافه وأساليبه وقيمه ، لأن لكل منا حق الاستقلال فى تنظيم عيشه وفق مبادئه الشخصية ، حتى حين يخالف العرف المألوف . وقد خرج غاندى هذه العبارة تخريجاً آخر هو أن الهنود يجب ألا يتعاونوا مع الإنجليز .

ولد ثورو فى عام ١٨١٧ ومات فى سنة ١٨٦٢ . وقد ألف كثيراً ، ولكن ميزته أنه أدخل الطبيعة فى الأدب الأمريكى ، وأثار الوجدان بجمال الريف والغابة والطير والوحش . وكان الروح التجارى والاقتنائى فى أيامه على أشده فى الولايات المتحدة . فعمد هو إلى صده ، وترك المدينة وأقام فى الغابة . وكتابه « والدين » هو أثره العظيم الذى يذكر لنا فيه تجاربه وإحساساته عن هذه الحياة الفطرية التى عاشها .

وهو يقول عن تجربته هذه : « لقد أردت أن أعيش عن قصد ، وأن أجابه ، حقاً ، عمق الحياة الأصلية فقط . كى أعرف ما يمكن أن تعلمنى هذه الحياة . حتى إذا قاربت الموت أكون واثقاً بأنى قد عشت ، ولم أكن أرغب فى أن أحيا بما لم يكن أصيلا فى الحياة ، لأن الحياة غالية ، كما أنى

لم أكن أقصد إلى الاعتكاف ما لم يكن هذا ضرورياً ، إنما أردت أن أعيش فى عمق وأن أمتص مخ الحياة ، وأن أحيا فى قوة حياة إسبرطية تبعد عنى ما ليس من الحياة . وأن أدفع الحياة إلى مأزق ، وأن أصل منها إلى أن أدون ما فيها . فإذا كانت خسيسة فإنى سوف أعلن خستها للعالم . وإذا كانت سامية فإنى أريد أن أعرف هذا السمو وأجربه وأقدم عنه حساباً » .

هذا كلام جد وعمل جد . فإننا لم نقف قط هذا الموقف من الحياة . وإنما الأنبياء وحدهم الذين وقفوه وجربوه . إذ لست تجد نبياً إلا وله فترة من الاعتزال والاعتكاف يترك فيها المجتمع ، ويبحث فيها عن مراسيه فى الدنيا . وهو فى هذا الاعتكاف « عاص مدنى » يحاول أن يتخلص من القيم والأوزان الاجتماعية كى يصل إلى ما يقابلها من القيم والأوزان البشرية التى تعلو على العادات والعرف . والأديب المخلص فى حاجة إلى مثل هذا الاعتزال والاعتكاف من وقت لآخر .

ولكن ثورو لم يكن يريد من فراره إلى الغابة أن يعتكف للتأمل فقط ، وإنما كان يريد أن يجد ويجرب طريقة أخرى للعيش لعلها تكون أفضل من عيش المتمدنين .

لقد نشأ ثورو فى مدينة صغيرة ولكنها مع صغرها كانت تحوى جميع التأنقات التى تمتاز بها المدن ، هى مدينة كونكورد فى الولايات المتحدة . وعاش ثورو فيها واحترف التعلم ، ولكنه تركه للأدب . ولم يوفق كثيراً ، بل الحق أن شهرته فى أيامنا تزيد عشرات المرات على شهرته حين كان حياً يدعو دعوته الحارة إلى الطبيعة .

وإحساس ثورو للطبيعة عميق ، يدهشنا أحياناً بعمقه . انظر إليه حين يقول :

« إن الطبقة العليا من التربية التى تحتوى جذور الأعشاب تحوى من الأدوات الميكانيكية ما هو أدق من أدوات الساعة . ومع ذلك نحن ندوسها بأقدامنا . وهذه الحركة التى تجرى فى التربة فى الظلام ، وهذه الكيمياء التى تتخلل ألياف العشب قبل أن تظهر ورقة واحدة منه فوق الفتات البالى بالحديرتان ، لو أننا فهمناهما ، بأعظم كشف فى الطبيعة » .

ولم يكن ثورو يدعونا إلى التخصص فى دراسة الطبيعة وإنما كان يطالبنا بأن نعيش فى الطبيعة . وهو يوضح لنا أن ارتباطنا بالمجتمع أو الحرفة أو السياسة أو الحكومة أو غير ذلك من المؤسسات الاجتماعية إنما هو شىء ثانوى إلى جانب ارتباطنا بالطبيعة ، بالأرض والجبل والنهر والشجر والحيوان والطائر . فيجب أن نعيش مع هذه الأشياء أو فيها . ثم يجب على الإنسان أن يكون قادراً على أن يعيش منفرداً متوحداً يأنس إلى الطبيعة دون الحاجة إلى مجتمع ، كما يجب أن ينشد سعادته واختبارته من الطبيعة وليس من النجاح المالى أو الاجتماعى. وهو هنا لا ينكر قيمة الصداقة بل يكبر من شأنها ، ولكنها صداقة الزمالة فى الطبيعة .

إن الإنسان الاجتماعى كائن صغير إزاء الإنسان الطبيعى . . الأول يعيش فى المدينة وهو محدود الاختبارات والآفاق ، له هموم صغيرة تستوعب نهاره بل بعض ليله . وهو يعمل جاداً متعباً كى يجمع ثروة أو يحقق غاية اجتماعية طول عمره . ولكن الإنسان الطبيعى لا يحتاج إلى أن يكد ويتعب إلا للحصول على طعامه وكسائه . أما سائر وقته فينقضى فى الالتصاق بالطبيعة . وهنا يصدمنا ثورو بقوله : لماذا يفرض علينا العمل ستة أيام فى الأسبوع ثم يوماً من الراحة ؟ أليس العكس هو الأولى ؟ . . .

وهو يعنى أننا إذا عمدنا إلى ترك التكاليف الاجتماعية الباهظة

وارتضينا بساطة العيش بين أحضان الطبيعة فإن يوماً واحداً من العمل فى الأسبوع يكفل لنا جميع حاجاتنا ، أما الأيام الباقية فهى للاستمتاعات والاختبارات .

ترك ثورو مدينة كونكورد إلى بقعة نائية فى عام ١٨٤٣ . وكانت سنه وقتئذ لا تزيد على ست وعشرين سنة ، وهناك بنى بنفسه كوخاً من الخشب . وكان قريباً منه غابة يحصل منها على خشب الوقود . وكذلك بالقرب منه بركة تحوى القليل من السمك . وكان عندما يحتاج إلى أكثر مما يحصل عليه من البركة والغابة ، يؤجر نفسه للمزارعين المجاورين ويشترى بعض حاجاته بما يكسبه من أجر عمله . وقد كلفه بناء الكوخ ثمانية وعشرين دولاراً . وكان طوله ١٥ قدماً وعرضه ١٠ أقدام ، وهو يصفه بأنه يحوى من المرافق أكثر مما يحتوى المسكن العادى فى المدينة . . . . « ولم يكن له قفل على الباب أو ستار على النافذة ، وكان جزءاً من الطبيعة بقدر ما كان جزءاً من العمل البشرى » .

وهو حين يصف الطبيعة تحس كأنه قد انتشى بها كما ينتشى أحدنا بالخمر ، بل كأنه قد تزوجها ويحس فيها طرباً جنسياً قد بلغ الذروة . وهو يستخرج منها لهذا السبب الإحساسات والمعانى التى التى تخطر على بال من يعيشون فى المدن حيث معظم اللذات مصنوع . انظر إلى قوله : « الإنسان الحيوان ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخر » .

« ليست الأرض التى أدوسها هامدة ميتة . إذ هى جسم وروح . . . وليس لأمعائها الدقيقة نهاية . هنا كيان من الأنوار ، من الأكباد ، من الأمعاء . أليس لك أمعاء ؟ إن للطبيعة أمعاء ، ثم هى أم البشرية . وعندما نضع البذور فيها تتجرد ثم تنموا » .

هذا هو الانتشاء بالطبيعة . وهو مثل كل انتشاء . يحوى شيئاً من

الهذيان ولكنه هذيان ملهم يدل على حقائق . وهو يقول أيضاً :

« يجب أن تصعد فوق الجبل كى تعرف العلاقة بينك وبين المادة . أى بين جسمك وبين المادة ، لأن جسمك يجد بيته هناك » .

« انظر إلى أصابعى وكيف أتناول وأعبث بها . أجل ، إنها ، هذه الأصابع ، قد تكون جزءاً من قمة هذا الجبل الذى أصعد إلى قمته كى أرى أبناء عمومتى . إنه يحوى أصابع الأيدى والأقدام كما يحوى الأمعاء . ومن هنا اهتمامى » .

ثم يقول : « عش فى كل فصل من فصول السنة . تنفس الهواء واشرب الشراب . وتذوق الفاكهة واستسلم لها جميعاً . ولتدفعك جميع الرياح . وافتح مسامك جميعاً واستحم فى مد الطبيعة وفى أنهارها ومحيطاتها فى جميع الفصول .

« وإذا كنت تحس أنك تستقبل النهار والليل فى طرب وفرح ، وإذا كانت الحياة تنقل إليك أنفاس الزهر والعشب فى أرج جميل ، فأنت موفق . والطبيعة تهنئك . ولك الحق عندئذ فى أن تحس أنه قد بورك عليك » .

* * *

لم يقض هنرى ثورو عمره كله فى كوخه . إذ هو رجع بعد سنة وشهور إلى المدينة ، وهو بهذا يحملنا على أن نفهم أن عودة البشر إلى حياة الفطرة فى الغابة لم تعد ممكنة . وإنما قصارى ما نفهمه من تجربته أنه أومأ إيماءة لنا بأن التكاليف الاجتماعية الباهظة نستطيع أن نستغنى عنها . وأن فى « الفقر الإدارى » كما سماه قيمة يجب ألا نستهين بها . فإن حياة المدينة وما فيها من هرولة وعصبية وهموم ، كل هذا يمكن النجاة منه بأن نجعل شعارنا : كيف نستغنى ؟ بدلا من كيف نقتنى ؟

والولايات المتحدة بعد مائة سنة من تجربة ثورو أحوج إلى عبرته مما كانت فى عام ١٨٥١ . لأن المباراة التى يعيش فيها الأمريكيون هذه الأيام هى أقتل للنفس وأبعث للقلق والخوف مما كانت فى أيامه . والأمريكى الذى ينبعث فى عام ١٩٥٠ إلى مثل تجربة ثورو هو رجل سعيد بالمقارنة إلى المهرولين العصبيين الذين يملأون أسرة المستشفيات للأمراض العقلية .

وإنه لمن الحسن أن ينبهنا كاتب ، بإسرافه فى الحب للطبيعة ، إلى أنه ، إلى جنب الشارع والنادى وسهرات الكتول وعد النقود وشراء الأرض واقتناء الضياع أو الأسهم فى الشركات ، إلى جنب هذا توجد أرض وسماء وأشجار وزهور وأنهار وجبال ، وأن القمر يضىء فى الليل ويكسو الحقول بأشعته ، وأن النجوم تنادينا فى الظلام كى نتأملها ونتحدث إليها .

وأننا من وقت لآخر يجب أن نختلى ونستوحد ، كى نعيد النظر فى حياتنا ونسأل هل نحن نعيش مسوقين بضغط العادات الاجتماعية التى لم نفكر من قبل فى قيمتها ؟ وألا يجدر بنا أن نغير هذه العادات أو ننقحها بإلهام الطبيعة التى تردنا إلى الأصول والجذور ؟



تولستوى

فيلسوف الشعب

ولد تولستوى فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١٠ .

ومن هذين التاريخين نرى أنه عاصر القرن التاسع عشر كله تقريباً ولكنه لم يكد يعيش فى القرن العشرين ، فقد مات قبل الحرب الكبرى الأولى بأربع سنوات . وما كان أحوجنا إلى أن نسمع . صوته عن هذه المجزرة البشرية العظمى .

ولكنه فى القرن التاسع عشر رأى كثيراً واختبر كثيراً . فقد اشترك فى حرب القرم فى عام ١٨٥٤ . ورأى بعد ذلك حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا . ورأى أحد القياصرة يقتل . ورأى تحرير العبيد فى عام ١٨٦١ . واصطدم بالكنيسة وطرد منها . واصطدم بعائلته حين أراد تسليم أرضه المورثة للفلاحين . وانهزم ، وصمت .

وكان طيلة حياته فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر ضمير اوربا ، يرتأى الرأى ويعظ الموعظة ، ولكنه قلما كان يزيد على ذلك . وهنا أكبر إهماله أو خطأه .

كان ضمير أوربا ، كما كان غاندى – منذ ١٩٢٠ إلى ١٩٤٨ – ضمير الهند والعالم . كلاهما ، تولستوى وغاندى، صورتان لشخص واحد، هما صورة الأستاذ وتلميذه ، ولكن هذا التلميذ، غاندى ، حاول أن يجعل آراء تولستوى ومواعظه أعمالا منفذة .

فى هذه الحياة الطويلة التى عاشها تولستوى رأى أهوالا من الشقاء البشرى كان أولها حرب القرم . فإنه يذكر أنه عقب هذه الحرب لم يطق إلا أن يأخذ قلمه ويكتب . وأن ينذر قلمه لمحو هذا الشقاء البشرى. أى الحرب .

ولكن حرب القرم يمكن ، بالمقارنة إلى حروبنا الجديدة التى تخيم على عالمنا العصرى ، بالذرة المنشقة والذرة الملتحمة ، يمكن أن تعد مباراة فى كرة القدم .

ولو أن تولستوى كان حياً فى أيامنا ، وكان يسمع أو يقرأ ما يقال عن الحرب المنتظرة ، لطالب بإرسال جميع المسئولين إلى المارستان .

إنها الحرب التى جعلته يقول فى عام ١٨٥٤ : لم أتمالك أن أتناول القلم وأكتب . وكل رجل شريف له قلم يجب أن يقول مثل هذا القول هذه الأيام .

والحرب بؤرة لمشكلات عديدة . اضطر تولستوى ، كما يضطر غيره فى مثل هذه الظروف ، إلى أن يشتبك فيها .

فاشتبك فى معنى الدين ا ودلالة الفن ، وهدف الثقافة ، وأسلوب العيش، وعادات الحب والزواج . وكتب القصة الفنية ، والرسالة المناقشة.

وحاول أن يحس وفق ما يقول ويؤمن . ونجح قليلا وفشل كثيراً .

نجح من حيث إنه عمم الإيمان بأن المجتمع يعانى من الأسواء ويحمل من الأوضار ما يجب أن يبعثنا على إصلاحه . فكانت بذلك مؤلفاته إيحاء للثورة .

وفشل من حيث إنه كان يعتقد الاعتقاد الدينى بأن إصلاح الفرد يؤدى إلى إصلاح المجتمع . . و لم يفقه قط إلى أن الفرد مسير بعادات المجتمع وأساليب عيشه . ونظم أخلاقه وعاداته . وأنه لن يتغير إلا إذا غيره المجتمع أو هيأ له أسباب التغير .

كان تولستوى مثاليًّا ولم يكن ماديًّا .

* * *

نجد فى حياة تولستوى ظروفاً أو حوادث رسمت له خطوط حياته .

فإن حرب القوم بفظائعها جعلته كاتباً يكتب عن قهر وإلزام لأنه لا يطيق الصمت . وهذه الحال أعظم ما يهيئ التفوق والنبوغ فى الكاتب ثم رأى هول النظام الإقطاعى فى روسيا ، والرق الزراعى الذى كان يقضى بخضوع الفلاحين لصاحب الأرض ، لا يتركونها إلى غيرها . إذ هم عبيد تملكهم الأرض ولا يملكونها . وقد ألغى الرق فى عام ١٨٦١ ، ولكن تولستوى حرر عبيده تطوعاً قبل أن يسن هذا القانون .

ورأى تولستوى فى حياته الأدبية صراعاً بين المستغربين والمستشرقين . فإن دعاة الإصلاح انقسموا فريقين : أحدهما يقول بالتزام روسيا لمبادئها الشرقية . والآخر يقول بأخذها بالأساليب الغربية .

وهذا التردد أوقع بالشعب فى بلبلة كسب منها الرجعيون . أى القيصريون والكنسيون . أليست القيصرية والكنيسة مؤسستين شرقيتين وطنيتين يجب المحافظة عليهما ؟ ولذلك كان القول بتحرير العبيد من الرق

الزراعى ، وتعليم المرأة فى الجامعات ، والتفكير الاجتماعى فى معانى الدين ، بل البرلمان نفسه ، كل هذا كان من بدع المستغربين الذين يعدون خونة للمبادئ الشرقية الروسية .

وكان فى الجانب الآخر دعاة الحضارة الغربية العصرية الذين أخذوا بالمذهب الماركسى فى الاشتراكية ، والذين كانوا يطالبون بإلغاء القيصرية واحتضان الثقافة العلمية الأوربية .

وانتقلت هذه المعركة إلى الأدب الروسى واحتلت مركز المناقشة فيه .
فى ناحية نجد دستوفسكى ينعى على أوربا ماديتها ويدعو روسيا لاستيفاء شرقيتها .

ومن ناحية نجد تورجنيف يدعو إلى الغرب .
ومن هنا نشأت كلمة « العدمية : النيهلزم » التى سكها تورجنيف كى يبين البلبلة أو اليأس الذى يقع فيه شبان روسيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين كان يحملهم قنوطهم على طلب العدم ، لأن الوجود لا يطاق .

الوجود لا يطاق إزاء ناس أشرار يطلبون بقاء القيصرية والكنيسة المستبدين ، وبقاء الرق الزراعى ، وبقاء المرأة للبيت ، وبقاء الاستسلام والخضوع والرضى بالفقر .

* * *

لكل كاتب أب روحى ينتمى إليه ، أو هو يعتقد أنه ينتمى إليه .
وفى هذا الانتماء أنسة تتولد منها شجاعة وإصرار ، وإحساس بالسلامة بالبعد عن الأخطار . ولا عبرة بأن يكون الأديب المنتمى مخطئاً ، وإنما العبرة بالإيمان .
وكان الأب الروحى لتولستوى ، چان چاك روسو .

كما كان الأب الروحي بعد ذلك لغاندى ، تولستوى نفسه .

وقد صرح تولستوى بأن فى شبابه كان يعبد روسو . وأنه كان يحمل ميدالية عليها صورة هذا الأديب الفرنسي العظيم . ولقد قال فى أحد مؤلفاته : « إنى أحس ، وأنا أقرأ لبعض الصفحات من روسو ، كأنى أنا قد كتبتها » .

ونحن نجد بين الاثنين قاسماً مشتركاً . فإن كلا منهما وجد فى الرجوع إلى بساطة الحياة حلا للعقد الاجتماعية التى أوجدتها الحضارة العصرية ، والتى جعلت حياتنا شاقة بالطموح المسرف ، والمباراة القاتلة ، واتخاذ القصد المخطئ فى الجهد لجمع المال ، والعيش فى البذخ .

لقد دعا روسو إلى العودة إلى الطبيعة وإلى المعيشة الساذجة . وقد عاش روسو فى هذه الطبيعة الساذجة حين آثر الريف على المدينة ، والالتصاق بالأرض والإنتاج الزراعى على مركبات الحضارة العصرية التى كثيراً ما تستحيل إلى عقد .

ونحن نجد فى اعترافات روسو ، ثم اعترافات تولستوى ، أمكنة عديدة للمشابهة . ولكن يجب أن نسأل قبل أن نلتفت إلى هذه الاعترافات .

لماذا كتبها روسو وتولستوى؟ بل لماذا كتب غاندى، تلميذ تولستوى، اعترافاته أيضاً التى سماها « تجارب فى الحياة » ؟

السبب هو القلق ، فإن هؤلاء الثلاثة الذين هدفوا إلى الطمأنينة والسلام والسعادة فى كتاباتهم ، كانوا قلقين لهذا السبب نفسه . أى أن جهدهم لتحقيق الطمأنينة والسلام والسعادة قد أحالهم إلى مفكرين مكافحين مخاصمين للمجتمع الذى عاشوا فيه . وقد تألموا جميعهم . فإن روسو طورد كما لو كان مجرماً . بل إنه عاش بعض سنى حياته وهو مختبئ أو هارب.

وتولستوى طورد من الكنيسة التى كان يرفع دينها إلى أعلى مرتبة . وأما غاندى فقد ضرب وحبس . ثم أخيراً قتل .

ولسان هؤلاء الثلاثة جميعاً يقول ، كما كان يقول أرميا : « ربى ! لم جعلتنى مُشَاقًّا لأهلى ؟ » أى ربى . لم جعلتنى على شقاق مع مجتمعى ؟

ولكن أرميا كان يجهل أن كل من يطلب الإصلاح والتطور والارتقاء لن يمكنه أن يؤدى هذه الرسالة إلا بعد شقاق بينه وبين أهله . وهؤلاء الأهل، أو هذه الشعوب والمجتمعات، بعد أن تضرب النبى أو الفيلسوف والأديب ، وتحبسه ، وقد تقتله ، بعد ذلك تقيم له التمثال الذى يخلد صورته وتحتفل بذكراه وتدرس أقواله .

وعظماء الأدباء فى أيامنا هم الأنبياء وهم الفلاسفة .

* * *

لما كان تولستوى فى شبابه وجد نفسه نبيلا ممتازاً على الشعب بالثروة والمقام ، وله عبيد زراعيون يجرى عليهم حكم الرق . فأعتق عبيده هؤلاء ولكنه بعد ذلك وجد أن المباراة التجارية الجديدة ، واستخدام رأس المال الوطنى والأجنبى ، وظهور طبقة جديدة من الأثرياء الذين يطلق عليهم اسم « بورجوازيين» ، وجد أن المناخ الإقتصادى الاجتماعى الجديد، على ما يزينه من طلاء الحضارة والثقافة — هذا المناخ أسوأ من المناخ الزراعى القديم . فكر الحضارة الغربيةالعصرية ودعا دعوة الحياة الساذجة الفطرية ، دعوى روسو قبل مائة سنة .

وهنا نحتاج إلى أن نتلبث قليلا ونبحث الموقف السيكلوجى .

فإن جان جاك روسو حين خبر المظالم الملوكية والإقطاعية فى فرنسا ، وحين شاهد البذخ النجس فى الطبقات البشرية إلى جنب الفقر الساحق المهين فى عامة الشعب ، حين رأى ذلك قال إن الحضارة كلها نجاسة

يجب أن نتجنبها ونعيش فى سذاجة ، لا نشترى الذهب ولا نبنى القصور ولا نأكل على الموائد المطهمة ولا نقتنى الحرير .

وكذلك تولستوى حين رأى غزو النزعات التجارية ، والجشع ، أى الاستكثار من الثراء بالمباراة القاتلة وسحق الفقراء من العمال . ثم ما ينبنى على ذلك من مدن يحيا فيها الأثرياء مع التعطل والدعارة إلى جنب آلاف العمال الجائعين الذين يعيشون فى البدرومات — حين رأى ذلك قال أيضاً بأن حياة الريف خير من حياة المدن . وأن الصناعات الصغيرة فى القرى خير من المصانع الكبيرة فى المدن .

وقد تعلم هو صناعة الأحذية كى يحس راحة الضمير . وكان يحرث الأرض . وكان يقول إن المتمدنين الغربيين يلعبون الألعاب الرياضية لأنهم لا يؤدون أعمالا مجهدة . ولو أنهم كانوا يعيشون مثل الفلاحين على الأرض لما احتاجوا إلى الرياضة البدنية .

ثم جاء غاندى فأحب تولستوى كما كان هذا يحب روسو . وأسس مزرعة باسم « مزرعة تولستوى » حين كان فى أفريقيا الجنوبية يدرس مشروعاته فى مقاومة الشر بالخير . وكان يعمل ويجرب فى أساليب الحياة التى أصبحت مذهباً عاش به الهنود . فلبسوا الخيش وأكلوا الخضراوات وصاروا يغزلون وينسجون كى يستغنوا عن الأقمشة الإنجليزية الواردة إليهم من إنجلترا .

* * *

أرجو ألا يفهم أحد أنى أمدح هؤلاء الثلاثة على الخطط الأساسية التى زعموا أنها تصلح للحياة العالية . وإنما وجدت أنه يجب ، كى نفهم تولستوى ، أن نذكر هذا الاتجاه الذى لم يخل منه عصر . ويكفى أن نقرأ قصة « نشيد الإنشاد » فى التوراة كى نعرف أن هذا الاتجاه قديم .

إذ أن هذا السفر لا يحدوا أن يكون دعوة إلى الطبيعة والسذاجة والقناعة ضد الحضارة .

وفي قلب كل منا شيء يهفو إلى هذه الحياة . ونحن نزداد تفكيراً فيها عندما نجد أن مركبات الحياة المتمدنة قد استحالت إلى عقد يعسر علينا حلها ، وأننا نقع في مضاعفات تقلقنا وتؤيسنا وتمرضنا .

التفكير في العودة إلى الطبيعة ، والتفكير في القناعة بحياة الريف ، والتفكير في لبس الخيش وطعام النبات — كل هذا هروب من عقد الحضارة العصرية ومضاعفاتها والعجز عن حلها .

أما متى وجد الحل فإن أحداً لا يفكر كما فكر هؤلاء الأبطال الثلاثة .

* * *

تمتاز القصة الروسية ، على وجه عام ، بالواقعية . وهذا هو الأثر الذي تخلفه قراءة قصة روسية عند القارئ العربي الذي يعرف الآداب الروسية .

وتولستوي واقعي يتعمق البواعث الخفية ويكشف عنها في صراحة كثيراً ما فزعت منها الطبقات الحاكمة في روسيا .

وهو في كل ما يكتب لاينسي أن ينبه إلى أن الحضارة العصرية غير إنسانية . وأشخاص قصصه فضلاء مستقيمون إذا كانو فلاحين ساذجين مثل « لفين » في قصة « أنّا كارنينا » . وهم أرذال منحرفون إذا كانوا متدينين مثل « فردمنسكي » في هذه القصة نفسها .

وهذا تحيز واضح له أصول في روسو معلمه الأول .

ثم هو ، مثل روسو قبله ، ومثل غاندي بعده ، شعبي . أي مع عامة الشعب والفقراء والمسحوقين والمحرومين . ومن هنا دعوته إلى تبسيط اللغة

الروسية . بل إن كراهيته لشكسبير تعزى ، إلى حد بعيد ، إلى أن هذا الشاعر الإنجليزى يتعالى على الشعب ويسميه غوغاء لا يفهمون . وإلى أن معظم أبطاله ملوك وأمراء . بل إنه يسرف هنا حتى يقول إنه يفضل أغانى الشعب الروسى العامية على أشعار جوتيه شاعر ألمانيا العظيم .

وأسلوبه لهذا السبب شعبى . هو حديث يكاد يكون عامياً ، لا نجد فيه تلك الكلمة المضيئة أو العبارة المزوقة التى اعتدنا أن نجدها فى كتب الأدب الأخرى . ولكنه فى كلما يكتب سيكلوجى عميق لا يعلو عليه هنا غير دستوفسكى الذى عرف سيكلوجية فرويد قبل فرويد .

* * *

وربما يكون من المنير هنا أن نقارن بين تولستوى ودستوفسكى .

فإن كلاهما كاتب عظيم من كتاب القصة . بل لا نغالى إذا قلنا إنهما أعظم كاتبين للقصة فى العالم كله . ومع ذلك أنا أوثر عليهما جوركى ، ولكن ليس ذلك لأنه يعلو عليهما فى فن القصة . وإنما لأنى أجد فيه مزاجى ونزعتى واتجاهى فى الثورة التى لا يرضى عنها تولستوى أو دستوفسكى المسيحيان .

وهناك فرق أصيل بين دستوفسكى وبين تولستوى .

ذلك أن دستوفسكى يهدف إلى إيجاد أشخاص ، بل أبطال . لكل منهم شخصيته الفذة التى يختلف بها عن سائر المجتمع فهم فلاسفة أو مجرمون أو حتى مجانين . ولكنهم عباقرة . ولكن عبقريتهم فى الإحساس أكثر مما هى فى العقل . هم أذكياء فى الإحساس . فإن « رسكلنيوف » بطل « الجريمة والعقاب » وهى القصة التى كنت أول من حاول ترجمتها فى عام ١٩١٢ ، هذا البطل يقتل امرأة عجوزاً عن تعقل منطقى . ولكنه يعترف بعد ذلك بالجريمة ، ويرضى بحكم الإعدام أو النفى المؤبد عن

إحساس إنسانى . ولهذا المؤلف أشخاص متدينون فى قصته العظيمة « الإخوة كرامازوف » تتأمل تدينهم العميق فتشك فى إيمانهم : هل هم مسيحيون أم إنسانيون ؟ وهل ينشرون النور أم الظلام ؟ نحن نقرأه ونحن نعانى لذة أليمة ، وكأننا فى قبضة محلل سيكلوجى نستجيب لأسئلته بومضات الذهن وارتجاف القلب .

جميع أبطال دستوفسكى شواذ ، مرضى ، ولكنهم عبقريون أذكياء .

أما تولستوى فن الشعب يكتب للشعب . رجاله عاديون . وهو يعبر عن أعمالهم وصفاتهم بلغة شعبية بعيدة عما يسميه الاحتيالات البلاغية .

المثل الأعلى عند دستوفسكى هو الرجل الشاذ الذكى الذى يحس أكثر مما يتعقل .

والمثل الأعلى عند تولستوى هو الرجل العادى الذى لا يشذ عن المجتمع . ولكن هذا المجتمع يجب أن يكون ساذجاً يحيا فى الطبيعة والصلاح . هو الرجل الطيب فى معنى الطبيعة الشعبية . بل أكاد أقول العامية .

البطل عند دستوفسكى هو من ينفصل من المجتمع .

والبطل عند تولستوى هو من يندمج فى المجتمع .

وأحسن أشخاص القصص عند تولستوى هو « ليفين » صاحب الأرض فى قصة « أنّا كرنينا » وهو مزارع طيب يتسم بأفكار عرفية ، أى اجتماعية ، عن الحب والزواج والعائلة والصلاح . هو تولستوى نفسه وسائر المزارعين .

وأحسن الأشخاص عند دستوفسكى هو الطالب « رسكلنيكوف » القاتل الفاجر الذى يقتل العجوز كى يسرق أموالها ، لأن حياتها « لا تزيد فى القيمة على حياة برغوث » .

أليس هذا هو المنطق ، منطق العقل وحده ؟
ولكن دستوفسكى يعود بعد ذلك فيشرح فى أكثر من مائتى صفحة أن هذا المنطق خطأ .

وأبطال دستوفسكى يختلفون فى معانى الحب من أشخاص تولستوى .

البطل عند دستوفسكى يحب المرأة البغى ، ويعبدها . لأنه يعبد آلامها . وينغمس فى دموعها . ويكرع تعاستها . وكأنه يبكى فى هذا الحب تعاسة الناس وبغاء حياتهم وجوعهم . وهو يستنبط من هذا الحب المعانى الإنسانية التى تجعلك تسمو على نفسك .

أما أبطال تولستوى فيحبون هذا الحب الأفلاطونى الذى يتوهم الناس أنه الحب السطحى . مع أن أفلاطون قصد منه إلى الحب الشامل للإنسان والحيوان والنبات ، والصدق والشرف ، والحقيقة والفن والطبيعة .
الحب عند تولستوى هو الحب للناس أولا . ثم بعد ذلك لهذا الكون بكل ما فيه من مخلوقات .

ولهذا السبب كان تولستوى يقيس كل شىء بقيمته للشعب . فالكتاب أو الصورة أو اللحن إنما هى جميعها وسائل لزيادة الاتحاد ، بل الاندغام ، بين أفراد الشعب . وعنده أننا كلما اندغمنا فى الشعب كنا أسعد ، وكلما انفصلنا كنا أتعس . ومن هنا كراهته لشكسبير الذى يكتب أحياناً فى وقاحة ، ويصف الشعب أنه غوغاء . وكذلك كراهته لجوتيه ؛ حتى قال إن الأغانى الشعبية الروسية تحوى من الفن أكثر مما تحويه أشعاره . وكذلك احتقاره لما كان يسميه « الاحتيالات البلاغية » لأن فنون البلاغة للخاصة وليست للشعب . ثم أخيراً نجده يحرث الأرض ويصنع الأحذية بيديه .

إنه يريد أن يكون من الشعب ويؤدى الأعمال الشعبية .

وهو هنا بالطبع مسرف . ولكن لهذا الموقف وجهاً يستحق أن نبحثه من ناحية المزاج النفسى والإحساس العاطفى ، وليس من ناحية الارتقاء البشرى والتقدم العلمى . بل إن لهذا الموقف مغزى لا يستهان به حين نتأمل خطط غاندى الشعبية فى الهند والنتيجة التى انتهت إليها .

* * *

تغمر إحساسات الحب حياة تولستوى .

الحب الأفلاطونى الذى يشمل الحياة والطبيعة : حب روسو .

وأكبر الظن أن روسو . هو الذى نبه ذهنه إلى الحب . أو هو الذى أيده وبعث فيه الاستطلاع والتعرف .

ولذلك لا نستغرب من تولستوى أن يلتفت إلى معانى الحب التى دعا إليها الإنجيل . ولكن التفاته هذا أدى به إلى الاصطدام بالكنيسة .

والواقع الذى يثبته تاريخ أوربا أنه كلما اقتربنا من الإنجيل ، وحاولنا أن نفهم تعاليمه منه مباشرة ، ونقرأه مثل أى كتاب آخر ، كلما فعلنا ذلك ، ابتعدنا عن الكنيسة . ونعنى بالكنيسة هنا كهنتها .

فإن لوثر ، المصلح البروتستانتى ، حين شرع يدرس الإنجيل مباشرة طردته الكنيسة الكاثوليكية . وكذلك فعلت مع رينان . وكذلك فعلت الكنيسة الأرثوذكسية مع تولستوى .

إن للكهنة تفسيرات « رسمية » للإنجيل . فمن تجرأ من المسيحيين على أن يفهم كلمات الإنجيل ، خارج هذه التفسيرات الرسمية ، فإنه عندئذ يكون عرضة للوم والحرم . وليس هذا شأن الكنيسة أو الكنائس البروتستانتية ، التى تعلمت من طرد لوثر ألا تطرد أحداً يخالفها .

وكان طرد تولستوى أو إلقاء الحرم عليه ، قائماً على أنه نظر إلى المسيح النظرة الإنسانية ، ووجد فى الأخلاق التى دعا إليها ، وعمادها

الحب، أخلاقاً لا تحتاج إلى وحى إلٰهى . بل إنه يقول إنه هو نفسه، أى تولستوى ، كان يمكنه أن يقول بما قال به المسيح فى الأخلاق دون أن يحتاج إلى وحى إلٰهى. لأن هذه الأخلاق هى أفضل ما نعرف وأليق ما تكون للمجتمع البشرى . هى أخلاق علية .

وهو يقول فى إحدى مذكراته حين كان يقاتل فى حرب القرم حوالى عام ١٨٥٥ : « ... خطرت بذهنى فكرة، هى تأسيس ديانة جديدة تتفق والحال الحاضرة للنوع البشرى . أعنى الديانة المسيحية التى تتطور من العقائد الجامدة ومن الغيبيات بحيث تصير ديانة عملية لا تهبنا سعادة المستقبل (بعد الموت) وإنما سعادة الحاضر على هذه الأرض » .

وهو يستخلص من موعظة الجبل فى الإنجيل هذه الوصايا الخمس :

١ ــ لا تغضب .
٢ ــ لا تزن .
٣ ــ لا تقسم .
٤ ــ لا تقاوم الشر .
٥ ــ لا تكن عدوًّا لأحد .

هذا هو كل ما يؤمن به من الإنجيل . وما عدا ذلك فزيادات يمكن الاستغناء عنها ، ولكن تولستوى مع ذلك لم يجابه كل الحقائق ، ولو كان قد فعل لاستقر على العلم وحده .

* * *

حقيقة الموت من أعظم الحقائق التى تواجهنا عندما نفكر فى الحياة البشرية .

لماذا نموت ؟ ولماذا نخاف الموت ؟

وقد فكر تولستوى كثيراً فى هذا الموضوع . وله قصة تسمى

« ثلاث توبات » توضح لنا رأيه فى الموت . وقد كتبها فى عام ١٨٥٨ .

والموتات الثلاث هى موت سيدة ثرية متمدنة ، وموت فلاح فقير ساذج ، ثم موت شجرة . وهو يصف تدرج الموت ، منذ بدايته حتى نهايته ، فى هذه الأحياء الثلاثة . وله نظرية فى ذلك ، هى أنا نتألم من الموت ونخشاه لأننا نحيا فى الحضارة على وعى بأن كلا منا فرد منفصل . ويزداد هذا الإحساس إذا كنا متمدنين متعلمين . ولذلك تخشى فى السيدة الموت .

أما الفلاح ، فلأنه ساذج ، يحيا مع الطبيعة ولا يحس فرديته إلا بمقدار صغير ، أى أنه ليس على وعى خاص بحياته . هذا الفلاح يتحمل الموت ويستقبله بأقل الألم وأقل الخوف .

أما الشجرة التى تخلو من الوعى ، وليس لها أى إحساس بفرديتها إذ هى جزء متمم لا ينفصل من الطبيعة ، هذه الشجرة لا تحس بتاتاً بالموت . ونحن حين نقطع غصونها ونكسر ساقها لا نجد فيها ما يدل على ألم أو خوف .

والمغزى الذى يستخرجه تولستوى من هذه المقارنة بين الموتات الثلاث ، أنه كلما ازددنا ثقافة وتمدناً ومعرفة ، ازددنا أيضاً وعياً وانفصالا من المجموعة البشرية . ونحن نتألم لهذا الوعى والانفصال وقت الموت . ولكن لو كان وعينا وانفصالنا ضعيفين أو معدومين لكنا مثل الفلاح ، بل مثل الشجرة . لأن موتنا جزئى ، إذ نحن أحياء فى المجتمع أو الطبيعة لأننا لم ننفصل منهما . إذ يكون موتنا بمثابة من تكسر أصبعه أو يده فقط .

إن تولستوى طبعة أخرى لرسو .

إنه يمدح الحياة البدائية ، بل يمدح الطبيعة غير الواعية . ويجد فيها

الفلاح آلام الموت والشفاء من الخوف من العدم .

وهو بالطبع لا يؤمن بالغيبيات التى تلى الموت . ولا يشتهى ، ولا ينتظر أطباق الحلوى بعد الموت ، هذه الأطباق التى يعتقد بعضنا أنها تخفف من ألم الموت وتزيد الخوف منه . مع أن الواقع يثبت غير ذلك .

* * *

إن تولستوى يستحق النقد هنا .

ذلك أنه نظر إلى الموت من حيث إنه مواجهة العدم للإنسان . وإنه نهائى ليست بعده حياة أخرى . .
ولكن عبرة الموت يجب أن تنعكس على الحياة .

إذا ما دامت الحياة تنتهى بالموت انتهاء تاماً ، فيجب لذلك أن نحيا حياتنا بأقصى وأعمق ما نستطيع ، وأن نجعل من هذه الدنيا نعيماً لأبناء البشر . نحن فى سعادة وسلام وعلم وثقافة واستمتاع ، ونعم الخير والعدل ، ونتحمل نحن وحدنا المسئولية فى كل ذلك بدلا من إلقاء المسئولية على قوات غيبية .

ولكن تولستوى لم يكن يرتفع إلى هذا التفكير لأنه لم يكن ثورياً والثورة وحدها ، أى السعى لإيجاد ثورة تغير المجتمع ، هى التى نقلت الاهتمام النفسى والذهنى من التفكير فى الدين إلى التفكير فى الدنيا .

وكراهة تولستوى للثورة يعود إلى إيمانه المطلق بأن الشر يجب ألا يقاوم ، وأن الموقف السلبى من المظالم والشرور جميعها هو الموقف الذى اتخذه بعد ذلك غاندى .

وقد اتخذه غاندى نقلا عن تولستوى .

لم يكن تولستوى يؤمن بالثورة . إذ كان يقنع بالإيمان بالمسيحية ، بالإخاء المسيحى .

ولكننا مع ذلك نظلمه إذا قلنا إنه لم يعمل لتعجيل الثورة. ذلك أنه عمم السخط بين طبقات المثقفين فى روسيا لأنه أبرز مظالم المجتمع والحكومة والكنيسة. وهذا السخط كان الاختمار الذى سبق الانفجار بالثورة.

لم يكن اشتراكياً ، ولم يكن له برنامج ، ولم يكن له كفاح عملى مذهبى سوى تسليم الأرض للفلاحين . وقد حاول هو نفسه أن يفعل ذلك واصطدم بعائلته التى منعته من إنفاذ نيته .

لم يكن تأثيره إرشادياً للثورة ، ولكنه كان إيحائياً .

* * *

ولا نستطيع أن نقول إن غاندى قد أرشد الثورة فى الهند بالتعاليم التى أخذها عن تولستوى . وإنما قصارى ما نقول عنه إنه أوحى بها ولونها بلون الوداعة التى انتهت بالمقاطعة ، مقاطعة الإنجليز المستعمرين .

وكلاهما ، أى تولستوى وغاندى ، يجهل الأساس الوحيد الذى تنبنى عليه المجتمعات وتتغير بتغيره وتتطور بتطوره .

هذا الأساس هو الأساس الاقتصادى .

كان كلاهما « مثالياً » وليس « مادياً » .

كان كلاهما يطلب الأخلاق ثم الإصلاح .

الأخلاق عند كل من تولستوى وغاندى تؤدى إلى الإصلاح .

وهذا هو الخطأ الفادح .

لأن الأخلاق ليست شيئاً سوى الثمرة أو الثمرات ، التى يثمرها النظام الاقتصادى . فإذا كان هذا النظام حسناً عادلا فإن الأخلاق تكون حسنة عادلة .

كان كلاهما يطلب إصلاح الفرد . ثم يؤدى ذلك فى منطقه إلى إصلاح المجتمع .

ولكن العكس هو الذى نؤمن نحن به الآن ، فإننا نقول إننا نحتاج إلى مجتمع عادل لكى يتعلم أفراده بنظامه ، محض نظامه ، ويمارسون العدل فى علاقاتهم الواحد مع الآخر .

موقف غاندى وتولستوى هو الموقف المسيحى . وهو أن على الفرد واجبات إذا أداها صار المجتمع صالحاً .

ولكن هل نجحت المسيحية فى ذلك ؟

إنها لم تنجح . بل انتهت بعد ألفى سنة من تعاليمها باختراع القنابل الذرية الهيدروجينية ، أقوى أسلحة الشر فى تاريخ العالم .

إن أسوأ ما فى تولستوى وغاندى معاً إنهما لم يفهما ، ولم يدرسا التفسير الاقتصادى للتاريخ .

ولكن هل معنى هذا أنهما لم يخدما عصرهما ؟

لا . لأن الواقع أنهما ، كما قلنا ، أوجدا سخطاً أدى إلى اختمار . ثم انتهى الاختمار بالانفجار ، فكانت الثورة الاشتراكية فى روسيا . ثم ثورة الا ستقلال فى الهند .

السخط جعل الناس يفكرون ويغضبون . وانتهى التفكير والغضب إلى الثورة التى شبت بعد وفاة تولستوى بسبع سنوات فى عام ١٩١٧ .

ولكن هذا السخط الذى جعل الناس يفكرون ويبتكرون جعل تولستوى نفسه يبتئس ويشقى . إذ كان هو يسخط ويتآكل ببخاره لأنه لم يكن له برنامج اجتماعى للثورة .

ولذلك أيضاً وجدناه بعد حياة بلغت ٨٢ سنة ينهض من فراشه فى الفجر ويترك بيته وأولاده ويفر إلى حيث لا يعرف . إذ لم يكن له وجهة ولم يكن له قصد .

كان يريد الفرار فقط .

فر من الحياة البائسة إلى الموت . ومات .

وبموته أثبت أن ما كان ينشده من الارتباط العضوى بالمجتمع ، على الطريقة التى رسمها ، لم يعد ممكناً . لأنه لم يعد من الممكن أن ننزل عن وعينا بالنزول عن ذكائنا وثقافتنا ، ونحيا حياة الفلاح أو حياة الشجرة . ولكن هناك ارتباطاً آخر يحسه الرجل المثقف الواعى فى أيامنا ، هو هذه الاشتراكية التى ننشدها . فنحن فى حياتنا ، بل كذلك فى موتنا . أجزاء متممة للمجتمع ، نرقى برقيه . . . فلا نشقى من الحياة ، ولا نخاف من الموت .

ومع كل ما ذكرت عن تولستوى وروسو وغاندى . ومع كل ما نجد فى حياتهم وتعاليمهم من أخطاء . فإننا نهفو إليهم كما نهفو إلى النسيم المنعش ، لما نجد فيهم من إخلاص وسذاجة وحب تفسدها علينا الحضارة . العصرية .



فرويد
وتشريح النفس البشرية

فى النصف الأول من القرن العشرين خطا كثير من العلوم خطوات تقرب الوثبات . فإن انتهاء الطبيعيات بالطاقة الذرية يعد وثبة وإن تكن وثبة جامحة فى الظلام . إذ ما كان أحد ينتظر أن يصل عالمنا إلى هذا الكشف العظيم قبل مئات السنين ، ولذلك فوجئنا بالقنبلة الذرية فكانت شر البدايات التى عممت الذعر .

والتقدم فى الطبيعة والكيمياء والبيولوجية كان منتظراً منذ أكثر من مائة سنة ، لأن لهذه العلوم تاريخاً يعود فى بعضها إلى أكثر من مائتى سنة . ولكن السيكلوجية كانت إلى نهاية القرن الماضى علما مغلقاً أو كالمغلق . ولعل أكبر ما عاق تقدمه ، بل ميلاده ، هو أنه نشأ نشأة زائفة فى حضن الفلسفة التى كانت تنأى عن التجربة وتقتصر على التفكير المجرد .

ثم جاء فرويد فكشف عن النفس قناعاتها بمفتاح جديد هو « العقل الكامن » أو الكامنة .

وفكرة الكامنة هى إحدى الفكرات المحورية أو البذرية . فكرة خصبة ولدت ، وتوالد أولادها ، حتى ظهر من الأولاد ما عاق الأم ، ولكنه فى عقوقه قد أثمر ونفع .

وفى العقد الأول من هذا القرن كان صوت فرويد هامساً خافتاً ، فما هو أن بلغنا العقدين الثانى والثالث حتى صخب . وعلا بل طغى وأحس العالم أنها هنا قوة فكرية توجه الثقافة توجيهاً جديداً لم نكن نعرفه من قبل .

وإذا كان النصف الثانى من القرن التاسع قد حفل بالصراع الفكرى بشأن داروين والتطور ، فإن النصف الأول من القرن العشرين قد حفل بصراع آخر بشأن فرويد والعقل الكامن . وبين الفكرتين شبه كبير ذلك أن نظرية داروين قد أثبتت لنا أن الجسم البشرى هو ثمرة التطور ، وأنه لذلك يخفى كثيراً من الأعضاء الأثرية القديمة التى ورثناها من الأرومة الحيوانية التى نشأنا منها . وكذلك الشأن فى نظرية فرويد . فإنه أثبت أن النفس البشرية قد ورثت وظائف وحشية قديمة ، وأننا نألم ونبتئس لأننا فى صراع لا ينقطع بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التى تمنعنا من ممارستها .

وقد قضيت كثيراً من سنى عمرى فى ضوضاء هذه النظرية وتأثرت بها كما يبدو من مؤلفاتى فإنى أعد منها خمسة أو ستة ألفتها فى هذا الموضوع بالذات ، أو تناولت الموضوعات الاجتماعية والثقافية بالشرح والتعليل السيكلوجيين . فإن كتبى « فن الحياة » و « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » و « التثقيف الذاتى » و « الشخصية الناجحة » هى معالجات

سيكلوجية لهذه الموضات ، وهذا فضلا عن كتابى « أسرار النفس » و « عقلى وعقلك » و « محاولات سيكلوجية » وهى فى صميم السيكلوجية الشعبية .

وقد انتفعت كثيراً بهذا الاتجاه السيكلوجى فى ثقافتى ، ولكنى لم أنتفع به كثيراً فى حياتى اليومية ، لأنى على الرغم من السيكلوجية مازلت أعيش وفق ما نشأت وتدربت عليه أيام طفولتى إلا القليل ، بل القليل جداً الذى استطعت أن أنفضه عن نفسى من أخلاق وعادات ذهنية طفلية . وأنا هنا شاهد على صحة التعاليم الفرويدية وهو أن للسنين الأولى من العمر أكبر الأثر فى التوجيه الأخلاقى .

ولكن جمعى بين فكرة التطور وفكرة العقل الباطن قد أخصب ذهنى وحركنى إلى تفكير أخلاقى جديد . فمن ذلك مثلا أنى تجنبت الخبط الذى يرجم به الكتاب فى موضوعات مختلفة مثل السعادة . فإنى وثبت فوراً وبداهة إلى أن السعادة هى الوجدان ، أى ما يسميه عامة كتابنا « الوعى » ، وأنه بمقدار ما عندنا من وجدان ودراية نكون سعداء . وبمقدار ما يستولى علينا العقل الكامن أو الكامنة نكون تعساء . وهكذا الشأن فى موضوعات أخرى .

وقولى إن فرويد قد هدانى ووجهنى ليس معناه أنى قد سلمت له بلا قيد أو شرط . ولكنه كان البذرة التى أخصبت فى نفسى . وأخصبت أحياناً ضد ما أراده فرويد . وحسبى من ذلك أن أقول إنى أوشك أن أكون « بافلوفيا » هذه الأيام من حيث الإيمان بأن الأفكار البشرية جميعها إنما هى رجوع انعكاسية مكيفة ، أى معدولة ، عن الرجع الأصلى . ولكنى ما زلت فى شك .

وقد كانت رحلتى فى السيكلوجية وانية متعثرة ، بدأت بفرويد ثم

يونج ثم أدلر ، ثم أولئك الأمريكيين التجريبيين ، ثم كرتشمر ثم بافاوف. ولكن فرويد هو الذى فتح لى الكوة وبسط لى الميدان وأكسبنى الحافز .

وفرويد هو بعد ذلك المفكر الأساسى بين السيكلوجيين . فإنه حط على الحقيقة الأولى وهى الكظم العام للشهوة الجنسية وما يؤدى إليه من اضطرابات شخصية . وهو حين يجعل هذه الشهوة حافزاً أولياً للنشاط البشرى لا يعدو الحقيقة فى عالم الحيوان كله . ثم هو حين يعلق مستقبلنا الأخلاقى والمزاجى والعاطفى على السنين الأولى من الطفولة إنما يوضح حقيقة بل أكبر الحقائق فى مبادئ التربية وقيمة العائلة الحاسمة فى التوجيه الاجتماعى الصحيح .

وأخيراً هو الذى جعلنا نعرف أننا نسير فى هذا العالم بقوة العواطف المستترة فى الكامنة أكثر مما نسير بقوة الوجدان اليقظ الذى ندرى به ما نفعل . فنحن نحب ونكره ، ونخاف ونشجع ، ونشمئز ونقبل . بعواطف اندست فى كامنتنا منذ الطفولة ونكاد لا ندرى بها إلا بعد التحليل الشاق .

فقد يحب أحدنا فتاة ويتزوجها على اعتقاد أنه يحبها لأنها جميلة أو وديعة ، أو أن عينيها ساحرتان أو غير ذلك . وهو إنما أحبها لسبب طفلى هو أنها تشبه أمه أيام كانت تحمله على صدرها للرضاع . أو هو قد يكون مدللا نشأ على إحساس الحاجة إلى الأم ، وقد وجد فى هذه الفتاة رعاية الأم لأنها أكبر سناً منه . فهو يستجملها لهذا السبب . أو هو وجد فيها كبرياء وتسلطاً وهو « مازوكى » يحب أن يتألم ، فهو يحبها لأنه يحس فى جانبها أنه ذليل (وأيضاً محمى) . أو قد يكون عكس ذلك . أى أنه سادى يحب إيقاع الأذى والقسوة بغيره . فهو يختارها صامتة منكسرة أو ضئيلة الجسم ، لأن انكسارها وضآلتها يشبعانه ويزيدان إحساسه

بالقوة . أو قد يكون شاذاً ، فهو يحبها لأنها تشبه الصبيان والشبان .

وقد يكره أحدنا بعض الأطعمة ، بل لعله يشمئز من رؤيتها بحيث يكاد يعتقد أن هذا الاشمئزاز « طبيعى » . وهو إنما يردد فى نفسه ظرفاً معيناً سابقاً أو أسلوباً للعيش قد تعلمه فى طفولته .

وقد نجد شخصاً له « إرادة حديدية » لا يتراجع ولا ينحرف عن هدفه مهما اعترضه من صعوبات وكأنه معجزة عجيبة فى التزامه هذا الهدف وفى توفيقه بتحقيقه . وحقيقة أمره أنه لظروف سابقة معينة قد تخيل هذا الهدف وتجسم هذا الخيال الذى ربما يكون قد نشأ أيام الطفولة . ثم صار هذا الخيال يوجهه ، من حيث لا يدرى ، إلى هذا الهدف . ولبعض المجانين مثل هذه الإرادة الحديدية .

والإيحاءات المختلفة ، من أبوينا ومن المجتمع ومما نقرأ ومما نصادف فى شبابنا ، توجهنا وتعين لنا الحسن والقبيح . بحيث نعتقد أننا نحن الذين نعين هذا الحسن وهذا القبيح ، بل قد نتأثر بوحي أحلامنا ونحن نيام ونسلك فى الصباح وفق الرجوع التى أحدثها الحلم . ثم نبرر سلوكنا أو نسوغه بالمنطق .

وكل هذا يدل على أن ما نحسبه منطقاً فى سلوكنا إنما هو رجوع واستجابات لا شأن للمنطق فيها . ثم هو ، أى « فرويد » ، حين يوضح أن كلا منا ، أى « الذات البشرية » مؤلفة من ثلاثة أقانيم : أقنوم الإيد (id) وهو طبيعتنا الحيوانية وغرائزنا البدائية الكامنة ، ثم أقنوم الإيجو وهى شخصيتنا الوجدانية الاجتماعية التى ندرى بها ، ثم أقنوم السوبر إيجو وهو ضميرنا وما نتطلع إليه من شرف وبر وفضيلة — فى كل ذلك لا نستطيع أن نخالف فرويد .

وكذلك عندما يوضح لنا أن ضميرنا إنما يرجع فى الأصل إلى مجموعة

المحظورات التى تعلمناها منذ الطفولة ، نضطر إلى التسليم بقوله :

بل كذلك أيضاً لا نستطيع أن نخالفه حين يقرر أننا فى الطفولة نحس دوافع لذية مبهمة تتفاوت بين القوة والضعف ، من الغرام الصريح إلى الحب الأفلاطونى .

كل هذا قد سلمت به وانتفعت به فى مركباتى الذهنية ، ولكنى اضطررت إلى مخالفته فى أساس نظريته وهو مركب أوديب هذا . ذلك أن فرويد يعتقد أن الطفل يحب أمه حباً جنسياً ويجد لذة جنسية فى الرضاع والتمسح بجسمها . وهو يضطر إلى كظم هذا الحب خوفاً أو حياء من أبيه . وأن هذا الكظم يدور فى دورات مختلفة بعد ذلك فى نفسه وهو يفرج عنه ، بنشاط بدلى كالتسامى ، إلى إيجاد مؤسسات الحضارة أو إلى ألوان أخرى من الثقافة أو قد يمرض منه .

ولم أستطع أن أقنع نفسى بكل هذا ، ولكنى مع ذلك أسلم بالعواطف المركبة فى الطفل نحو الأب وهى حب وكراهة واحترام وعداء . . وهى تعزى فى بعضها إلى مركب أوديب . فإن الطفل يغار على أمه من أبيه غيرة أظنها غير جنسية أو هى إذا كانت جنسية فإن الإحساس الجنسى فيها ضعيف حتى لا يكاد يؤبه به ، أى أن مركب أوديب ليس ميزان النفس البشرية وليس أساس المركبات النفسية فى الشباب .

اختلافى هنا مع فرويد فى الدرجة كما هو فى الموضوع . فأنا أسلم بأن خيال الأم أيام الطفولة يلصق بالطفل سائر حياته حتى ليختار زوجته من طراز أمه . وهو ينظر إلى رئيسه الأعلى ومن دونه من الرؤساء نظرته الطفلية إلى أبيه .

ولكن إذا سلمنا بأن هناك دوافع جنسية بين الطفل وأمه فإننا يجب ألا ننسى ما هو أهم منها ، وأحرى بأن يكون الميزان الذى توزن به

السكينة أو الاضطراب النفسى طوال العمر . ذلك أن تعلق الطفل بأمه والتصاقه بها ، أيام الطفولة ، يجعله يحس نحوها بأنها مركز أمنه وطمأنينته وهى موئله ومكان استغاثته عند الخوف . ومركب أوديب فى هذا المعنى هو مركب الاحتماء من الخوف والخطر أكثر مما هو مركب الاشتهاء الجنسى .

والأم هنا تمثل المجتمع ، فإذا كانت قد أسرفت فى حماية طفلها فإنه ينشأ عاجزاً كارهاً للاقتحام ينشد السلامة مهما كانت وضيعة . . وإذا كانت قد أسرفت فى تقييد حريته فإنه ينشأ خائفاً ضائقاً بالصعوبات والأخطار الخفية . وهو ينشد من يحميه أو ما يحميه فى شخص كالزوجة أو الرئيس ، أو فى عمل مستقر قد يكون قليل الكسب .

ولما كانت حياتنا الاجتماعية الاقتصادية حافلة على الدوام بالأخطار ، غير مطمئنة إلى المستقبل ، يكثر فيها الإفلاس والتعطل وخوف المرض والموت والقلق على الوظيفة أو الأبناء ، وخوف الهزيمة فى الحب أو المباراة الاقتصادية العامة ، فإن القلق الذى يصيبنا من جميع هذه الحالات يتخذ الأسلوب الذى نشأ عليه مع الأم أيام الطفولة .

ولكن إذا كانت علاقة الأم بطفلها أو مركب أوديب ، قائمة على التوسعة للطفل فى مجال الحرية ، بحيث يتعود الجراءة ويقدم ويخترع اختراعاته الصغيرة ، فإنه عندما يكبر يستطيع تحمل الصعوبات ، بل يضحك من الأخطار ولا يخشى عليه من نيوروز أو سيكوز ، أى من مرض عصبى أو عقلى .

ولست أجد فى كل هذا تناقضاً مع بافلوف الذى يرد عاداتنا الذهنية وعقائدنا وأفكارنا إلى تلك الرجوع الانعكاسية الأولى أيام الطفولة ثم ما ينشأ منها من رجوع مكيفة أى معدولة عن أصلها . ويكاد الفرق بين

فرويد وبافلوف يكون سيمائياً أو لغوياً فى اختيار الكلمة وأسلوب التعبير .

ولكنى لست فرويدياً من حيث إيمان فرويد بأن لنا غرائز ثابتة موروثة فى الرغبة فى العدوان أو الموت أو فى هذا الاتجاه الأخلاقى أو نحو ذلك : فقد وصلت بدراساتى الاقتصادية إلى أن التربية وحدها : العائلية ، والاجتماعية ، هى التى تعين لنا عواطفنا من حب وكراهية واستلطاف . أو اشمئزاز وكفر ، أو إيمان وخضوع أو تمرد . وظنى أن هذا هو الفرق الأساسى بين فرويد وبافلوف : الأول يكاد يكون غريزياً مائة فى المائة والثانى يكاد يكون اجتماعياً مائة فى المائة .

وبكلمة أخرى أقول إن المجتمع يفرض لنا أسلوباً للارتزاق ، فيعين لنا بهذا الأسلوب ووسائله العواطف التى تسود نفوسنا من غيرة وتحاسد إلى تعاون وحب ، ومن مباراة تهدف إلى التفوق وتحمل فى غضونها ما يلابسها من إحساسات القلق ، وطينة تجمعنا فى وجهة موحدة نحو خير المجموع . وعواطفنا التى تحرك نشاطنا هى جميعها ثمرة هذا النظام الارتزاقى الذى يرتب لنا معانى الضعة والشرف والخسة والسمو . ولن نستطيع أن نفهم معنى الا نتحار أو الثأر والأمانة ، أو الخيانة الزوجية ، أو قوانين الزواج أو الطلاق ، إلا إذا رجعنا إلى تلك النظم الأصلية التى يرتزق بها الناس من صناعة أو زراعة . ونحو ذلك .

وأنا أعد نفسى ممتازاً على فرويد من هذه الناحية التى أعجب من إهماله لها . وهو إهمال خطير ، لأن سيكلوجية فرويد الغريزية تعد راكدة جامدة إلا من حيث إنها تدعو إلى التفريج كى يقل الكظم . ولكن هذه السيكلوجية الاجتماعية التى تعلل العواطف بنظام المجتمع تعد متحركة ارتقائية لأنها تنشد ترقية المجتمع لإيجاد العواطف البارة السارة . بل إن العلاقات الجنسية نفسها ، على ماتنبنى عليه من أساس طبيعى ، تتكيف بالمجتمع بحيث تكون سوية أو شاذة . لأن الشذوذ الجنسى العدوانى مثلا هو

اجتماعى فى أصله ، أو إذا كان هناك أساس طبيعى له فإن هذا الأساس لا يعلل أكثر من أربعة فى المائة من الاتجاه العدوانى . وكذلك الشأن فى مركز المرأة العاطفى من الرجل ، فإنها كما أثبتت « مارجريت ميد» «ليست على الدوام مطلوبة مغرية مزدانة كما هو الشأن فى مجتمعنا ، إذ هى قد تكون عكس ذلك كله .

وقد يزدان الرجل ويطلب من المرأة أن تغازله وتحاول استرضاءه واجتذابه . ومع أن المدارس « التحليلية » قد تعددت واختلفت أساليبها فإنها جميعها ترجع إلى فرويد ، ولا يكاد يوجد فيها إلا القليل الذى أوجده أدلر بما أسماه « مركب النقص » .

فرويد يعلق النشاط الذهنى والاجتماعى والفنى والدينى إلى « اللبيد» الجنسى الذى نشأ من الكظم السابق أيام الطفولة بحب الأم وكراهة الأب ، أى بمركب أوديب .

وأدلر يعلق هذا النشاط ، أو النشاط الشخصى على الأقل ، بالنقص الكامن الذى نشأ فى الطفولة ثم حرك عواطف تحفز وتوجه سائر العمر .

و « يونج» يعلق هذا النشاط إلى الطاقة الطبيعية ، أى الغرائز الأولى، وأيضاً إلى تراث العقائد والممارسات القديمة وكلمات اللغة والعادات البدائية كالسحر القديم . وهو يرى أن هذا التراث يحيا فى الكامنة من وقت لآخر .

لنفرض أن هناك كاتباً ثائراً نحاول أن نحلل ثورته التى ينشد منها الديمقراطية أو مكافحة الاستبداد . فإن من الواضح أن الناس ليسوا سواء فى فى تحمل المظالم أو فى الرغبة الحارة فى التغيير الاجتماعى، فلماذا اختص هذا الكاتب بهذه الدعوة ؟

فعند فرويد أن مرجع ثورته « مركب أوديب » لأنه كان يكره أباه وخاصة إذا كان هذا الأب قد أساء إليه فى طفولته واستبد به ، وهو حين يكبر يضع الوزير أو الأمير المستبد مكان الأب ويوجه إليه كراهيته وكفاحه .

وعند أدلر أن هذا الكاتب كان أيام طفولته يجد نقصاً فى جسمه ، أو شوهة فى وجهه ، وكان الخجل يحز فيه ويوجهه نحو التمرد على الرؤساء الذين أخذوا مكان المجتمع الذى كان يعيره أو يقف منـــه موقف التعيير أيام طفولته .

وعند يونج أن هذا الكاتب ورث روح البطولة وإحساس العدل من الثقافة البشرية العامة منذ نشأت الحضارات الأولى . فهو يمثل فى كفاحه دعوة دينية ونهضة شعبية كثيراً ما تكررت فى التاريخ البشرى . ومن هنا قيمة الأحلام ، وهى قيمة كبيرة عند فرويد ولكنها أكبر عند يونج ، ولا تكاد تكون لها عبرة كبيرة عند أدلر . وإنما يكبر يونج من قيمة الأحلام لأنها تبرز هذه الثقافات القديمة وقت النوم . فنحن نحلم كما لو كنا نعيش قبل عشرين ألف أو عشرة آلاف سنة ، أى نعيش فى بيئة الوحوش المفترسة والغابات المظلمة والكهوف الصخرية والفزع والفرار مع الاستعانة بما يشبه قواعد السحر القديم والكيمياء المنقرضة .

والحق أن فى الأحلام شيئاً كثيراً من هذا . وليس لنا الحق فى أن نرفض وراثة الأفكار أكثر مما لنا الحق فى أن نرفض وراثة الأعضاء . فإننا فى أيامنا نتزع إلى الإيمان بوراثة العادة ، كما كان يقول لامارك ، التى تعين وظيفة للعضو فى الجسم ، كما نرى فى طول العنق عند الزرافة أو الجمل . إذ أن هذا الطول نتيجة لمد العنق كى يصل كل منهما إلى الأعشاب . وكذلك الشأن فى الأفكار . فإنها بالعادة والتكرار تورث

وتعود كما لوكانت غرائز . وهذا الحلم العام الذى لا يكاد يخلو منه طفل ، وهو السقوط ، برهان على أن خوف السقوط من الشجر ، وهو كارثة كان يجب على كل أسلافنا أن يتقوها بألا يستسلموا للنوم العميق . هذا الحلم التحذيرى يدلنا ببقائه عندنا على أننا نرث الأفكار .

لقد كانت دراسة فرويد عندى بمثابة الخميرة التى تفشت فى ذهنى ، وكانت علة العشرات بل المئات من الرجوع الذهنية . فإنه هو الذى كان يحفزنى ، من حيث أدرى أو لا أدرى ، إلى دراسة المجتمع وكيف يجب أن نتقى الإجرام أونعين أصول التربية أونتقى الحرب أو نفكر فى الشئون الجنسية أو نقدر الثقافة أو نصف الشخصية الحسنة أو نحدد المعنى من الذكاء أو البلادة .

وقد ألفت كتابى « أسرار النفس » فى عام ١٩٢٧ وأنا متأثر بفرويد . ولذلك لا يتجاوز موضوعه « العقل الباطن » أى الكامنة أو العقل الكامن ولكنى عندما ألفت كتابى الآخر « عقلى وعقلك » فى عام ١٩٤٧ كنت قد تجاوزت فرويد إلى غيره من السيكلوجيين ، وإلى شيء من الاستقلال الفكرى الذى لم أكن أجرؤ عليه فى عام ١٩٢٧ .

والعالم المتمدن أسعد حالا وأهنأ فى عيشه بما حظى من التوجيه السيكلوجى الجديد على يد فرويد وتلاميذه . فإن فرويد حرر الأطفال من القسوة والخوف وأبرز القيمة الكبرى للحياة الطفلية الهائلة فى مستقبل العمر أيام الشباب والكهولة ،لأنه أوضح لنا كيف تعيش المركبات وكيف تنشأ الصعوبات التى ربما تؤدى إلى خيبة الشاب أو الفتاة أو إلى انتحار أحدهما بسبب الأخطاء التى تعرضنا لها أيام طفولتيهما ضما من أحد الأبوين . كما أنه أوضح لنا فداحة النتائج التى تنشأ من الكظم الجنسى . وقد عاد كثيرون ممن ذهب وجدانهم واضمحل تعقلهم لتغلب العقل

الكامن عليهم ، عادوا من ظلام الجنون إلى نور العقل بفضل التحليل النفسى .

وإنه لمما يؤلم جميع الذين انتفعوا بعبقرية هذا السيكاوجى العظيم أن يعرفوا أنه لم يستمتع بشيء من الرخاء الذى كان يمكن أن يخفف عنه الشيخوخة. فإنه عقب الحرب الكبرى الأولى خسر جميع ما ادخره من المال بسبب التضخم فى النقد . وفى الحرب الكبرى الثانية طاردته النازية حتى مات فى لندن بعيداً عن بيته ومدينته .

وتراثنا من فرويد هو « التحليل النفسى » وهو لا يمكن أن يموت وقصارى ما سوف يحدث أن تتغير الأسماء والعبارات ، لأن صميم التحليل النفسى هو الانتقال من الفكرة الكامنة المتسلطة بالعاطفة إلى الوجدان ، أى إلى الدراية . وحتى مع اتجاه السيكلوجية فى أيامنا إلى التجربة ، وهو اتجاه عظيم القيمة جداً ، فإن التحليل سيبقى مفتوحاً للنفس البشرية نفهم منه خباياها ونتعمق أسسها .

وقد ولد فرويد من أبوين يهوديين فى عام ١٨٥٦ ومات فى عام ١٩٤٠ منفياً مطارداً من وطنه ڤينا عاصمة النمسا . فإن النازيين الذين استولوا على النمسا طاردوا اليهود ، وكان فرويد على الرغم من إلحاده معدوداً بين اليهود .

وحفلت عواصم أوربا فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٤٠ بالمناقشات الحامية بشأن التحليل النفسى كما حفلت بالانشقاقات والخصومات ، مما دل على أن السيكاوجية الفرويدية كانت ولا تزال فى طور المذاهب . ولا ينقص هذا من فضل فرويد .

ولما نزل فى هذا الطور لم نستقر . ولكن فرويد كان ، كما قلت ، بمثابة الخميرة التى بعثت سلسلة من الأفكار لما تنته حلقاتها ، وهذا هو أكبر فضله فى تربيتى .



إليوت سميث
وأصل الحضارة

حين أتأمل الشخصيات العظيمة التى أثرت فى حياتى تغييراً أو توجيهاً، وأبحث القوة الجذبية التى جذبتنى إليها ، أجد أنها ثلاثة طرز :

فأما الطراز الأول فهو أولئك الذين تتسم حياتهم أو مؤلفاتهم بغلواء حين يحيون أو يفكرون على القمة والذروة . فهم نيتشه فى جنونه المقدس، يحيل حياته إلى مغامرة فلسفية ويدعونا إلى أن ننسلخ من رواسب الخرافات الماضية ونتولى بأنفسنا مصير مستقبلنا . وهم دستوفسكى فى غلواء الحب الغامر للبشر ، والإحساس الدينى الذى تتذبذب به أوتار نفسه . وهم غاندى الذى يكافح إمبراطورية سوداء بكلمات عذبة من الطهر والشرف فيخجل منه العالم ويسلم باستقلال الهند .

وأما الطراز الثانى فهو أولئك الذين أعطونى منهجاً للحياة . فهم

جيته الذى عاش طالباً مدى حياته يزيد وجدانه بالتوسع فى الثقافة والزيادة من الاختبارات ويشتغل بالسياسة والأدب والعلم والفنون . وهم برناردشو يجعل من أدبه كفاحاً للظلم والاستبداد والدناءة والقبح وهم « هـ. ج . ولز » يرفع الصحافة إلى مقام الفاسفة ، فيدرس شئون العالم إلى تدين بشرى جديد كأنه إحساس يغمر قلبه وعقله .

وأما الطراز الثالث فهم أولئك الذين أعطونى المعارف الخصبة أو الأفكار الحوامل . مثل فكرة التطور التى أحدثت لى مركبات ثقافية كأنها العقدة النفسية فى المريض تدأب فى تفرع . ولكن مع التسلل والتستر . ولقد استطاعت هذه الفكرة الداروينية أن تجعل حياتى جميعها استطلاعاً دائماً . وهم فرويد الذى حملنى على دراسة العشرات من الكتب ، وهم « إليوت سيميث» الذى فتح لى من أبواب التاريخ البشرى مالا أزال أنفذ منه إلى ميادين فسيحة من الفهم والعلم .

هؤلاء علمونى . . أكسبونى ، بالحياة الغالية التى عاشوها على القمم إيحاءات كأنها صلوات بالقلب . أو أعطونى منهجاً أعيش به عيش الخدمة والكرامة والشرف مع الرضى بالتضحية . أو غرسوا فى ذهنى غراساً صالحة تنمو وتتفرع كأنها نبت ينير خلايا المخ ويسطح أنواراً تقشع ظلام الجهل .

* * *

التاريخ هو فى صميمه درس العوامل الجغرافية والاقتصادية التى أثرت وغيرت المجتمعات البشرية التى عاشت فى بقعة معينة من الأرض . وتاريخ مصر هو جغرافيتها ، هو زراعتها التى أوجدت مجتمعاً مستقراً يثبت فى مكانه ثبات الزراعة فى الأرض .

وليس لأمة تاريخ مالم يكن هناك تفاعلات اقتصادية بين الأفراد بحيث تؤدى هذه التفاعلات إلى إيجاد مؤسسات مثل المحاكم والمعابد ونحوهما . أما مادام ليس هناك مؤسسات ، كما هى الحال بين الأسكيماويين حول القطب الشمالى ، فإنه لن يكون هناك تاريخ .

ثم مادام كل فرد يكسب لنفسه وأولاده فقط ، ولا يستطيع أن يريد ، فإن المجتمع لن يستطيع أن يدخر مقداراً من المال لإيجاد هذه المؤسسات الاجتماعية التى يحتاج إليها . ولذلك ليس عند الأسكيماويين حكومة لأنه ليس هناك فائض من كسب الأفراد يكفى لإيجاد مجموعة المؤسسات التى نسميها حكومة . ولذلك أيضاً ليس لهم تاريخ .

وقد كان الإنسان قديماً يعيش فى الغابات كما لا تزال تعيش القردة العليا . وكان يجمع طعامه ولا ينتجه . والفرق عظيم جداً بين الجمع وبين الإنتاج .

فإن البشر ينتجون طعامهم هذه الأيام ، ولذلك بلغوا ٢٣٠٠ مليون . فى حين أنهم كانوا لا يزيدون على أربعة أو خمسة ملايين حين كانوا يجمعون الطعام من الغابات جمعاً ، أى يلتقطون الثمرة البرية أو يقتلعون الجذور الطرية أو يصيدون الوحش أو يأكلون الحشرات والزواحف وسائر الحيوان .

ولكن ليس الفرق بين الجمع والإنتاج كمياً فقط . لأن هذا الفرق هو فى صميمه فاصل بين الإنسان البدائى الساذج الجوال ، وبين الإنسان المتمدن المستقر الذى عرف الزراعة أى عرف الإنتاج .

وهنا قيمة إليوت سميث .

* * *

كان إليوت سميث أستاذاً للتشريح فى كلية (مدرسة) قصر العينى

قبل نحو أربعين أو خمسين سنة . وقد تعلم على يديه كثير من أطبائنا مثل على إبراهيم وجورجى صبحي وأحمد شفيق . وكانت له هواية إلى جنب الحرفة ، وكان ، كما هو المألوف ، يهتم بهوايته وبحرفته . بل انتهى فى أخريات حياته إلى احتراف الهواية .

وهذه الهواية هى تاريخ مصر .

ولكنه لم يكن يدرس تاريخ مصر كى يتعرف على تاريخ مصر ، وإنما كان يهدف إلى درس تاريخ الحضارة البشرية فى العالم كله عن طريق الدرس لأصول الحضارة المصرية التى انتشرت حول ضفتى النيل فى العشرة آلاف سنة الأخيرة .

واستطاع أن يثبت أن مصر هى أصل الحضارة للعالم كله ، وليس ذلك لأن أسلافنا كانوا أذكى من سائر البشر ، وإنما لأن جغرافية بمصر قد تفاعلت مع الإنسان المصرى بما لم يتفاعل أى وسط آخر مع الإنسان ، فكانت النتيجة ظهور الحضارة فى مصر .

وبهذه النظرية نقل إليوت سميث دراسة الحضارة من تعدد الأصل إلى وحدته ، كما سبق أن فعل داروين حين رد الأحياء إلى أصل واحد وأصبحنا نتتبع تطور الحضارة وتنقلها من قطر إلى آخر عن سبيل الكلمات والآثار والعادات الفرعونية .

ولهذا الرأى الجديد مدرسة يعد تلاميذها بالألوف ، ولا تقل المؤلفات فى تأييد هذا الرأى عن ثلثمائة كتاب فى لغات مختلفة .

وقد كانت مؤلفات إليوت سميث عندى انبلاجاً ذهنياً قادنى إلى دراسات مختلفة ، كما أثمر مركبات ثقافية ما زلت فى اشتباكتها . وقد ألفت كتابى : « مصر أصل الحضارة » وأنا فى غبطة الفرح بهذا الفهم الجديد للدنيا والبشر .

ولا يعدل هذه الغبطة عندى سوى اهتدائى إلى نظرية « التفسير الاقتصادى للتاريخ » . وهى النظرية التى جعلت التاريخ علماً يقاس ويوزن ، وليس روايات لذيذة أو مصادفات غير معللة . والحق أن نظرية الأصل المصرى للتاريخ البشرى كله تستند فى أساسها إلى العوامل الاقتصادية ، وأهمها هذا النيل الذى يروى الوادى فينتج الزرع .

* * *

وبؤرة البحث عند إليوت سميث تنحصر فى أن الإنسان البدائى الذى كان يجمع الطعام جمعاً من الغابات رأى فى مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يعم الوادى فى مواعيد معينة كل عام ، حتى إذا انحسر انطلقت النباتات وكست الأرض بالخضرة النضرة التى كان يجد فيها طعاماً كما كان يجد فيها صيداً لوفرة الحياة الحيوانية . ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيوية ، وهو أصل النبات ، فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك ، ويضبط الرى . وهذه هى الهندسة الأولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظمون الرى وفلكيون يعينون الأوقات الزراعية . وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول . وهنا تنشأ الحكومة التى يرأسها مهندس أو فلكى تنسب إليه صفات الألوهية لأنه يدرى مالا يدريه غيره من الهندسة أو الفلك ، وهو يعيش كأنه ملك بل ملك يطاع . فإذا مات أصبح قبره معبداً ، كما نرى فى عصرنا كيف يميز العامة الممتازين بأضرحة يتبركون بها ويزورونها .

. . وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تحترم من الجيران ، وإلى أوصاف تعين للزراعة ، وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول ، وإلى صناع يصنعون الآلات الزراعية . وكل هؤلاء لا يزرعون . فنشأ من ذلك الحكومة والتجارة والفنون . وهذه هى الحضارة .

ثم يموت العظماء فتنشأ الأضرحة العظيمة التى تستحيل إلى معابد . وهذا هو الدين البدائى .

ويجب ألا ننسى هنا أن كلمات القمح والبر والحنطة هى جميعاً فرعونية وذلك لأن أسلافنا هم الذين زرعوها لأول مرة فى التاريخ وعينوا أسماءها ، ولعله كانت هناك فروق بين بذور القمح أدت إلى تعدد هذه الأسماء .

والزراعة هى الأساس الأول الذى نبتت عليه الحضارة الأولى . أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر ، بلا ثقافة غير المعارف القليلة الخاصة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور .

فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلا من التجوال ، وبسطت الآفاق لثقافة الفنون والعلوم ونظام الحكم .

* * *

وإلى هذا نفهم كيف نشأت الحضارة الأولى فى مصر . وبقى علينا أن نعرف كيف خرجت من مصر إلى سائر العالم .

وقد استطاع إليوت سميث أن يكشف لنا عن أسرار النفس البشرية ، أو بالأحرى يهتدى إليها عن طريق البحث فى انتقال الحضارة المصرية الأولى إلى أقطار العالم المختلفة .

فهو يوضح لنا أن غاية الإنسان البدائى أن يطيل عمره وأن يتقى الموت . ونحن نعرف من التحنيط أن المصرى القديم كان يعتقد فى سذاجة أنه مادامت الجثة قد حنطت واستحالت إلى موميا متقنة فإن الحياة ستمتد بها فى العالم الآخر .

وكان التحنيط يحتاج إلى بعض المواد النباتية والمعدنية من الأقطار البعيدة ، وهذه المواد كانت تقف الفساد فى الجثة كما تكسبها عطراً حسناً.

وتنقل المصريون فى جلب هذه المواد ونقلوا معهم حضارتهم إلى أقطار بعيدة، وخاصة عندما نعرف أن بعض البعثات المصرية كان ينقطع بها الطريق فلا تعود بل تبقى فى قطر ناء بين شعب غريب بدائى لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصرية، وتعيش هناك إلى الأبد.

ومن هنا نعرف لماذا وجد تمثال الرب آمون فى روسيا بالقرب من جبال أورال. ولماذا عبد رب الشمس فى مكسيكا، كما عبد فى مصر، من حيث إحاطته بالثعبان. ولماذا حنطت الجثة فى أمريكا على الطريقة المصرية. ولماذا وجدت الأهرام فى إيطاليا والسودان. ولماذا توجد فى اللغة الفنلندية كلمات فرعونية. ولماذا ترجع أبجدية الخطوط فى جميع اللغات إلى الهيروغيليفية المصرية. ولماذا يعمم التقويم المصرى (الشهور والأيام) أوربا بل العالم كله إلى الآن، ولماذا بنيت المعابد وذكرت الأساطير على الطريقة المصرية. بل لماذا يوصف إمبراطور اليابان بوصف الفراعنة، ابن الشمس، أى ابن رع. وأخيراً لماذا تكون الحبوب الأولى التى يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصرية الاسم كما سبق أن ذكرتها وهى: قمح، بر، حنطة.

وفى مصر يسمى الأقباط أسقفهم أحياناً باسم إيسذوروس. وفى أوربا تسمى المرأة باسم إيسيدورا. ومعنى الأسمين «عبد إيسيس» أى الربة إيسيس. وكهنة مصر الآن هم ورثة الكهنة أيام الفراعنة. وكانت شارة الكاهن المصرى القديم ذلك الثعبان الذى كان يحيط بالرب رع. وهو — أى الثعبان — لا يزال شارة الأسقف القبطى. وهو يرى على رأس عصاه إلى الآن.

ولكن لما كان الكاهن المصرى طبيباً وساحراً أيضاً، فإن الثعبان هو الآن شارة الطبيب فى أوربا. وفى اللغة العربية لا يزال معنى الطب هو: السحر: الكهانة.

بل هناك إشارات صغيرة تدل على تسلسل الثقافة الفرعونية من منف وطيبة إلى باريس ولندن . اعتبر قول الأوربيين « يوم أحمر أو ليلة حمراء » للدلالة على أوقات السرور والقصف والاحتفال . ونحن نقول فى مصر « ليلة حمراء » فى هذه المعانى أيضاً . والأصل هو عادة أسلافنا فى كتابة أيام الأعياد بمداد أحمر . والعيد قصف ولهو .

هذه الثقافة المصرية القديمة التى تفشت فى العالم القديم لم يكن من الضرورى أن يكون القائمون بها مصريين ، لأن البعثة المصرية التى وصلت إلى الصين مثلا حيث تركت التمساح وجعلت تمثاله شعاراً للصينيين ليست هى التى ذهبت إلى أمريكا وأوجدت التحنيط وعبادة الشمس التى تحيط بها هالة الثعبان . لأن هذه البعثة التى ذهبت إلى أمريكا كانت فى الأغلب هندية أو صينية أو جاوية قد تأثر أفرادها بالثقافة المصرية .

وأذكر البقرة هاتور المصرية ، وأذكر تقديس البقرة فى الهند ، وأذكر أيضاً ملوك إفريقيا المتوحشين ، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانوا يتولون العرش رمزاً إلى الاستيلاء على العالم .

بل أذكر أيضاً دعوى الحق الإلهى لملوك أوربا ، وهى الدعوى التى كافحتها الشعوب الديمقراطية . ولا ننس دعوى الألوهية عند الفراعنة . بل هناك ما يرجح أن معظم الأسر المالكة فى العالم يرجع إلى أصل فرعونى ، وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر لجلب المواد والطيوب للتحنيط كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون ، فإذا لم ترجع البعثة صار هذا الفرد ملكاً على البقعة التى كانت تحتلها بعثته حتى إذا استقر العرش الجديد خرجت بعثة أخرى . إلخ .

ولم يكن التحنيط الباعث الوحيد لهجرة المصريين إلى الأقطار

البعيدة . فإن الإنسان المصرى الذى كان يرغب فى بقاء حياته بالتحنيط ، كان أيضاً يحب أن يطول عمره على الأرض قبل التحنيط . فكان يجمع الودع ويحمله للمشابهة العظيمة بين الودعة وبين عضو التناسل فى المرأة ، ذلك أنه كان يعتقد أن هذا العضو هو أصل الحياة ، ومن هنا هذا الاشتقاق العربى وهو « الحياة من الحيا » أى عضو التناسل فى الأنثى . ثم صار أيضاً يجلب الذهب ويصوغه ودعاً بجماله . ثم نقل ميزة الودعة إلى الذهب . فصار الذهب يطلب لذاته لأنه يطيل الحياة مثل الودعة ، بل صار الذهب إكسير الحياة .

الذهب حجر الفلاسفة ، الذهب أصل النقود ، كل هذا من الاعتقاد المصرى القديم بأنه ، أى الذهب ، يطيل العمر .

ثم أذكر بعد ذلك الكيمياء التى نشأت من الرغبة فى إحالة المعادن إلى ذهب . بل ماذا أقول : إن كلمة كيمياء نفسها مصرية وهى خيمى أو كيمى ، أى مصر ، أى الأرض السوداء . والكيمياء هى«العلم المصرى» .

وبعد الذهب صار الإنسان المصرى يجلب الأحجار الكريمة اعتقاداً بأنها تطيل العمر . وما زلنا فى مصر نشفى العين المليلة بتعليق حجر عليها أو فوقها . . . وما زلنا ننشد البخت بضرب الودع ، وكلمة « المرجان » تنطوى على معنى الحياة الطويلة فى الفارسية .

وإطالة أعمارنا على الأرض بالذهب والأحجار الكريمة ، وإطالة أعمارنا بعد الموت بالتحنيط ، كلتاهما دفعت الإنسان المصرى إلى الهجرة إلى الأقطار النائية . فتفشت الحضارة المصرية بهذه الهجرة فى أنحاء العالم وأخرجت الإنسان من التوحش وجمع الطعام من الغابات إلى التمدن وإنتاج الطعام بالزراعة . والزراعة أوجدت الحكومة ، والدين ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، والبناء ، والقانون .

* * *

نشأ الدين البدائى فى مصر وكانت غايته استبقاء الحياة بعد الموت بتحنيط الجثة . فإذا كان الميت عظيماً صار إلهاً بعد موته . فلما عرفت الزراعة أصبح للدين مهمة أخرى هى إخصاب الأرض وإنتاج المحاصيل. وإلى عصر الإسكندر بقى هذا التفكير البدائى حتى إن كهنة مصر قد حالوا الإسكندر إلى إله . وقرن آمون لا يزال منقوشاً على النقد الإغريقى الباقى من أيامه . ولا يزال الكهنة يباركون على الزراعة فى أوربا إلى الآن .

ومن الممارسات الدينية الباقية نعرف الكثير من نشأة الدين المصرى القديم . فإن البخور كان يطلق على تمثال الميت كى يكسبه رطوبة وعرقاً كأن الحياة قد عادت إليه .

وقد نشأت الفنون من هذه الثقافة الدينية القديمة . فإن التمثال صنع أولا كى تلجأ إليه الروح إذا كان الجسم قد فسد. والرسوم التى تروى لنا حياة الميت قد احتاجت إلى الرسامين والمعبد ، وهو فى الأصل الضريح الذى احتاج أيضاً إلى البنائين والنحاتين .

وجميع الفنون الحديثة ترجع إلى بؤرة مفردة هى الضريح المصرى ومركباته السيكلوجية . ورسم الميزان للعالم الآخر مألوف لا يخلو منه معبد ، وهو يعين الجنة التى تحوى الشجر والثمر للبررة ، كما يعين جهنم التى تحوى النار للفجرة . ومن هنا ظهر معنى العدل .

بل إن تحنيط الميت هو الأصل فى توبلة الطعام . لأن الملح والطيب والأفاويه التى كان يحتاج إليها الميت صارت تستعمل فى الطبخ كى يطيب الطعام ، ومن هنا كان القول العامى المألوف فى أيامنا أن الطعام « محنط » أى متوبل .

ودراسة التاريخ المصرى القديم هى دراسة البدايات ، بداية الزراعة وبداية الصناعة ، وبداية الحضارة والثقافة . وإن الغيبيات التى سادت

الأذهان البشرية نحو ستة آلاف سنة لتتكشف واضحة الأسس مفهومة البناء عندما ندرس الضريح المصرى .

* * *

لم أكن أنبعث فى دراساتى للفراعنة بباعث وطنى ، ولم يكن لفتوحات تحتمس ورمسيس وأمثالهما ذلك الوقع الذى يحسه أولئك الذين يستخدمون التاريخ لإشعال الوطنية . بل كذلك لم تكن دراسة التاريخ عندى محض السرد القصصى والتراجم والحروب. وظنى أنه لو لم يكن وراء دراسة الفراعة هذه النظرية القائلة بانتشار الثقافة من بؤرة الضريح المصرى لما كان التفانى يزيد على المطالعة العابرة .

ولكن هذه النظرية كانت تحوى العديد من المركبات الثقافية التى جذبتنى وحملتنى على التفطن لأصول الحضارة ، ومن هنا إغراؤها القوى لا ستمرار الدراسة . وإحساسى نحو الفراعنة هو لذلك بشرى وليس وطنياً .

ولقد قرأت « فجر الضمير » للمؤرخ الأمريكى «بريستد» . وهو يشيد بالأخلاق العالية للمصريين قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة . بل إنه يقارن بين الأخلاق التى دعا إليها موسى فى الوصايا العشر وبين الأخلاق المصرية فيقول بأفضلية هذه على تلك ، ويضرب المثل بأن موسى قد حرم الشهادة بالزور فقط ولكن المصريين قد حرموا الكذب إطلاقا . والكذب بالطبع يشمل شهادة الزور ، ولكن ليس العكس كذلك .

ولكنى ، أنا المصرى ، أحس أنى أبعد ما أكون عن هذا الإحساس.

يجب أن ندرس التاريخ بالروح البشرى ، وأن نذكر أنه إذا كانت مصر قد أنشأت الحضارة الأولى فإن الفضل فى ذلك يعود إلى النيل الذى قهر المصرى على أن يتعلم الزراعة لمواظبة فيضانه ولانبساط

الوادى ، وليس لذكاء فذ فى أسلافنا .

* * *

والحضارة عالمية قد أسهم كل شعب بنصيب فيها . وإذا كان للمصريين فضل الاختراع للكتابة فإن للهنود فضل الاختراع للأرقام ، وما كان يمكن أن تكون هناك نهضة علمية لولا هذه الأرقام الهندية . ولولا الإغريق لما انفصلت الحقائق الفنية والعلمية عن « المعارف » الدينية أى ما كان يمكن للمنطق أن يتغلب على العقيدة . ولولا الإمبراطورية الرومانية ثم الإمبراطورية العربية ، لما تعارفت الشعوب هذا التعارف الذى انتهى بوجداننا البشرى الحاضر .

ومع أنى قد قرأت فى هذه النظرية وارتباطها نحو خمسين أو ستين كتاباً فإنى ما زلت فى اشتباكاتها أترصد مكتشفاتها الجديدة فى جميع أنحاء العالم . وأحس بأواصر الأجيال الماضية التى تربطنا نحن المصريين بكافة البشرية .



هاڤلوك إليس
والزواج الانفصالى

مات « هاڤلوك إليس » قبل الحرب الكبرى الثانية ، ووصفته إحدى المجلات الأوربية الكبرى حينئذ بأنه كان أعظم رجل متمدن فى أوربا .

وأنا أحاول هنا أن أروى للقارئ تاريخ حياته ، ووصف مؤلفاته ، كى يستخرج العبرة من هذا الوصف . لأنى أعتقد أن عندنا فى مصر من يخالف هذا الرأى ، فيحكم بأن هاڤلوك لم يكن متمدناً وإنما كان متوحشاً . وأنه لم يعش الحياة الصالحة . وإنما هو أفسد حياته بل حياة زوجته . والواقع أن شيئاً من هذا الفساد قد وقع لزوجته . . . ولكن ليس هناك ما يدل على أن أسلوب الحياة الذى اتخذه هو الذى أدى إلى هذا الفساد ، وإن كان هناك شبهات تبعث على هذا الظن .

وإذا أنت سألت عن هاڤلوك إليس فى إحدى المكتبات بالقاهرة عرفت

أنه معروف مشهور بمؤلفاته الجنسية . وهى نحوستة مجلدات ضخمة هى أدب وعلم وفلسفة ، نحس وأنت تقرأها أن كاتبها رجل فن وعلم وفلسفة. وهو يكتب بأسلوب مكين قد أحكمت عباراته كما نقيت من الزوائد . وهو كثير الإشارة إلى أقوال الفلاسفة من الإغريق القدماء إلى الأمريكيين المحدثين . وهو لا يرتجل الفكرة ولا يلتزم مذهباً . وإنما يزن الآراء ويعرض لها فى إسهاب شرحاً ونقداً . ثم ينتهى إلى الخلاصة التى يستقر عليها ويدعو إليها .

وهذه المجلدات الستة عن الشئون الجنسية هى أروع ما كتب عن هذا الموضوع فى لغة من لغات العالم . وإنك لتعجب حين تقرأ له فصلا واحداً عن البغاء . إذ تدهش لما يروى لك عن تاريخه فى الأمم القديمة والحديثة ، وعن قيمته ومكانته من الحضارات المتعاقبة ، وعن أقوال القديسين المسيحيين الذين أيدوه ، وعن القوانين العصرية التى تناولته . وحبذا لو قرأ هذا الفصل ودرسه أولئك الذين عملوا لإلغاء البغاء فى مصر ، ولكن نكبة الساسة فى مصر أنهم لا يدرسون الكتب الأوربية المنيرة .

كان هافلوك إليس من الرواد الذين شقوا الطريق وبسطوا الآفاق لهذه الدراسات قبل فرويد . فإن نشاطه العلمى كان فى ذروته فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٩٢٠ . وهناك فرق أصيل بينه وبين فرويد ، ذلك أن هافلوك إليس كان يبحث الشئون الجنسية من حيث إنها نشاط سليم يتصل بالأصحاء من الناس ، ويبحث أثرها فى حياة الشبان العزب والمتزوجين وفى الحياة العائلية وتربية الأطفال ومكانها فى الحضارة ، أما فرويد فيبحث النشاط الجنسى من ناحية المرض لا الصحة .

وقد كان فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٨٩١ يرأس تحرير سلسلة من الكتب العلمية التى تتناول المجتمع بالبحث العلمى وتضم مجلدات تبحث

الإجرام وأخرى تبحث المشكلة اليهودية وأخرى تبحث الوراثة . . . إلخ .

كما أن له مؤلفات يكفى ذكر أسمائها كى نعرف أن موضوعاتها أدبية ، مثل رقص الحياة . وروح أوربا .

وهو فى كل ما يكتب يمتاز بالنضج والإحاطة والنزاهة ، إذ هو لا ينتسب إلى حزب أو طائفة ولا يدافع عن مذهب . وإذا نحن اتهمناه بالغرض أو بشىء منه فإن هذا الاتهام ينحصر فى إكباره من شأن النظرية العلمية ، وهو هنا يعذر فإنه عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وامتد نشاطه إلى الثلث الأول من القرن العشرين . وكان الإيمان بالحضارة والرقى يعتمد أكبر الاعتماد على العلم . فإن الأمم الأوربية طوال القرن التاسع عشر كانت على اقتناع بأنها قد اهتدت عن طريق العلم إلى مفتاح يفتح لها جميع الأبواب المغلقة ، وأن سعادة الإنسان وقوته وصحته وثقافته كلها ترتبط بالعلم .

وقد نشأ طبيباً . ولكنه لم يمارس الطب لأنه قنع بالتأليف وقضى معظم حياته وهو فى فقر لم يشك منه . ولكن المتأمل لسيرة حياته التى كتبها بنفسه يحس الضيق الذى كان يعانيه . فإنه كان يسكن مسكناً وضيعاً ويطبخ طعامه بنفسه ، إذ لم يكن يكسب من قلمه ما يكفى لتناول طعامه فى المطاعم أو يمكنه من استخدام خادم . ولكنه فى السنوات الأخيرة من عمره تمكن من الاتصال بإحدى الصحف الأمريكية التى كانت تستكتبه مقالا أسبوعيًّا عن شئون أوربا ، وقد صرح بأن الأجر الذى كان يتناوله عن هذه المقالات كان يزيد أضعافاً على ما كان يحصل عليه من التأليف والصحافة معاً فى بريطانيا .

ومع أنه قد مات منذ أكثر من عشر سنوات فإن مؤلفاته ماتزال تقرأ وتجد الأنصار والخصوم لحيويتها ، حتى لقد قرأت هذا الأسبوع

إعلاناً عن كتاب جديد ينشر له فى الولايات المتحدة ويقول الناشر إنه لم يسبق نشره .

وفى كل ما ذكرنا لانجد شيئاً فذًّا أو شاذًّا فى حياة هافلوك إليس ، إذ هو مؤلف أو صحفى مثل سائر المؤلفين أو الصحفيين . وإن كان يمتاز عنهم بأنه جاد مثابر نزيه مفكر متبصر ، وليست هذه الصفات عامة بين من يؤلفون أو يكتبون للصحف .

ولكن ميزته الأصلية أنه اتخذ أسلوباً معيناً فى عيشه لم يتخذه غيره . وهذا الأسلوب هو الذى حفزنا إلى كتابة هذا الفصل كى ننبه القارئ المصرى إليه . ولسنا نشك أنه سوف يجد التقبيح والازدراء من تسعين فى المائة من القراء كما قد يجد الاستحسان من عدد قليل . ولكن ليس هذا غرضنا . إنما نحن نقصد إلى أن نوضح العوامل التى أدت إلى اتخاذ هذا الأسلوب وتقديره فى الحضارة القائمة .

فقد عرف هافلوك إليس فتاة إنجليزية تدعى الآنسة « إديث ليز » قبل نحو ستين سنة . وكانت هذه الفتاة من أولئك الفتيات الجديدات اللاتى كن يسمين فى إنجلترا باسم المرأة الجديدة ، وقد كن منذ عام ١٨٩٠ أو قبل ذلك يدعون دعوات جريئة مثل التعليم الجامعى للمرأة ، ومثل حقوق الانتخاب للمجالس النيابية ، والمساواة الاقتصادية بين الجنسين ، وتولى الوظائف العامة .

وكانت إديث ليز أكثر إيماناً بهذه الحقوق وأكثر إسرافاً فى الدعوة إليها ، وكانت سكرتيرة لأحد الأندية النسوية فى لندن . وكانت تقول إن البيت على حالته الحاضرة — أى حوالى سنة ١٨٩٠ — هو طاحون تسخر فيه الزوجة فتعمل طول نهارها وبعض ليلها وهى مجهدة لا يتوافر لها الوقت للراحة أو الاستمتاع الاجتماعى أو الثقافى . وأن

هذا الكد المستمر فى البيت ، من حيث الاشتغال بالطبخ والغسل والكنس ، يمكن الا ستغناء عنه بأن نتناول وجباتنا فى المطاعم .

وأنه يجب على كل امرأة أن تؤدى عملا اجتماعياً بأن تحترف حرفة تكسب منها كما يفعل الرجال . لأن الاحتراف هو تربية دائمة لها ، وهو يكسبها المال الذى يرفعها إلى كرامة اقتصادية يحسبها الزوج فيحترمها . وهى حين تحترف تحس مسئوليات كبيرة لم تكن لتحس بها لو أنها كانت قد قنعت بالنشاط المنزلى فى الطبخ والغسل والكنس ، وأن الحرفة هى الوسيلة لتكوين الشخصية ، ولن تكون للمرأة شخصية إذا هى قنعت بأعمال البيت .

والحق أن هذه الآراء كانت عامة حوالى سنة ١٨٩٠ ، ولكنها كانت آراء فى الهواء ، إذ لم تكن تجد ما يدعمها من النظام الاقتصادى السائد وقتئذ ، لأن الرجال كانوا يستوعبون الأعمال ، ولم يكن هناك غير عدد صغير جداً من النساء اللائى كن يعملن ويكسبن .

ويجب أن أقول إن هذه الحال قد تغيرت فى أيامنا هذه ، فإن نحو عشرين مليون امرأة يحترفن الحرف التجارية والصناعية والمكتبية كالرجل سواء فى الولايات المتحدة . وليس هناك شك فى أنهن قد كسبن الشخصية التى أشارت إليها إديث ليز . ولم تتم هذه الحال الجديدة لدعوة نسوية ، وإنما لأن هناك قوات اقتصادية جديدة دعت إليها هى ، قبل كل شىء ، هاتان الحربان الكبريتان لأنهما لما جندتا للجيوش والمصانع الكثير من الرجال أكرهتا المجتمع الأمريكى ، بل المجتمعات الأوربية أيضاً على استخدام المرأة فى المصانع والمتاجر والمكاتب .

ومما زاد هذا الا تجاه قوة أن واجبات المنزل قد اختصرت بالمخترعات الجديدة . فإن الطبخ بالضغط وبالكهرباء قد جعل تهيئة الطعام عملا

لا يتجاوز دقائق بينما كان يستغرق الساعات قبل خمسين أو ستين سنة . والكنس الكهربائى ، وكذلك الغسل الكهربائى ، قد أصبحا فى ميسور أفقر العائلات الأمريكية والأوربية الغربية. بل إن التليفون قد أخذ مكان الخادم .

وإذا كانت المرأة الأوربية أو الأمريكية كانت تجد فى المنزل ما يشغلها طوال نهارها قبل خمسين سنة ، فهى لا تجد فيه ما يشغلها نصف ساعة فى اليوم كله. فهى من ناحية تجد أن الأعمال العامة خارج البيت تناديها وتقدم لها المرتب الحسن فى المتاجر والمصانع والمكاتب ، ومن ناحية أخرى لم تعد تجد فى البيت ما يغريها بالبقاء فيه أو يضطرها إليه .

فهذا الذى أبصرت به إديث ليز قبل نحو ستين سنة قد تحقق فى أيامنا . ولا بد أنها قد بصرت بهذه القوات الاقتصادية التى كانت تعمل فى الخفاء ، وتسرى فى المجتمع ، وتنقل المرأة من المنزل إلى المصنع . وهى فى دعوتها إنما كانت تعبر عن هذه القوات أو عن بوادرها الخفية كما كانت تحسها وتتوقع نموها .

كانت إديث ليز قبل نحو خمسين سنة تحلم بما تم فى أيامنا من الوعود الاقتصادية التى حققت استقلال المرأة وكونت شخصيتها .

وكانت آراؤها هذه تغرى أمثال هافلوك إليس بحبها والتعلق بها . وقد تعارفا ، وبقيا مدة غير قصيرة وهما يتعاونان فى الدراسة ويتبادلان فى عطف هذه الآراء التجديدية التقدمية . . . وكانت لندن تختمر فى تلك السنين بآراء تقدمية عديدة .

وتم زواجهما ، وهنا تبدأ قصتنا أو عبرة القصة التى قصدنا إليها حين قلنا إنه ، أى هافلوك إليس ، قد اتخذ أسلوباً معيناً من العيش .

ذلك أننا نفهم من الزواج أنه ارتباط مادى كما هو ارتباط روحى بحيث يعيش الزوجان فى منزل مشترك وإن لم يناما فى سرير مشترك ، يشتركان فى الراحة والنوم ، ويأكلان من مائدة واحدة ، ولهما اقتصاديات منزلية مشتركة .

ولكن هذين الزوجين كانا على نية الابتداع لبدعة جديدة هى الزواج الانفصالى ! فإنهما بعد انقضاء شهر العسل عاد كل منهما إلى منزله ، يتلاقيان بمواعيد ، ويشتركان فى سريرهما بمواعيد ، كأنهما عاشقان وليسا زوجين . ولم يكن هذا الا نفصال يرجع إلى ضعف أو نقص فى حبهما وإنما كان عن مبدأ . وهو أن كلا من الزوجين يجب أن يستقل بحياته وحرفته وسكناه وبرنامج يومه لا يفسد عليه ذلك زوجه الآخر .

أو بكلمة أخرى : نحن نرى فى الزواج حياة شاملة تحتوى على جميع التفاصيل الأخرى ، فى حين كان هذان الزوجان يريان فيه أنه بعض الحياة فقط ، وأنه يجب أن يترك الزوج حرًّا لا يتدخل الزواج فى تفاصيل حياته ولا يشملها إذ هو ، أى الزوج ، إنسان أولا له طموحه وآماله وحرفته وهوايته وملذاته . وهو يحب أن يجد الحرية كى يمارسها جميعها فى خلوة وفى استقلال لا يفسدهما عليه الزوج الآخر .

وقد عاشا على هذا الأسلوب أكثر من عشرين سنة يتزاوران كأنهما ضيفان . وفى كل عام يقصدان إلى قرية فى الريف أو إلى أية بلدة على الشاطئ للتشتية أو الاصطياف فيقضيان نحو شهر معاً فى بيت واحد . حتى إذا عادا إلى لندن استقل كل منهما بمنزله دون الآخر .

ومما يذكر أن غريباً لقيهما فى القطار فلم يعرف من حديثهما

أنهما زوجان ، إذ كان كل منهما يداعب الآخر ويلاطفه أو يناغيه وظن أنهما عاشقان .

على أن هذه السعادة « الزوجية » لم تدم . فإن الزوجة أحست هوى جنسياً استسلمت له . فأحبت شاباً ، ثم عادت فأحست انحرافاً فأحبت فتاة . وفسدت العلاقة الزوجية بسبب ذلك . ولكنهما لم يعمدا إلى الطلاق .

وهنا يعلل بعض القراء هذا الشذوذ الذى وقعت فيه الزوجة بأنه كان النتيجة المحتومة لهذا الانفصال .

واعتقادى أن هذا الا ستنتاج قد يكون صادقاً . فإن الرجل حين يعيش منفرداً معتزلاً للمرأة ، وكذلك المرأة حين تعيش منفردة معتزلة للرجل ، كلاهما يعود عرضة للشذوذ الجنسى . وخاصة إذا كانت هناك زعزعة نفسية سابقة كما نستطيع أن نستنتج مما حدث لهذه الزوجة المسكينة التى احتاجت — فى فترة من حياتها — أن تلجأ إلى مستشفى الأمراض العقلية .

الواقع أننا نجد فى أخلاق هذه الزوجة رعونة وتقلباً لا يدلان على عقل رصين متزن . فإنها احترفت الزراعة سنوات ، ثم احترفت النشر ، أى نشر الكتب ، وأخفقت فى العملين . وكان من رعونتها هذه أن طلبت الانفصال الشرعى ، وهو فى إنجلترا دون الطلاق .

فهل نعلل إخفاق حياتها بهذا الزواج الا نفصالى ، أم نعزوه إلى أنها كانت من الأصل مزعزعة النفس لم تستطع الاستقرار ؟

أظن أن التعليلين مسئولان .

والذى نحسه حين نقرأ سيرة هافلوك إليس بقلمه أن حبه لها قد بقى إلى يوم وفاتها . بل هو يقص علينا إحساساته الأليمة حين رآها

تجرى وراء هذا الشاب الجميل ، ثم بعد ذلك حين زاغت بها الشهوة إلى إحدى الفتيات ، ثم هو يصف لنا فى مرارة كيف حمل جسمانها إلى المرمدة حيث أحرق وكيف حمل اللحاد الرماد وذره فى الجهات الأربع فى الحديقة .

* * *

والآن نقف كى نتأمل هذا الزى الجديد للزواج أو هذا الأسلوب الجديد للعيش . . . وهما زى وأسلوب يتفشيان هذه السنين الأخيرة فى الولايات المتحدة بدرجة خطيرة ، وفى أوربا الغربية ولكن ليس إلى المدى الذى بلغا ، بين الأمريكيين .

وكان « ليون بلوم » الرئيس الاشتراكى السابق للوزارة الفرنسية يدعو إليه ، ويقول إنه خير الأساليب للعيش ، وعلينا هنا أن نفترض الافتراضات والاحتمالات . فنقول إن خروج المرأة من البيت إلى المجتمع فى النصف الأول من هذا القرن كان منتظراً . وقد زادته الحربان الأخيرتان تأكيداً لحاجات المصانع إلى عمل المرأة بدلا من الرجل الذى ذهب إلى ميادين القتال . ثم إن المساواة فى التعليم قد جعلت للمرأة كفايات حرفية أهلتها للعمل والكسب . وأخيراً إحالة المنزل من مؤسسة تقوم على العمل اليدوى إلى أخرى تقوم على العمل الكهربائى ، قد جعل بقاء المرأة فى المنزل طوال النهار شيئاً غير معقول .

وجميع هذه الاعتبارات قد بلغت ذروتها فى الولايات المتحدة لأن المنزل هناك « مكهرب » والمرأة تكسب كالرجل . وكلمة « الشخصية » قد اكتسبت لهذا السبب معناها العصرى للمرأة فى أمريكا . والمرأة التى تنشد تكوين شخصيتها إنما تنشدها بالتعلم والاحتراف والاختلاط بالمجتمع ، وليس بالانزواء فى البيت وهى لذلك حين تتزوج تصر

على استبقاء حرفتها ونشاطها الاجتماعى . وتزيد هذا الإصرار قوة بأن تطلب بقاءها منفصلة فى منزلها وقت الزواج كما كانت أيام عزوبتها .

وحجتها أن حياتها الخاصة وما جمعت حولها من أصدقاء وكتب واهتمامات يجب ألا تنقطع بالزواج . ولكن اشتراكها فى منزل زوج يؤكلها ثلاث وجبات كل يوم ، ويقحم أصدقاءه على حياتها الخاصة ، وربما يعترض على أصدقائها هى ، هذا الاشتراك لا يترك لشخصيتها المجال الحيوى كى تنمو وترقى . لذلك يجب أن تعيش حياتها الخاصة بعد الزواج كما يعيش هو حياته الخاصة . ووسيلة ذلك أن يعيش كل منهما فى منزله الذى كان يعيش فيه أيام العزوبة .

وكثير من الأزواج الذين اضطلعوا بمهام واشتغلوا باهتمامات تزيد على مألوف العامة يحسون الوجاهة فى هذا المنطق . وليست المرأة وحدها هى التى تطلب فى أمريكا وأوربا الغربية هذا الزواج الانفصالى . وإنما هو للرجل أيضاً حين يرصد نفسه لأهداف اجتماعية يحس أن الروابط الزوجية تقيده وتحول بينه وبين بذل ماله وعمره لتحقيقها . فإن رجل العلم أو رجل الأدب ، أو رجل الفن أو السياسة ، كل هؤلاء يجدون أن الحياة العائلية بمألوفها وارتباطاتها لا تتفق وما يضطلعون به من مسئوليات جسيمة سواء أكانت لأشخاصهم أم لوطنهم .

* * *

عاش هافلوك إليس نحو عشرين سنة أخرى بعد وفاة زوجته . وقد شغفت به بعد ذلك سيدة فرنسية وعاشت معه إلى يوم وفاته منذ نحو عشر سنوات .

وقد قرأت معظم ما ألفه هافلوك إليس . وإنى أحس أنه كان على فهم عميق للحضارة الأوربية ، وأعنى بهذا الفهم العميق أنه كان يصل حاضر

أوربا بعصر نهضتها فيما بين عام ١٤٥٠ وعام ١٥٥٠ حين شرعت تغير عقائدها وأسلوب معيشتها .

وما زالت أوربا حتى هذا العام فى سبيل هذه النهضة ، تغير عقائدها وأسلوب معيشتها . وهذا الزواج الانفصالى هو بعض تجاربها التى سوف تثبت الأيام أنها حسنة أو سيئة .

والفرق بين أوربا وأقطار الشرق أن الأولى دائبة فى التجارب ، تجدد وسائل عيشها وتغير فى مؤسساتها ، أما الشرق فيضفى على مؤسساته قداسة تجمد تطوره وتجعل أبناءه يعيشون فى عام ١٩٥١ كما لو كانوا يعيشون فى عام ٩٥١ أى قبل ألف سنة .

وقد رأى الأوربيون أن العائلة كانت فى الماضى تربى الشخصية ، أما الآن فإنها تعوق هذه التربية . لأن الإنسان الجديد قد زاد إحساسه الاجتماعى عما كان عليه قبل مائة سنة . فهو فى المجتمع بذهنه وجسمه فى عصرنا أكثر مما كان من قبل . لأنه يشترك فى السياسة والتطور الاجتماعى . ويشتبك فى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية .

والعائلة بتأليفها الماضى هى إلى حد ما ضد المجتمع . كما نرى مثلا فى ذلك الرجل العائلى المسرف فى التزام بيته ، من مكتبه إلى بيته ، يعيش مع أولاده ، ولا يفكر فى غير سعادتهم ، فهو « فاضل » من الناحية العائلية ، ولكن اهتماماته الاجتماعية فى هذه الحال ضعيفة .

ونحن نلاحظ أنه عندما يقوى المجتمع ، ويتولى الحكم ، وتكون له الكلمة العليا كما هى الحال فى الأمم الديمقراطية ، بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، تضعف الروابط العائلية . إذ يكثر الطلاق . وأيضاً يتجه الرجل كما تتجه المرأة إلى نشاط آخر خارج البيت . . ولكن ليس شك أن الرجل الاجتماعى ، وكذلك المرأة الاجتماعية ، كلاهما

يمتاز بشخصية أكبر وأنضج من الرجل العائلى أو المرأة العائلية . وخاصة إذا كان هذا المجتمع حراً لاتدوسه حكومة مستبدة ولا تطغى عليه قوات بوليسية تحرمه تطوره وارتقاءه .

إننا نحس حنيناً نحو العائلة وما فيها من استمتاعات الطفولة بين الأبوين ، ولكننا ننسى أن الأم فى السنين الأولى من العمر هى كل شىء ، وأن قيمة الأب ضئيلة . والزواج الانفصالى ، كما هو شائع فى أيامنا فى الأمم الغربية ، يجعل التصاق الأم بأطفالها مكفولا كما كان الشأن قبلا .

وبالطبع ، هذا الزواج الانفصالى لا يمكن أن ينشأ ، إلا إذا كان الزوجان يريان ضرورته لرقيهما . أما إذا لم يجدا هذه الضرورة فإنهما يعيشان معاً . وأغلب الظن أن هذا الزواج الانفصالى لا يزيد فى الوقت الحاضر على واحد فى المائة ، أو أكثر أو أقل قليلا ، فى الأمم الغربية التى أشرنا إليها . وذلك لأن هذا الإنسان الجديد الذى ارتقت شخصيته وزاد إحساسه الاجتماعى على إحساسه العائلى لا يمكن أن يزيد على واحد فى المائة من السكان فى أرقى أمة .

وعبارة « الإحساس الاجتماعى » تعنى الاهتمامات المتعددة بالعلم والفلسفة ، والفن ، والاختراع ، والاكتشاف . لأن هذه الاهتمامات تحتاج إلى إرصاد القوى كلها لإتمامها فى خلوة واستقلال . وقد كان هافلوك إليس من هذه الناحية إنساناً جديداً . ولكننا لا نستطيع أن نبت برأى فى هذه الجدة ، هل هى للسعادة والخير أم للتعاسة والشر ؟



چوركى
والأديب المكافح

فى القرن التاسع عشر ، وخاصة فى نصفه الثانى ، كانت روسيا التى هى الآن جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتى ، تتنازعها حركتان أدبيتان ، أو الأحرى اجتماعيتان ، إزاء ضغط الثقافة الأوربية التى كانت تزحف إليها من أوربا الغربية والتى فتح لها بطرس الأكبر صدره حين أراد أن ينقل روسيا من الشرق إلى الغرب .

وكان ، إزاء هذا الضغط الزاحف ، تنشط حركة أخرى يقول دعاتها إن الروس صقالبة لا شأن لهم بالأوربيين . وإن لهؤلاء الصقالبة روحاً وتقاليد وعادات يجب على الروس أن يحافظوا عليها وألا يتلوثوا بالحضارة الأوربية الفاسدة .

وكان تولستوى ودستوفسكى داعيتى هذه الحركة الصقلبية ، كما كان

تورجنيف وجوركى داعيتى الاتجاه الأوربى . وكان التصادم الفكرى بينهما كثيراً .

وهذا التصادم قد رأينا مثله فى مصر . ففى الخمسين أو الستين سنة الماضية رأينا دعاة السفور للمرأة ، مثل قاسم أمين ، يتجهون نحو الغرب ويقولون بالأخذ بالحضارة العصرية . كما رأينا دعاة الحجاب ، مثل طلعت حرب ، يقولون بأننا شرقيون لنا تقاليدنا التى تفضل التقاليد الغربية . بل كذلك حدث فى اليابان والصين والهند . ولكن فى جميع هذه المصادمات يتغلب دعاة الحضارة الغربية لسبب مفرد بسيط ، هو أنها ليست غربية . إذ أن وصفها الحقيقى أنها عصرية جديدة ، فى حين أن ما يسمى حضارة شرقية ، أو صقلبية ، إنما هو تلك العادات والتقاليد القديمة التى أثبت الاختبار أنها ليست كفئاً للوقوف فى وجه الحضارة العصرية .

الحضارة العصرية الصناعية منتجة ، توفر المال والقوة للغربيين . أما الحضارة الشرقية الزراعية القديمة فلم تكن منتجة إلى حد الوفرة ، ولذلك يحيا أبناؤها فى فقر وضعف يغرى المستعمرين الأوربيين باستغلالهم واستعمار بلادهم .

بقيت هذه المعركة بين دعاة القديم الشرقى والجديد الغربى مستعرة إلى عام ١٨٨١ ، حين قتل القيصر إسكندر الثانى . وعندئذ سادت البلاد رجعية سوداء كان من نتائجها أو وسائلها منع المؤلفات اليسارية الأوربية من الدخول فى روسيا واضطهاد المؤلفين الاشتراكيين . وفى مثل هذه الظروف تجرى الدعايات المضطهدة فى الظلام ، وتختمر بأشد وأعنف مما كانت تختمر لو كانت مكشوفة . إذ عندئذ يدخلها العنف الذى لا يتفق والحركات المكشوفة .

ولذلك فشت الجمعيات السرية التى يحدثنا عنها جوركى ، الذى كان

وقتئذ شاباً حوالى العشرين ، يجوس خلال الأفكار ، والناس ويحيا شريداً يتنقل من حرفة إلى حرفة لسد الرمق .

وفى هذا الضغط أو الكبت ، عقب مقتل القيصر ، تبخر الصراع بين دعاة الصقلبية ، أى الشرق ، وبين دعاة الحضارة الغربية . وأخذ مكانه صراع أعمق وأبعد بين الرأسمالية والاشتراكية .

وكانت الرأسمالية بازغة فى روسيا . قد جلبها المستعمرون ، أى المستغلون ، من الغربيين الذى ألفوا الشركات لإيجاد المصانع . واشترك معهم الأثرياء من الروس ، الذين آمنوا بالحضارة الغربية والذين وجدوا الظروف ملائمة لاستغلال الثروة المادية ، والبشرية الروسية ، وذلك عقب إلغاء النظام الإقطاعى السابق وتحرير عبيد الأرض ، أى العمال ، الذين لم يكن يسمح لهم من قبل بترك الأرض إلا بإذن المالكين .

واتحد الاشتراكيون والأحرار فى التوجيه السياسى للشعب الروسى ، وحدثت ثورة عام ١٩٠٥ التى كانت فى صميمها مظاهرةً أحالها طغيان الحكومة القيصرية إلى مجزرة قتل فيها أكثر من خمسمائة ، غير آلاف الجرحى . وكان يقودها إلى الفشل الكاهن « جابون » الذى دعا المتظاهرين إلى ألا يحملوا السلاح ضد « الأب الصغير » أى القيصر .

ولكن الأب الصغير كان يحمل السلاح هو وآلاف من جنوده . استعملوا جميعهم السلاح لقتل الجماهير المتظاهرة والتى لم تكن تطلب من القيصر أكثر من حكومة دستورية عادلة توفر الخبز والعمل لأبناء الشعب الجائعين .

وهنا نجد مكسيم جوركى لأول مرة يشترك فى هذه الثورة ، ويتعلم منها . وكان أول ما تعلم من دروسها أن عرش القيصرية لن يهدمه

الأحرار ، وأن أحزاب الأحرار لم يعد لها مكان فى القرن العشرين . وأن الاشتراكية وحدها تتحمل عبء التغيير المنتظر بإيجاد جمهورية بدلا من القيصرية .

وقصته العظيمة « الأم » التى ظهرت فى عام ١٩٠٧ هى التعليق على ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . كما هى إرشاد وإلهام للشباب الثائرين فى روسيا حتى لا يقنطوا من النجاح المنشود فى ثورات أخرى .

* * *

ذكرت الصراع بين دعاة الصقلبية الشرقيين ، وبين دعاة الحضارة العصرية الغربيين . . .

هذا الصراع تغير ، أو تطور ، إلى حركتين جديدتين فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩١٤ . فإن الاتجاه الاشتراكى بين المفكرين والأدباء حملهم على الانحياز للإنسانية ضد الوطنية .

« نحن للعالم ولسنا لروسيا . لسنا وطنيين . نحن عالميون » .

هذا كان موقفهم . وكان منطقهم هنا أنه ما دمنا نعمل للاشتراكية فيجب ألا تكون هناك فوارق فى الوطن ، وإنما نهدف إلى خدمة الإنسان مهما يكن ، سواء أكان روسياً أم مصرياً أم صينياً أم إنجليزياً. فى حين كان خصومهم يقولون روسيا أولا . نحن وطنيون .

وجاءت الحرب فى عام ١٩١٤ ، فتغلب بالطبع الوطنيون . ولكن لفترة قصيرة ، واستحالت الوطنية إلى نزعة حربية عنيفة ضد ألمانيا . وهذا ما كان ينتظر .

ولكن جوركى بقى على ما كان عليه داعية للسلم حتى مدة الحرب . داعية للإنسان ، الإنسان العالمى .

* * *

عاش جوركى أربعين سنة وهو يكافح فى صدره مرض الدرن ، أى السل . وأمضى معظم حياته فى جنوب إيطاليا ابتغاء الشمس والدفء ولم يستسلم لهذا المرض ، ولم ينم له . بل كان يعمل ، ويخرج فى الهواء ويمرن عضلاته ، لأنه كان يحس أنه فى سباق مع الموت . وعاش ٦٨ سنة كان يمكن بالطبع أن تكون ٨٠ أو ٩٠ لولا هذا المرض ، ولولا ذلك الكفاح الآخر الذى كافح به الفقر والحرمان فى صباه كله وبعض شبابه .

لقد نشأ جوركى فى أسرة من الفقراء الذين جر عليهم الفقر طائفة غير صغيرة من الكوارث . فرأى بعينيه الإجرام فى أعضاء أسرته . كما أن الجوع قد حمله على أن يحترف أوضع الحرف . بل كان احترافه لهذه الحرف أقرب إلى التشريد منه إلى الاحتراف . فعمل خبازاً ، وبائعاً جوالا ، وجامعاً للخرق، وبستانياً ، وبائعاً للأيقونات المقدسة. بل إنه احتاج أن يصيد العصافير كى يأكلها ويشبع بها جوعه .

وليس غريباً علينا أن نفهم أن قصته « من الأعماق السفلى » تحتوى أشخاصاً يشهدون أو يطابقون أولئك الذين خالطهم فى صباه وشبابه . بل ليس غريباً علينا أن نفهم أنه قد ألهم الواقعية فى الأدب لأن مارآه من واقع حياة هؤلاء الناس قد ألهمه هذا المذهب .

إنما الغريب أن نعرف أنه تغلب على هذا الوسط السيئ فلم يقتد بأحد من أولئك المجرمين ، بل رفع نفسه فوق وسطه . فلم يتعود شرب الخمور ، ولم يقنع بالبطالة والتشرد ، ولم يقع فى جريمة أو فساد آخر . وإنما خرج من هذا الظلام ينشد النور فى درس المذاهب واقتناء الكتب والتفكير فى الإنسانية ، وترقية شخصية . تغلب على وسطه ، وتغلب على هذا الميكروب الذى كان يأكل رئتيه مدة أربعين سنة .

ونحن هنا إزاء رجل نجح فى الأدب وأخرج الكتب العظيمة.

ولكنه قبل أن يخرج كتاباً من مطبعة أخرج لنا حياته التى نجح فى تأليفها . وحياته هذه هى خير مؤلفاته . وهى التى تلهمنا أكثر من أى كتاب من كتبه .

ولكن ما هو الحافز فى هذه الحياة ؟

* * *

أعتقد أن أعظم نعمة أنعمت بها الأقدار على مكسيم جوركى أنه منذ بداية شبابه ، كما يخبرنا هو عن ذلك فى ترجمة حياته ، عرف المذهب الاشتراكى . وكان هذا المذهب جديراً بأن يلصق بقلبه أكثر مما يلصق بقلب أى إنسان آخر ، لأنه رأى بعينيه ، واختبر بأسلوب عيشه فى الفقر والتشريد والصعلكة ، أكثر مما كان يرى ويختبر غيره . فكان للاشتراكية الوقع العميق فى نفسه .

وهذا الوقع هو الذى نقله من الواقعية إلى الرومانسية .

لقد اكتسب الواقعية مما رأى واختبر . فصار ينقل إلينا فى أدبه صوراً من الفقر والحرمان ، وما يجران على الفقير المحروم من الانهيار النفسى والتفكك الأخلاقى فى بعض الأحيان . كما يبعثان فى أحيان أخرى قوة جديدة للتغلب والسيطرة على الوسط .

ولكن هذه الواقعية التى اكتسبها من واقع حياته الأولى استحالت عنده بالمذهب الاشتراكى إلى رومانسية علمية . فصار يرسم لنا الأهداف الجديدة للارتقاء الشخصى ، وأيضاً للارتقاء الشعبى عن طريق العلم الذى يخدم الإنسان ويسخر الطبيعة ويغيرها لتوفير الرفاهية للجميع .

إن بعض الناس يؤمنون بالاشتراكية لأنها عدل ورحمة . ولكن المفكر العلمى يؤمن بها لأنها علم تتفتح لنا أبوابه فى النظام الاشتراكى

فقط حين تنطلق الطاقات بجميع أبناء الشعب للإنتاج والاختراع والاكتشاف والثراء والرخاء .

وهذه هي اشتراكية جوركي . وهذا الأمل في تحقيقها هو الذي يجعله يحلم بالسعادة ، ويعود رومانسياً يرسم لنا ما سوف نستمتع به بعد تعميم هذا النظام للعالم .

* * *

قبل ثورة عام ١٩٠٥ الفاشلة كان جوركي يؤلف القصص القصيرة التي يعالج فيها أعماق الفقر والبؤس ويبعث فيها بخمائر الثورة . وكان موقفه الاجتماعي من مؤلفاته الفنية هو أن الفقر ساحق عام ، ولكننا نستطيع أن نلغيه بالعلم والاشتراكية . وأن الفقير زري في معظم أحواله لأنه يحيا في وسط سيئ يحمله على الإجرام والرذيلة ، بل يحمله على أن يفر من الجوع والبؤس بالخمر .

ثم رأى بعد الثورة الفاشلة في عام ١٩٠٥ أن هناك يأساً عاماً ، وأن السلطات الروسية قد استأنفت قسوتها ووحشيتها ، فألّف « الأم » .

ومغزى هذه القصة أن الثائرين يجب ألا ييأسوا . وهو يشرح ، كأنه الدليل المرشد ، كيف يجب أن يستعد المتآمرون ، وكيف يعرفون الخائن فيتقونه ، وكيف يحذرون الجواسيس . وقصة « الأم » من هذه الجهة ليست قصة فقط ، إذ هي قبل كل شيء دليل يوضح أساليب الثورة . وهذا هو المغزى العام منها .

ولكن هناك مغزى آخر يمكن أن نسميه المغزى الشخصي من الثورة . هو أن العامل الفقير ، عندما ييأس يفسد . ويهرب من الحياة بالخمر والرذيلة . ولكنه عندما ينهض ، ويحس أنه رجل له آمال في الارتقاء العام وتغيير النظم الاستبدادية ، عند ذلك يعمد إلى نفسه هو فيرقى

شخصيته ويغير أخلاقه . فيشرع فى التعلم ، أو ما نسميه « التثقيف الذاتى » فما هو أن تمضى عليه سنوات قليلة حتى يكون قد انتقل من العامية المهنية إلى الثقافة العالية . وخاصة إذا كانت هذه الثورة التى ينشدها هى النظام الاشتراكى .

* * *

كما أن هناك « عقداً » أو « مركبات » فى الأخلاق تعين لنا سلوكنا وأهدافنا . كذلك نحن فى دراستنا وثقافتنا نجد أننا فى أسر هذه العقد أو المركبات الذهنية النفسية التى تكسبنا الحوافز وتبعث فينا النشاط للدرس ، وتفتأ تملأنا اهتمامات تكاد تكون هموماً مؤلمة ، لا نرتاح إلا بعد أن نحلها وننفرج من أسرها .

وهنا كلمة عن شخصى أنا من حيث اختباراتى للشهوة الثقافية والإرشاد للعلوم والآداب . فقد وجدت عقدتين فى حياتى كان لهما كل الأثر فى توجيه أبحاثى ودراساتى .

العقدة الأولى هى نظرية التطور التى طرأت علىّ ولما أبلغ السابعة عشرة من عمرى .

وكانت مجلة المقتطف تسميها نظرية النشوء والارتقاء . وما هو أن عثرت عليها حتى وجدتنى فى عاصفة من التفكير والتردد .

هذه النظرية ، هذه العقدة ، جعلتنى أبحث الأديان ، وأدرس البيولوجية ، أى علم الحياة ، وأقتنى عشرات بل مئات الكتب عن الإنسان البدائى ونشأة الحضارات ، وأسلوب الحياة عند المتوحشين فى أيامنا ، وثورة العلم على التقاليد فى النهضة الأوربية ، ومعانى التطور الاجتماعى ، وتاريخ الأرض ، وأصل الكون ، ومستقبل الإنسان ، وأخيراً السيكلوجية ، أى علم النفس .

كل هذه الدراسات كانت ، ولا تزال عندى ، تعود إلى العقدة الأولى التى غرستها فى نفسى نظرية التطور . والمهم الذى يجب أن أذكره أنى مازلت فى أسر هذه العقدة . وأن استطلاعاتى الجديدة للثقافة تعود إلى جذورها الأولى حين كانت سنى ١٧ سنة . وهى الأصل فى اتجاهاتى العلمية .

والعقدة الثانية هى الاشتراكية التى طرأت على وأنا حوالى العشرين فى لندن حين التحقت عضواً بالجمعية الفابية ؛ فقد حفزنى هذا المذهب على بحوث واستطلاعات اجتماعية جديدة .

ما هى علة الفقر ؟
ما هو معنى الاستعمار ؟
هل البغاء عند محترفاته استهتار أم فقر ؟
هل الجرائم تعود إلى ما يسميه بعضنا « سوء الأخلاق » أم إلى الفقر ؟

بل كذلك المرض ، يعود إلى عادات سيئة أم إلى قلة التغذية ؟
إلخ . . إلخ . . ودفعتنى هذه البحوث إلى أن أدرس العناصر التى يتألف منها الغذاء الحسن ، بل إلى أن أدرس طرق الزراعة العلمية والتقليدية ، وإلى أن أدرس مشكلة السكان . . إلخ .

ولكن نظرية التطور ، ثم نظرية الاشتراكية ، زيادة على ماحملتنى كل منهما على الدرس ، حملتنى أيضاً على الآمال البعيدة ، بل أحياناً المسرفة ، فى مستقبل الإنسان القريب بالاشتراكية .

والذى أفهمه من حياة جوركى أنه انبعث بدراسة العلم والاشتراكية إلى الآمال الإنسانية العظيمة التى نصفها بأنها رومانسية .
إننا فى حديثنا العام نفرض على الدوام أن المذهب الاشتراكى مذهب

إنسانى بار ، وأن الاشتراكيين يضحون ولا يكسبون منه شيئاً . ولكنى باختباراتى أستطيع أن أكذب هذا الفرض ، وأنا أقول إنى اكتسبت من إيمانى بالاشتراكية هذه الدراسات والاستطلاعات التى لاتنقطع ، والتى أحس منها أن ذهنى حىّ ، وأنه فى شباب ، ينمو وينضج ، وأنى أتفاءل فى حياتى بالمستقبل ، ولا أخشاه ، ولا أتشاءم .

* * *

ولكننا نجد فى جوركى شذوذاً ، أو فذاذة عجيبة فيما يختص بتأثير الوسط على الأخلاق . فإن الوسط الذى نشأ فيه ، وسط الأسرة من الجدود والأعمام والأخوال ، هذا الوسط كان هاوية من الخسة والشراسة والاجرام والرذيلة . وأيما مفكر قد تشبع من الثقافة الاجتماعية ، يقرأ عن هؤلاء الأشخاص الذين نشأ بينهم جوركى ، لا يتمالك الإحساس بأنه ، أى هذا الوسط ، كان جديراً بأن يخلق منه أعظم مجرم فى العالم .

ولكن جوركى كذب هذا المنطق ونشأ أعظم إنسان فى العالم .

وصحيح أنه كانت له فى هذا الوسط جدة بارة أحبته وخدمته . ولكن هل يكفى للنشأة الحميدة أن يكون هناك شخص واحد فاضل بين عشرة من الأرزال ؟

وإذا لم يكن الشأن كذلك فإلام تعزو هذه النشأة العصامية التى اتسمت بها حياة جوركى ؟

كان جوركى عصامياً ، ولكن ليس فى جمع المال كما هو المعنى العرفى ، وإنما فى تأليف شخصيته وتربية إنسانيته . وليس عندنا من تفسير لهذه الظاهرة الفذة سوى أنه تقلب كثيراً فى الحرف والمهن ، ورأى وقارن بين الناس . واستعمل ذكاءه فى الفهم والمقارنة وعرف فى غضون ذلك المذهب الاشتراكى . واستطاع أن يصوغ حياته وفق خياله . وخياله

هو الاشتراكية .

وهنا العبرة لكل شاب ، بل لكل فتاة . فإنى لا أكاد أتخيل وسطاً عائلياً أسوأ من الوسط الذى نشأ فيه جوركى . ومع ذلك تغلب على هذا الوسط كما تغلب على مرضه ، السل ، مدة أربعين سنة . وامتلأ آمالا فى المستقبل الاشتراكى .

* * *

ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر تأثير الوسط أو قيمته فى جوركى ، أو بالأحرى فى مؤلفاته . ونحتاج هنا إلى المقارنة بين تولستوى وجوركى .

فإن الذى لاشك فيه أن نشأة المؤلف ، ووسطه العائلى والاجتماعى ، يؤثران على موقفه من الدنيا وآرائه وفلسفته واتجاهاته . بل كذلك على أسلوب تعبيره وموضوع تفكيره . ولا يكاد أحدنا يتغير ويخالف هذه القاعدة إلا إذا عاش فى وسط اجتماعى آخر يزعزع عاداته وعقائده السابقة .

فقد نشأ تولستوى على القمة ، فى أسرة يرأسها كونت .

ونشأ جوركى فى الهوة ، فى أسرة أكثر أفرادها من المجرمين .

ولذلك نجد أن تولستوى ، على الرغم من يقظته وبغضه لمعيشة النبلاء ممن يضارعونه فى الجاه والثراء ، لا يزال يحس إحساسهم . فهو لا يؤمن إيماناً كاملا بالاشتراكية ، بل لا يؤمن بالحضارة الصناعية . وكل ما نجد فيه أنه إقطاعى رحيم بالفقراء الذين قلما يكتب عنهم ، لأن أبطاله جميعهم تقريباً من النبلاء أمثاله أو من المتيسرين . والرحمة المسيحية عنده علاج المساوئ الاجتماعية . وهو يؤمن بالدين ، وإن كان يجحد الكنيسة .

العدل عند تولستوى هو الرحمة . وألا نقاوم الشر مقاومة إيجابية .

ولكن العدل عند جوركى هو الحق . ومذهبه مكافحة الشر بالسيف والنار .

وأبطال جوركى هم أولئك الذين أسقطهم الفقر على الحضيض . ولكنه يعمل على رفعهم بإيقاظهم وإيجاد الوعى الإنسانى فى قلوبهم .

تولستوى لم يدع إلى الثورة ، ولكنه أوجد السخط الذى هيأ لها .

وجوركى دعا إلى الثورة. واشترك بنفسه فى ثورةعام ١٩٠٥ . ثم عاد إلى روسيا بعد ثورة عام ١٩١٧ ، وخدمها فى أمانة وحماسة إلى أن مات فى عام ١٩٣٦ .

* * *

إن التصادم عند جوركى ، بين واقع حياته وأمانى نفسه ، هو الذى ينعكس أثره فى أدبه . حين يصف لنا رجال قصصه فيصف الإنسان بأنه بليد وخسيس وجاهل وراكد وأرعن ومغفل .

هذه هى الصفات التى رآها فى الناس ، فى الواقع .

ولكنه يعود فيشب من الواقعية إلى الرومانسية ، فيقول لنا على لسان إبليس فى قصة « الأعماق السفلى » :

« الإنسان . ما أعظمها كلمة »

أجل إن الإنسان سينتصر على بلادته وركوده .

واقعية جوركى جاءت من حياته السفلى مع أخواله وأعمامه .

رومانسيته جاءت من آماله ، بعد أن عرف الثائرين الاشتراكيين ، وبعد أن اشترك معهم بعقله وجهده .

كان يعيش فى الظلام الرأسمالى ويؤمل فى النور الاشتراكى .
كان يعيش فى الرق والفاقة ، ويفكر فى الحرية والرفاهية .

إن القبح فى الواقع ، جعله ، فى الخيال ، يفكر فى الجمال .

وكان اليأس يبعث فيه الأمل .

كان يحلم وهو فى عبودية المجتمع الروسى أيام القيصر فى سيادة الإنسان على الطبيعة وعلى الآلة ، وفى قدرة الإنسان ، بعقله ، على محو الخرافات .

* * *

يجب ألا نتعب من تكرار القول بأن الأديب يجب أن يستنبط من شخصه « نفساً أدبية » قبل أن يؤلف فى الأدب .

يجب أن يكون رجلا مكافحاً وإنساناً اشتراكياً .

فأين هى عوامل الرجولة والإنسانية فى جوركى ؟

لقد صار يتيما وهو فى السنة السابعة من عمره .

وصار عاملا يكسب عيشه وهو فى التاسعة من عمره .

وبعد ثلاث سنوات من العمل المتواصل ، وفى حيرة وتنقل من عمل إلى آخر ، وفق اختياره ؟

هذه الأعمال كانت بعد ذلك المواد الخامة التى صنع منها قصصه .

وفيما بين عامى ١٩٠٤ و ١٩١٣ أسس واشترك فى دار نشر تدعى « زنانيا » لنشر الأدب الذى يحمل دلالة اجتماعية . وبقى طيلة حياته بعد ذلك يفهم من الأدب أنه وسيلة لتغيير المجتمعات والناس .

وبقى أربعين سنة يكافح مرض السل (الدرن) الرئوى .

وفى سنة ١٩٠٨ وصف الشعب فى كتابه « الاعتراف » بأنه : « خالق الآلهة ، خالق المعجزات » . ويقول فيه أيضاً : « إن قوة

الشعب ، حين يسترشد بالإرادة الذكية ، لا تعرف حدوداً تعوقها عن التقدم » .

هذا الأمل العظيم إنما أحس به بعد الكوارث العظمى التي جعلته يتألم من الفقر في صباه ، ومن المرض ، أربعين سنة ، حتى حاول الانتحار والفرار من الدنيا . ولكنه خرج من هذا اليأس إلى الأمل الواسع ، فأصبح أعظم مرشد للناس يرشدهم إلى طريق الخير الاشتراكي .

وما زلنا نحن ، بعد وفاته ، نسترشد به ونبني ، أو نحاول أن نبني حياتنا على غراره .

* * *

ولد جوركي في عام ١٨٦٨ ومات في عام ١٩٣٦ .

ونفهم من هذين التاريخين أنه أمضى ٣٢ سنة في القرن التاسع عشر و٣٦ سنة في القرن العشرين . ونفهم أيضاً أنه ألف ، قبل الثورة الروسية ، في عام ١٩١٧ ، وبعدها . فكان من دعاتها المكافحين المضطهدين . ثم كان بعد ذلك من أبنائها الموالين .

كان مولده ، فيما كنا نسميه قبل الحرب « نجني نوفجورود » ثم صارت بعد الثورة تسمى باسمه « جوركي » على نهر الفولجا الذي نجد ذكره يتكرر في مؤلفاته .

وكانت روسيا قد ألغت الرق الإقطاعي ، ولكن ذكراه كانت لا تزال عالقة بالأذهان . ورأى جوركي في صباه ناساً كانوا أرقاء ، لهم أخلاق إقطاعية في الدرجات السفلى . ولكنه رأى أيضاً بزوغ الحركة الصناعية والرواج التجاري في المدن حيث المصانع والمتاجر .

كانت روسيا في فترة الانتقال تصطدم فيها الأخلاق الإقطاعية التي تعتمد على الإيمان والتواكل والمحافظة التي تقارب الجمود ، والأخلاق الجديدة ، أخلاق المتجر والمصنع .

وكلنا ، نحن أبناء القاهرة الذين أمضوا بعض حياتهم فى الريف ، نعرف الفرق بين الفلاح ، هذا الإنسان القديم ، الذى يخرج علينا بأخلاق الفراعنة ، والذى تغلبت عليه الأخلاق الإقطاعية ، ثم هذا الإنسان الجديد ، العامل فى المصنع أو المتجر ، بل أيضاً صاحب المصنع أو صاحب المتجر . هؤلاء جميعاً قد تغلبت عليهم الأخلاق التجارية الصناعية . وهم يعيشون فى المدينة الصناعية المنبهة بينما الفلاحون يعيشون فى القرى النائمة الغافلة .

رأى جوركى القرية التى لم تكد تتخلص من أخلاقها الإقطاعية ، كما رأى المدينة الصناعية . ومع أنه عرف أن مكانه هو المدينة ، هو الحضارة ، هو الصناعة ، هو استقلال الشخصية ، هو التعقل والتساؤل بدلا من الإيمان والتسليم ؛ فإنه مع ذلك وجد فى المدينة ما يكره وأعظم ما كان يكره هو المتاجر والعقلية التجارية .

كان ظهور المصانع نتيجة لإلغاء الإقطاع . وكذلك كان ظهور المتاجر .

وهنا تثب إلى أذهاننا كلمة عصامى ، أو الرجل الذى يصنع نفسه ، ينشأ فقيراً ، ثم لا يزال يجد حتى يجمع الثروة الطائلة . ثم يحصل على لقب ويشيد كنيسة فى بلدته .

هو رجل متحرر من قيود الإقطاع ، يجد جيوشاً من العمال يختار منهم ويعين الأجور لعملهم . ويجمع الثروة بعرقهم وجهدهم .

ونحن نعرف العصاميين فى بلادنا ، ينشأ أحدهم عاملا يقطع الحجر للبناء أو ينقله إلى القاهرة . ثم لا يزال يقتر على نفسه حتى يجمع ثمن عربة يجرها حمار أو جواد للنقل . ثم يسرف فى التقتير حتى يشترى عربة نقل كبيرة . ولا تمضى عليه السنوات القليلة حتى يكون مقاولا

يبنى العمارات .

والثروة الضخمة تأتى إليه عندئذ بلا عائق . لأنه يستطيع أن يقتطع من الأجور مقداراً يدخره ، ثم يعود « رأس مال » .

قبل أكثر من خمسين سنة قرأت كتاباً ترجمه « يعقوب صروف » مؤسس مجلة «المقتطف» عن صمويل سميلز . وكان عنوانه « سرالنجاح» .

وفى « سر النجاح » هذا قصص متوالية للعصاميين الإنجليز الذين نهضوا من الفقر إلى الثراء . كانوا عمالا فأصبحوا سادة ، يملكون المتاجر أو المصانع ويستخدمون العمال . قصص نهوض رأس المال فى القرن التاسع عشر .

ولكن صمويل سميلز لم يسأل ، وهو يروى تواريخهم ، كيف جمعوا هذه الثروات ؟ وهل كانوا يجمعونها لو أنهم كانوا يؤدون الأجور الحقة لعمالهم . كما لم يسأل يعقوب صروف هذين السؤالين عندما ترجم الكتاب .

ويشير جوركى إلى هذا الكتاب بالذات ويسخر به . ويعلن كراهته للتاجر الذى أثرى بإذلال العمال وحرمانهم ما كانوا فى حاجة إليه من طعام أو مسكن أو كساء .

وفى جميع مؤلفاته تقريباً نجد هذه الكراهة للتاجر والصانع ، أى للرأسمالى ، صاحب المتجر أو صاحب المصنع الذى يثرى بما يكسبه من عرق العمال .



شو
رفيق حياتى

أحسن ما اقتنيت فى حياتى هو ذكرى برناردشو . فقد لقيته حين كانت لحيته لا تزال صهباء ، وتحدثت إليه وسمعت خطبه وقرأت مؤلفاته . وإنى لأحس إحساس أولئك الذين نغبطهم ممن عاصروا أفلاطون أو أرسطوطاليس ، واستمتعوا بحديثهما ، وقرءوا وناقشوا مؤلفاتهما ، ورأوا ضمائرهما الذهنية تتفشى فى حياتهم .

ولقد عرفته فى عام ١٩٠٩ ورافقته إلى سنيه الأخيرة إلى أن مات فى الرابعة والتسعين ، وهى أربع وتسعون سنة من الخلود . ولقد درست فلسفته فكان لى منها توجيه وإرشاد .

ولكنى لم أنتفع بمؤلفاته قدر ما انتفعت بحياته وفلسفته التى — إلى مدى بعيد — تنبع من حياته أكثر مما تتألف من أفكاره . أو أن حياته

قد اندمغت فى أفكاره فعاش عيشاً فلسفياً. ولست أنكر النشوة الذهنية التى كنت أجدها عندما أقرأ له مؤلفاً جديداً ، ولكن الإيحاء الدائم والتنبيه المزعج لأسلوب عيشى واختيار أهدافى ، إنما كانا ينبعان من حياته أكثر من مؤلفاته .

فقد تناول برناردشو حياته كما لو كانت مادة خامة ، وجعل يحتملها ويصوغها حتى أخرجها تمثالا جميلا .

وقد ألف نحو أربعين كتاباً ودرامة ، ولكن أعظم مؤلفاته هو حياته .

وإنى ألتفت كثيراً إلى المؤلفين من هذه الناحية ، أى كيف ألفوا حياتهم وصاغوها وجعلوا منها بناء جميلا ، كما لو كانوا يرسمون صورة أو ينحتون تمثالا أو يصفون بطلا فى قصة أو درامة .

وإنى لأذكر هنا روسو ، وجيته ، وغاندى ، وڤولتير ، فإن كلا من هؤلاء قد ألفوا الكتب العظيمة ، ولكن أعظم ما ألفوه هو حياتهم .

ولو أنه طلب إلىّ أن أؤلف فى ترجمة برناردشو وفلسفته كتاباً يحتوى عشرة مجلدات لوجدت هذا الواجب سهلا أنهض به راضياً فى شهور . ولكنى أجد صعوبة كبرى فى كتابة هذا الفصل عنه ، وهى صعوبة الإيجاز والضغط والاختيار .

ويجب أن أبدأ بكتابه الأكبر وهو حياته . فإنه اتبع أسلوباً من العيش يتفق وكلمته :

« وإنما يكون الإنسان فاضلا إذا أعطى المجتمع الذى عاش فيه أكثر مما أخذ منه » .

ومعنى هذا أن المجتمع قد كسب بحياته فضائل وأخلاقاً وعلماً وأدباً وحكمة .

وقد نظر إلى جسمه كأنه تحفة غالية . وفهم من الطهارة أكثر مما نفهم ، فجعلها فى أمعائه ، إذ رفض أن يجعل جسمه جبانة لجثث الحيوانات . والتزم الطعام النباتى ، وعاش ٩٤ عاماً سليماً ، فبرهن على أنه كان بصيراً بالغذاء الملائم للتعمير والصحة .

وقد كان التعمير بعض أهدافه ، كما كان بعض فلسفته . فإنه كان يقول إن أعمارنا قصيرة لا تتسع للدرس والعمل والاستمتاع ، ويجب أن نعيش نحو ثلثمائة سنة على سبيل العلاج الوقتى لمشكلاتنا الاجتماعية .

أما الهدف الأخير فيجب ألا تقل أعمارنا فيه عن ألوف السنين ، لأنه إذا طالت أعمارنا اهتممنا بالدنيا وأصلحناها . أما مادامت أعمارنا قصيرة فإننا نخطف اللذة والمتعة ، ولا نبالى إصلاح هذه الدنيا ، لأننا زائلون منها قريباً .

وقد أحب واشتعل فى نفسه لهب العشق فلم يطفئه ، ولكنه أيضاً لم يؤججه حتى لا يحترق به . فقد عرف الممثلة « إلين ترى » ، وكانت الروعة فى الجمال والحكمة فى العيش . وكانت تجمع إلى هذا ذكاء الإحساس . فكان يذهب إليها كل مساء ويراها وهى تمثل ، فإذا كان الصباح الثانى كتب إليها خطاباً يتسامى فيه بحبه ويبسط لها أعاجيب من إحساسه وذكائه فى تفطن وحماسة .

ولم يقابل أحدهما الآخر . وقد طبعت مراسلاتهما بعد ذلك ، وهى جديرة بأن تكون دليلا للمحبين الذين يرتفعون بالحب إلى الثلث الأعلى من الجسم البشرى .

ولم يحظ بتعليم جامعى ولا مدرسى ، ولكن أوربا الفهيمة عرفت فيه بعد ذلك أسمى نفس بشرية تعيش فى عصرنا . ذلك أنه جعل سنى عمره الطويل جميعها سنى دراسة ، ومؤلفاته هى مشكلات اجتماعية قد سلط

عليها جهده وذكاءه فدرسها وأخرجها فى درامة كوميدية فنية ، نقرأها أو نراها على المسرح فنحس بالضمير الواخذ والعامل الحافز حتى حين نضحك من أشخاصها ووقائعها .

وقد كان المسرح قبله ميداناً للشخصيات ، فأحاله إلى ميدان للأفكار. وكان ميداناً للتبذخ بوصف الحياة فى القصور أو صلصلة السيوف أو الخيانة الزوجية الرخيصة : بإيجاد الشخص الثالث بين الزوجين ، فجعله مكاناً للتفطن فى معانى الحب والبطولة ، ومعايش الفقراء والمبئوسين ، ومعالجة الطموح الدينى ، وتطور الإنسان بعد آلاف السنين .

وكل هذه المشكلات كانت مشكلاته الخاصة التى درسها لأنها بعض تربيته .

عرف برناردشو الفقر والثراء ، وعرف الكفاح فى السياسة والفلسفة والعلم والأدب ، وصرخ صرخة ڤولتير فى مأساة دنشواى ، وكشف عن لؤم السياسة الإمبراطورية البريطانية فى الحرب الكبرى الأولى . ونال جائزة نوبل فسلمها لجمعية تنمية العلاقات بين نروج وبريطانيا . ودفع ثلاثين ألف جنيه لبناء منازل للعمال . ولم يعرف قط التدخين ، وكان يقاطع الخمر إلى ما قبل وفاته بنحو عشر سنوات . وطاف حول الدنيا ، وصادق العظيمين سدنى ويب وزوجته . وكانا يرتفعان إلى مستواه فى روح البر بالدنيا ، وكانا يمتازان بالدراسة الاقتصادية .

* * *

قبل أن ألتى برنارد شو وجهاً لوجه كنت قد قرأت بعض مؤلفاته ، فوجدت القوة التحريرية فيها تعادل أو تزيد على ما لقيته فى ڤولتير ونيتشه .

ولما التقيت به فى الجمعية الفابية فى لندن أحسست كأنى إزاء أجمل

رجل فى العالم ، فقد كان مديد القامة أحمر شعر اللحية والرأس . وكان فى نغمات صوته صحلة خفيفة محببة . وكانت كلماته للساسة الإنجليز بشأن دنشواى قد جعلتنى أحس كأنه واحد منا نحن المظلومين المضروبين المشنوقين لأنه بكى كما بكينا . ولم أترك له كلمة بعد ذلك لم أقرأها إلى يوم وفاته .

بل إن حبى له قد حمانى إلى أن أقتدى به فى التزام الطعام النباتى . وبقيت على ذلك سنة كدت أموت فى نهايتها من الهزال ، ولم يكن هزالى بسبب المذهب النباتى وإنما كان لجهلى قيمة البيض واللبن عند النباتيين .

كان برنارد شو يعد نفسه صحفياً قبل كل شىء ، وقد رأينا نحن فيه الفيلسوف العميق والمؤلف المسرحى المبدع والأديب الرصين ، بل أحياناً العالم الذى يستطيع أن يجادل العلميين فى أخص نظرياتهم . ولكنه كان يجمل كل هذه الكفاءات بقوله إنها « صحفية » من حيث إنها تتصل بالمشكلات العصرية . والصحفى العالى يجب أن يرتفع فى تفسير هذه المشكلات ومعها إلى المستوى الفلسفى . وأن يكون العلم والأدب بعض شئونه الدراسية .

ولد برناردشو فى عام ١٨٥٦ أى قبل افتتاح قناة السويس بثلاث عشرة سنة . وكانت سنه ٢٦ سنة حين وطئت أقدام الإنجليز أرض وطننا ولست أذكر هذين التاريخين اعتباطاً ، ذلك أن الحادث الأول قد أبرز مصر فى وجدان الأوربيين .

وأما الحادث الثانى فقد أبرز للمفكرين من الإنجليز رجال حزب الأحرار ودناءتهم ورياءهم بشأن الحرية التى داسوها فى مصر ونفوا زعيمها العظيم إلى سيلان .

وكان من هذا أن فكر بعض الأحرار فى ترك حزب الأحرار وإنشاء الجمعية الفابية لنشر الدعوة الاشتراكية . وكانت هذه الجمعية التى التحقت أنا بها ، والتى أحالتنى من شرقى جاف إلى أوربى متمدن، كانت السبب الأول لإيجاد حزب العمال الذى أسندت إليه رياسة الحكومة البريطانية أكثر من مرة . وكان برنارد شو أحد مؤسسيها ، وأكبر داعية لنشر الاشتراكية الفابية ، أى التدريجية ، التى تتسلل وتعالج دون أن تثور وتهدم .

عاش برناردشو طوال عمره وهو يدعو إلى الاشتراكية ، وقد اتخذ الطرف اليسارى منها هذه السنين الأخيرة من عمره . ولكنا على الرغم من أننا نجد أن نظرياته ثورية فإن خططه كانت عملية ، وهو لذلك يعنى أكبر العناية بالبحث فى مسائل المجالس البلدية التى يجد فيها بؤرة العمل الاشتراكى .

وهو أفلاطونى الذهن حين يتحدث عن العمال ، إذ يستصغر شأنهم ويقول بإيجاد صفوة معينة لمعالجة السياسة . وكأنه هنا فاشى يتحدث ، كما كان يتحدث موسولينى . ولكن فترات اليأس هذه قليلة عنده ، وسرعان ما كان يفيق منها إلى الاعتماد على الشعب .

وهو بالطبع عدو الاستعمار وعدو الاستغلال ، ويقول بالتأميم . ومؤلفاته ، رسائل وكتباً عن الاشتراكية ، عديدة وهى تتسم جميعها بأنها شعبية وإيضاحية .

واختصاص برنارد شو الأدبى هو التأليف المسرحى . وهو يضع لكل درامة أو كوميدية مقدمة قد تزيد أحياناً على مائة صفحة ، يوضح فيها وجهته الفلسفية التى حملته على تأليف هذه المسرحية . بل هو أحياناً يزيد على المقدمة بملحق يبرر أو يشرح فيه بعض ما احتاج إلى إيجازه

على لسان أحد الممثلين . ومن هنا نقرأ الدرامة أو الكوميدية كأنها كتاب مستقل زيادة على قيمتها المسرحية .

وأسلوب برناردشو هو الأسلوب العصرى ، أى الأسلوب الديمقراطى. فهو يكتب للشعب بلغة الشعب ، وهو لا يعرف التبذخ أو التظرف فضلا عن التبهرج . ونحن نقرأه كما لو كنا نقرأ مؤلفاً فى الدين أو الفلسفة أو التاريخ . ومرجعه ، أى مرد جذوره فى المسرح ، هو « هنريك إبسن » الذى جعل الدرامة الأوربية اجتماعية . وقد ألف برنارد شو فى بداية حياته الأدبية كتباً فى الدفاع عن إبسن ، ولكن إبسن كان فناناً مسرحياً قبل أن يكون باحثاً اجتماعياً .

أما برنارد شو فعكس ذلك إذ هو باحث اجتماعى قبل كل شىء . وهو يستعمل المسرح وسيلة لشرح المشكلات الاجتماعية ، وليس هو مع ذلك الوسيلة الوحيدة .

وقد بحث الدين ومستقبل الإنسان ، والحب والحكومة والبغاء والفلسفة ، فى نحو ثلاثين أو أربعين مسرحية . ومعظم مسرحياته كوميديات قد طعم فيها التفكير الاجتماعى بالفكاهة .

وقد تجددت المسارح الأوربية بهذا الاتجاه الجديد الذى ابتدعه هنريك إبسن ، ودعمه برناردشو . فالدرامة الأوربية واقعية ، تجابه الحقائق وتعالج المشكلات ، وليست رومانتية خيالية تعيش فى الأحلام والأمانى .

* * *

الكلام عن فلسفة برناردشو يحتوى أيضاً بحث ديانته وأدبه وفنه ، لأنه يعالجها جميعها بالروح الدينى . وقد ولد قبل أن يظهر كتاب داروين « أصل الأنواع » بثلاث سنوات ، ورأى واشتبك فى المعارك الثقافية

حول هذا الموضوع . ورأى الصدمة التى أحدثتها العقيدة الجديدة ، وهى أن الإنسان والحيوان من أصل واحد .

وعندما نقرأ درامته الكبرى « الإنسان والسوبرمان » نحس أن هذا الكتاب هو الامتداد لكتاب أصل الأنواع ، كما هو إيمان دينى جديد يدعو إليه برناردشو خلاصته أن ارتقاء الحضارة فى المسكن والملبس والتنقل ليس ارتقاء للإنسان ، وإنما الارتقاء الصحيح هو أن يطول عمره إلى ألف سنة ويزيد مخه إلى كيلوجرامين . وأن يكون حصيناً من الأمراض منذ ولادته إلى يوم وفاته . وهذا هو السوبرمان الذى يجب أن يستولد من الإنسان بالانتخاب الحكومى ، بحيث يكون منا كما نحن من القردة . أعلى فى سلم التطور ، وأذكى ذهناً ، وأسلم غرائز .

وقد اصطدم برنارد شو مع الداروينيين من حيث إيمانه بأن الصفات المكتسبة تورث ، وأن الوراثة ليست جامدة كما اعتقد ڤيسمان . وفى السنة الماضية عندما احتدم النقاش بشأن هذا الموضوع بين ليسنكو الذى دافع عن وراثة الصفات المكتسبة ، وبين القائلين بأنها لا تورث ، وأن الوسط لا يؤثر فى تغيير العناصر الوراثية ، وقف برناردشو إلى صف ليسنكو أو قل إلى صف لامارك قبيل مائتى سنة . وديانة شو كما نفهمها من مؤلفاته ومن حياته أيضاً هى الديانة البشرية التى تنأى عن الغيبيات ، فإن درامته عن المسيحية « أندروكليس والأسد » تحملنا على الاعتقاد بأنه لا يختلف عن رينان فى بشرية المسيح ، وأن الله كائن فى الإنسان ، ولكن إله برنارد شو هو قوة الحياة التى تقف خلف التطور ، وتعمل للارتقاء ، وتسير مكافحة نحو النور والحب . وإلى هنا تقف « غيبياته » ، غيبيات لا ترضى المؤمن ولا تقنع الملحد ، وهى أقرب الأشياء إلى برجسون. وعندى أنها بعض رواسب القرن التاسع عشر التى علقت به هو وبرجسون ، كما تعلق أساليب الطفولة بالرجل الناضج . وهو يقول : « إنسان بلا دين

هو إنسان بلا شرف » . وهذه عبارة سامية قد استنتجها من حياته . إذ هو لم يؤلف قط كتاباً أو رسالة إلا بروح الدين ، أى بروح المسئولية أمام المجتمع . بل ماذا أقول ؟ أمام البشر والأحياء والتطور . ومن هذه العبارة أيضاً نفهم أن نظرته للدين اجتماعية أخلاقية .

ومهمة الفلسفة هى فى النهاية إيجاد النظريات . والجاهل يحتقر النظريات ، ويزعم أنه عملى . ولكن ليس هناك من الأشياء العملية ما هو أفضل من النظرية الحسنة ، لأننا نقتصد بها ، ونستغنى بها عن كثير من المجهود العابث .

وكلاهما ، برناردشو وبول سارتر ، يقول بحرية الفرد من حيث حقه فى أن يعمل كما يشاء . ولكن الهدف يختلف بينهما . فإن برناردشو يبغى من هذه الحرية خير المجتمع ، من حيث إن حرية الإنسان تسير به نحو الخير إذا أدى الخير ، ونحو الهلاك إذا قدم الشر. فالمجتمع كاسب من هذه الحرية . دعوا السكير والنهم والمستهتر والمجرم يمارس كل منهم حريته ، لأنها فى النهاية ستقضى عليه بالهلاك فينتفع المجتمع . ولكن بول سارتر يقول فى خسة فلسفية ليس لها نظير : « أنا وحدى » وعلى المجتمع السلام !

وبرناردشو مثل ولز ، ينظر النظرة البيولوجية للإنسان فيقول بضرورة التطور . أجل . إن التطور هو الديانة الأصلية عند شو .

مات برنارد شو وكان أجمل الأساطير فى حياتى . ولقد رافقته وتعلمت منه ، وحاولت أن أقتدى به ، فكنت أصل أحياناً وأقصر أحياناً. ولقد حرصنا بالقدوة والعمل على أن نمارس الأدب لخدمة الجمهور ، وبعض هذه الخدمة أن نجعل ساستنا وقادتنا متمدنين مستنيرين . وهذا هو ما حاولت ، ولكنى للأسف لم أنجح .

ولقد أوصى بأن يحرق جثمانه فى المرمدة . وقد أحرقت زوجته

فيها من قبل ، كما أحرق جثمانا صديقه ولز وزوجته . وهذا الاحتراق هو طهارة أخرى مارسها شو فى موته كما مارس النباتية فى حياته .

* * *

مما يستحق الملاحظة أن الأمم العربية جميعها فهمت النهضة على أنها التحرر من الأجنبي المستعمر ومن الوطنى المستبد . فطالبت بالاستقلال والدستور ، واعتقدت أن كل شيء من أمانيها قد تم . ولكن الأمم الأوربية فهمت النهضة أو النهضات المتوالية فيها على أنها قبل كل شيء تحرير الضمير البشرى . ففصلت الدين من الدولة ، وكافحت التقاليد ، وتمردت على سلطة البابا ، وألغتها واعتنقت العلوم ، ومارست الفنون التى تعمل للتنوير الذهنى والسعادة البشرية . وهذا مالم تفكر فيه الأمم العربية إلى الآن مع أنها تحمل من أعباء الظلام ما يرهق الضمائر ويسود العقول .

والناهضون فى أوربا هم علماؤها وأدباؤها وليسوا ساستها . وهم جاليليو الذى خالف الكنيسة وأثبت أن الأرض تدور حول الشمس . هم لوثر الذى انفصل من البابا وترجم الكتاب المقدس . هم دافنشى الذى قال بأن الجبال كانت البحار تغمرها . هم داروين الذى أرجع الإنسان والحيوان إلى أصل واحد . هم رينان الذى قال ببشرية المسيح . هم إبسن الذى رفع المرأة من الأنثوية إلى الإنسانية .

هؤلاء هم الناهضون الذين غيروا أوربا ، وبرناردشو واحد منهم فإنه بأسلوب عيشه ومؤلفاته المسرحية دعانا إلى حياة الطهر ومكافحة النفاق الاجتماعى . وكانت مهمته تحرير الضمير البشرى من الخرافات والتقاليد والجبن الفكرى ، وبعث الآمال فى مستقبل البشر على هذه الأرض . وصحيح أنه كافح قوات الظلام التى يمثلها الاستعمار

والاستبداد ، ولكنه كافح أيضاً ، وبقوة أكبر ، قوات الظلام التي تمثلها التقاليد وموروث العقائد الغيبية .

ولو فهمنا نحن المصريين دلالة النهضات الأوربية وعملنا لتحرير ضميرنا ، لكان لنا إلى جنب الحرية السياسية حرية أخرى أكفل للسعادة وأعمل لتكوين الشخصية . ولكان لنا منها موقف آخر حيال المشكلات الاقتصادية والأخلاقية والثقافية . وفى هذه الحال ماكان لمستبد أن يحبس عقولنا بقوانين تحد من حرية الصحافة ، أو يسلط علينا بوليس الأفكار ، كي يعين لنا ما يجوز وما لا يجوز أن نفكر فيه ونكتب عنه .

أجل . إننا ما زلنا بعيدين عن دلالة النهضات الأوربية .

* * *

ليس من الصدق أن أزعم أنى اقتديت ببرنارد شو . فإنه رفع نفسه إلى مستوى عال من « العيش الساذج مع التفكير السامى » وعاونه على ذلك وسط متمدن لم أجد أنا مثله إلى يوم خلع فاروق فى مصر حيث يكافأ الرذل على رذيلته ويعاقب الفاضل على فضله . والأصل فى هذه الحال المعكوسة هو الإنجليز من ناحية والتقاليد الشرقية من أخرى .

ولكنى حاولت ، وكررت المحاولات ، ولم أتعب ولم أسأم . وخير ما أخذت عن برناردشو هو هذا الروح العلمى الذى يسود مؤلفاتى ، فإنى مثله علمى الذهن أدبى الوسيلة فلسفى الهدف . أمتاز بالتفكير العلمى والتعبير الأدبى . وهذا إلى أنه حبب إلىّ الاشتراكية ونقلها عندى من منطق العقل إلى عاطفة القلب . أجل . إنه جعلها ديانتى العملية . فليس البر عندى إحساناً وصدقة ، وإنما هو البرنامج الاشتراكى الذى يوفر

لكافة الشعب طعام الجسم وغذاء الذهن وحرية الضمير والإقدام على المستقبل .

وهو ، بعد داروين ، الذى جعلنى أستمسك بالتطور وأجعل منه الديانة المذهبية لحياتى وفكرى وموقفى البشرى . وقد كان هو يقول بالحاجة إلى « وزارة للتطور » تعمل لترقية السلالات البشرية . وهذا تفكير يعلو علوًّا عظيما على الصغائر التى يشتبك فيها صغار الأدباء .

وحين أعود إلى الأفكار التى بثها فى نفسى برنارد شو ، وحين أنظر إلى الدنيا من عدسته ، أحس السرور والغضب والإقدام والشجاعة والجهد والإرادة . أجل . أحس أن حياتى ترتفع إلى مقام التاريخ وأن لوجودى دلالة فلسفية .

* * *

مات برناردشو بعد أن ملأ الدنيا بفكاهاته ، وهى فقاقيع الحكمة . فكنا نضحك ونتعلم . نحن الآن أقل ثراء فى النفس وذكاء فى العقل مما كنا فى أيامه .

وقبل أن يموت بأيام قال زعيم الفكاهة هذا يصف عالمنا فى عام ١٩٥٠ : إن بين كل أمة وأمة حرباً باردة . وبين كل فرد وفرد من أبناء الأمة الواحدة حرباً باردة . وبين كل إنسان ونفسه حرباً باردة !

هذا ما قاله زعيم الفكاهة . وهى كلمات موجعة تصف عالمنا التعس الحاضر . .

* * *

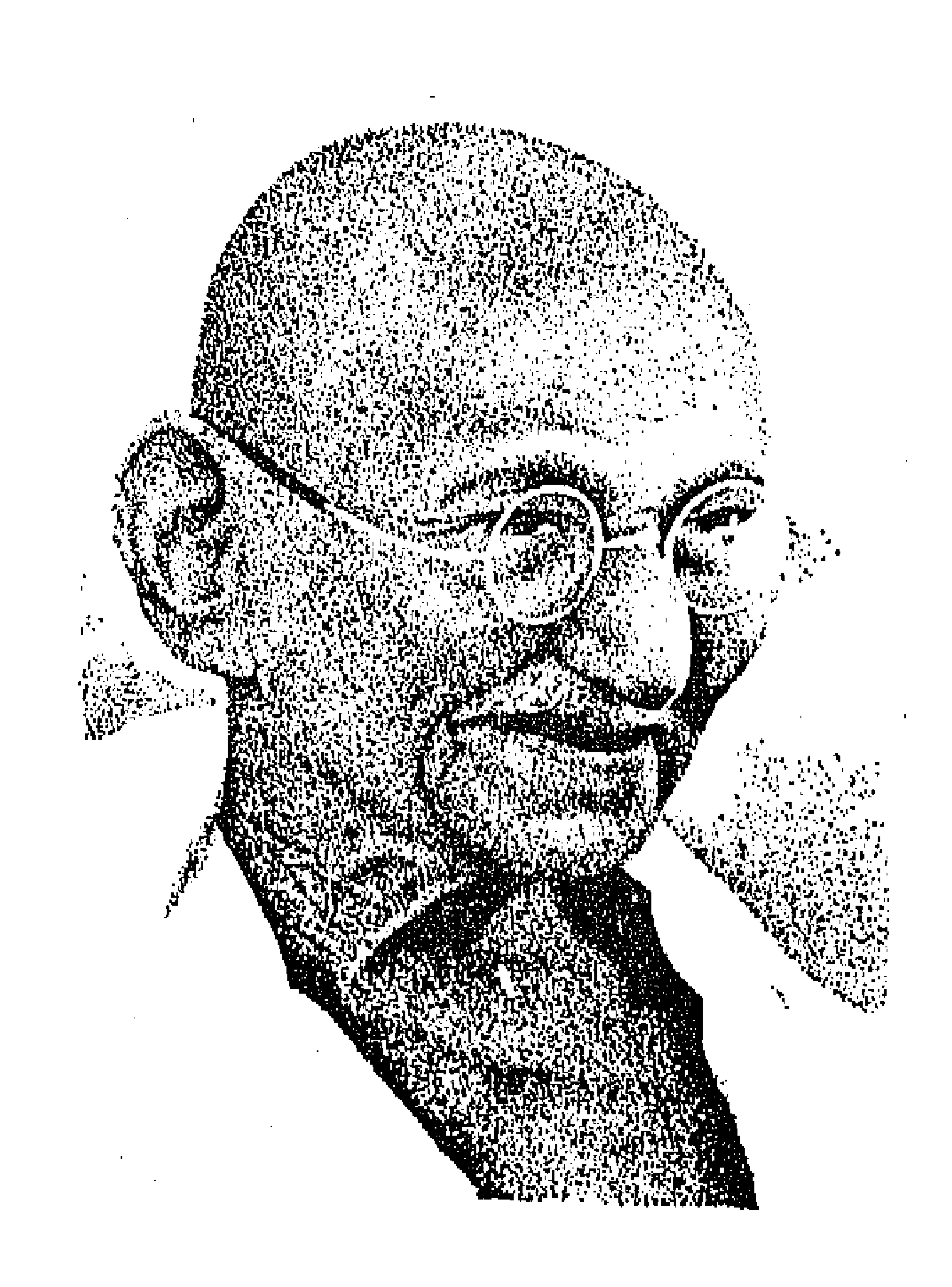
لما مات برناردشو أطفئت الأنوار فى نيويورك خمس دقائق ، وكذلك أغلقت المدارس فى الهند يوماً كاملا ، وجرى مثل ذلك أو قريب منه فى أقطار أخرى . ولكن مصر لم تفعل شيئاً من هذا ، كأنها تعيش

فى ذهول لا تقدر القيم الأدبية والاجتماعية فى العالم . والواقع أنها كذلك .

ولو كانت هناك أمة مدينة لبرناردشو لكانت مصر فإن الصفحات القليلة التى كتبها عن دنشواى تحمل من غلواء الذهن والعاطفة ما ينظمها فى عداد الأدب العالمى والبلاغة السامية ، وستعيش هذه الصفحات وسيقرأها ، كما قرأها ، الملايين الذين سيغضبون من الاستعمار وسيعرفون منها حق مصر وباطل بريطانيا .

ولو كنا أمة عصرية لنقلنا إلى لغتنا جميع مؤلفات برنارد شو ، ولكانت هذه المؤلفات جديرة بأن تحدث نهضة اجتماعية وأدبية . فإن تفكيرنا السياسى جامد ، ونشاطنا الأدبى إما رجعى يتعمق ظلام القرون الماضية ، وإما سطحى يتبهرج بالألوان على صفحات الجرائد والمجلات. كأنه عبث الصبيان .

ولذلك ما كان أحوجنا إلى التوجيه السيكلوجى الاجتماعى الذى يتسم به أدب برناردشو . بل ما أحوج الأديب والسياسى معاً إلى هذا التوجيه .



غاندى

داعية الاستغناء

ولد غاندى إنساناً ومات قديساً .

ولم يكن غاندى مؤلفاً من حيث فن التأليف الكتابى وإخراج الكتب ، ولكنه ألف ما هو خير من الكتب . ألف حياته التى كانت مصباحاً منيراً نحو أربعين سنة للبشر من جميع الطبقات . وقد كانت دعواته أو رسالاته متعددة ، فقد دعا إلى الوطنية الهندية ومحاربة الاستعمار وإلى الاستقلال والحرية كما دعا إلى المغزل والمنسج وإلى الطعام النباتى .

ولكن كل هذه الدعوات كان يسودها روح القداسة . ولذلك نستطيع أن نقول إن دعوته الأولى هى القداسة .

ذلك أن وطنيته لم تكن للهند وحدها وإنما كانت إخاء بشرياً لسكان هذا العالم كله .

ولم يكن كفاحه دمويًّا قائماً على البطش والدم، وإنما كان مقاومة سلبية تنهض على حض الهنود على ألا يتعاونوا مع المستعمرين لهضم حقوقهم وضغط حرياتهم . ولم يكن تدينه لديانة آبائه فقط ، أى الهندوكية ، إذ هو كان يجعل صلاته حافلة جامعة للإنجيل والتوراة والقرآن ، والكتب الهندوكية المقدسة . وقد صام أكثر من نصف عام على فترات كى يحمل الهندوكيين والمسلمين على الإخاء . وبذلك رفع السياسة إلى مستوى القداسة .

وقد كتب تاريخ حياته فى أسلوب شعبى ساذج يخلو من التبرج لأنه لم يكن كاتباً أديباً لعوباً . ومن هذا الكتاب نحس قداسته ، ونهفو إلى ذكراه فى حنين وحنان معاً . كما نهفو إلى ذكرياتنا للأم الحبيبة أو للعشيقة التى أوسعتنا سعادة السنين ، أو للابن الذى حملناه على صدورنا وقبلنا وجنتيه الطريتين .

وذكرى غاندى عندى هى نشوة يغمرنى فيها إحساس فنى كذلك الإحساس الذى أنتعش فيه حين أرى الشفق الزاهى والحقول النضرة والرسم الرائع .

وليست عظمة غاندى من ذلك النوع الذى يحملنا على احترامه ، إذ ليس هناك مكان فى قلوبنا لذكراه سوى الحب . وحيث يكون الحب العميق لا يكون الاحترام .

وإنى لأكتنز كنوزاً نفيسة فى حياتى لا أرضى بها بدلا . هى أنى عشت وعاصرت تولستوى وبرنارد شو وشفيتزر وغاندى ، وكلهم قديس . وليست قداستهم من ذلك النوع القديم حين كان ينزوى الراهب فى صومعته بعيداً عن المجتمع كى ينشد خلاص نفسه بالصلاة . لأن هذا الراهب هو فى صميمه أنانى يطلب الخلاص لنفسه فقط . ولكن

هؤلاء القديسين العصريين كانوا يتألمون ويصومون ويكافحون من أجل خلاص البشر .

وقد استطاعوا أن يغيروا الأوزان والقيم البشرية ، وأن يغرسوا فى قلوبنا حباً جديداً وأن يعلمونا أسلوباً فلسفياً للعيش .

مات غاندى فى سنة ١٩٤٧ وهو أعظم رجل فى العالم . ومع ذلك كان كل ما يملك عنزة تدر له اللبن وشملة تكسو جسمه لا يزيد ثمنها على ثلاثة أو أربعة قروش .

وكان يغزل بيده ويكتب ويشترى القليل من الفواكه أو الجبن بما يكسب . وبذلك نصب غاندى أمام العالم كاه مثالا يحتج به على أساليب عيشتنا الاقتنائية ، ويوضح لنا أن السعادة والشرف والمكانة أيسر من أن نتكلف من أجلها جميعاً هذا الجهد ، بل هذا العذاب فى اقتناء المال والهرولة التعسة التى نعيش بها من أجل التكاثر بهذا المال .

والفهم العام للنسك هو أنه عادة أو رهبنة دينية قد نشأت فى الأمم الشرقية ، وهو كذلك إذا فهمناه على أنه انزواء فى صومعة .

ولكن الحرمان الذى فرضه على نفسه كل من برنارد شو وتولستوى وغاندى وشفيتزر هو نسك آخر ، نسك غربى ينهل على أسس من الثقافة الغربية غايته خدمة المجتمع وإنهاض البشرية وتجديد القيم الاجتماعية . بل إنه ليس نسكاً ، لأن المعنى الأصيل للنسك أنه الحرمان من بعض الملذات فى الطعام أو الشراب أو اللباس أو السكنى أو إشباع الشهوات. ولكن هؤلاء الأربعة الناسكين لم يحسوا ، وهم يحرمون أنفسهم ما نحسب أنه متاع ، أنهم قد فقدوا شيئاً لأنهم قد أخذوا بقيم جديدة تجعل ما نعتز أو نلتذ أو نفخر به من ثراء أو اقتناء ، تافهاً لا يحرص عليه الرجل العظيم بل لا يباليه .

حادثة واحدة فى حياة غاندى تدلنا على أن استغناءه لم يحمل معنى القهر ، وهو انقطاعه عن الاتصال الجنسى منذ بلغ الرابعة والثلاثين فهو لم يكن يقسر نفسه على هذا الحرمان . ولم يكن يحس أنه حرمان . ذلك لأن الآمال والآفاق التى كان يترامى إليها تفكيره كانت تغمر نفسه ، وتشغل كل وقته ، وتهيب به ، بما تحمل من عظمة ومجد ، أن ينسى مادونها من ملذات أخرى . فهو لم يكن يشتهى طعام اللحم أو الاتصال بالمرأة أو اقتناء الثراء لأن نفسه كانت مغمورة بما هو أسمى . فالانكفاف هنا ليس قهرياً أمرياً وإنما هو سيكلوجى . أى أن غاندى قد سد القنوات فى شهواته لأنه جمعها كلها نهراً واحداً نحو غاية موحدة هى الإنسانية .

وكى يفهم القارئ هذه الحال ، عليه أن يذكر مثلا ذلك الأب الذى يفقد ابنه الحبيب ، فإن كثيراً من الآباء فى هذه الحال يحسون صدوداً عن المرأة كأن الشهوة الجنسية قد أصبحت حراماً لا يجوز لهم الاستمتاع بها بعد أن ثكلوا الابن الذى أحبوا . وهذا الصدود هو فى منطق النفس نذر لشىء آخر .

وكان نذر غاندى الذى سد قنوات شهواته جميعها تقريباً هو حب البشر واستقلال الهند ومحو النجاسة وطرد الإنجليز .

* * *

ومما ينبهنا فى حياة غاندى أنه على الرغم من المسحة البدائية الساذجة التى تبدو بها صورته لنا إنما كان غريباً فى ذهنه عصرياً فى فكره . بل أكاد أقول إنه كان ماركسياً فى أسلوب كفاحه للإنجليز ، من حيث إنه فهم الاستعمار على أنه استغلال للأرض والبشر فى الهند لمصلحة الإنجليز فجعل مكافحته قائمة على الاستكفاء الاقتصادى بتعميم المغزل والمنسج ومقاطعة المصنوعات الإنجليزية .

ولم تكن دعوته للمغزل إيثاراً لهذه الآلة اليدوية الصغيرة على مصانع الغزل الكبرى التى يعول فيها على الحديد والنار ، وإنما هو وجد أن ظروف الهند ، وهى ظروف الحرمان والفاقة والفراغ ، مع الجوع فى الريف وترصد الإنجليز لأية نهضة اقتصادية وتصديهم لقتلها فى المهد ، كل هذا جعله يفكر فى الوسيلة التى تعم البيوت الهندية حيث يعمل الأب والأم والأبناء فى الغزل دون أن يستطيع الإنجليز أن يتدخلوا ويمنعوا .

والمتأمل للحركات الوطنية فى مصر والهند وتركيا يجد ظاهرة تستحق الالتفات ، هى أن جميع الوطنيين فى هذه الأقطار الذين قادوا هذه الحركات قد امتازوا بثقافة أوربية وأخذوا بالقيم والأوزان الأوربية .

أما الشرقيون الذين نشأوا فى حضن الثقافات التقليدية الدينية أو الاجتماعية فلم يتزعموا هذه الحركات ولم يستطيعوا أن يغذوها بتفكيرهم . فإن دعاة الوطنية الهندية : طيلاك وغاندى ونهرو قد تعلموا جميعهم فى أوربا . وكان أتاتورك مقاطعاً بل مجاهداً فى مقاطعته للأخلاق الشرقية . وهذا هو الشأن أيضاً فى مصر حيث نجد أن الزعامة الوطنية والانتهاض القوى العام والدعوة للاستقلال يحمل علمها ولا يزال يحمله أولئك المستغربون الذين تعلموا فى أوربا ، أو أخذوا بالثقافة الأوربية وما تحمل من أوزان وقيم جديدة فى السياسة والأخلاق والاجتماع .

وقد كان الا ستعمار البريطانى فى الهند يؤيد تقديس البقرة ويؤيد نظام المنبوذين ويؤيد حجاب المرأة . لأن أعظم مايؤخر هذه الأمم الشرقية هو هذه التقاليد المتحجرة . بل لولا هذه التقاليد لما استطاع الاستعمار أن يطأ بقدميه أرض الهند أو مصر .

ولعلنا لا ننسى هنا أن الإنجليز كانوا يعارضون حركة قاسم أمين

بشأن تحرير المرأة ، وكانت ناظرة المدرسة السنية الابتدائية للبنات تصر على اتخاذهن للبرقع .

ولكن الاستعمار مذهب غربى وهو ، مع أنه يدوس الأمم الشرقية ، لا يزال يحمل فى طياته السم الذى يقتله فى النهاية . لأنه ينقل معه الثقافة الأوربية التى تحيل بعض الشرقيين إلى أوربيين فى الذهن والعاطفة والنظرة . وهؤلاء يفكرون وينتهون إلى دعوة الاستقلال والتحرير من شيئين معاً وهما الاحتلال الأجنبى وأيضاً التقاليد المتحجرة .

ولذلك ما كاد الهنود يجلون الإنجليز حتى عمدوا أول ما عمدوا إلى إلغاء نظام الطبقات الذى كان يؤيد بقاء المنبوذين وولوا منبوذاً وزارة المعارف . كما منحوا المرأة حق المساواة بالرجل فى الميدان الاجتماعى وأيضاً حق الانتخاب للبرلمان وللوزارة . وهم فى ذلك يشبهون مصر .

وليس شىء فى الدنيا أسوأ من الاستعمار الأجنبى سوى التقاليد الشرقية المتحجرة . وليس شىء فى الدنيا أسوأ من التقاليد المتحجرة سوى الاستعمار الأجنبى . ولكن مع ذلك حين أتأمل بعض الأمم التى لا تزال تعيش فى استقلالها واستبداد تقاليدها أحس كأنى أرغب فى استعمار أجنبى يصفعها الصفعة المنبهة التى توقظها وتنبهها وتحملها على إلغـــاء تقاليدها .

* * *

ثلاثة رجال يبرزون فى حياة غاندى من حيث تكوينه وتوجيهه فى التفكير الاجتماعى . وهؤلاء هم : ثورو وتولستوى وروسكين . وكانوا جميعاً من المتمردين على الحضارة الأوربية يحاولون الارتداد عنها إلى ما هو أبسط وأقل تعقداً وأميل إلى الخدمة والتعاون دون السلطة والاستثمار .

ولا يستطيع المتأمل لنشاط هؤلاء الثلاثة ، الدارس لأفكارهم ونظرياتهم ومثلياتهم ، أن يقول إنهم كانوا على بصيرة تامة بالحضارة الأوربية ومنتهاها ، ولكن تمردهم كان بمثابة التنبيه إلى ما فيها من أخطار تلصق بالمجتمع الاقتنائى الذى انتهت إليه حيث يعيش كل فرد وغايته الاقتناء والإثراء فى مباراة عنيفة قاتلة .

كان ثورو أمريكيًّا ، ولد فى عام ١٨١٧ ومات فى عام ١٨٦٢ . . واشتغل بالتعليم وبغيره . ولكنه فى عام ١٨٤٥ ترك حياة المدن وهاجر إلى الغابة ، حيث بنى لنفسه كوخاً وجعل يعيش حياة بدائية يصيد السمك من بحيرة قريبة ويأكل الثمار البرية ويعمل بالأجرة فى الحقول القريبة .

وكان يقضى معظم وقته فى تأمل الحيوان والنبات فى الغابة . وهو واضع عبارة « العصيان المدنى » التى أخذها عنه غاندى . وكان يعنى بهذه العبارة أن لكل فرد الحق فى أن يستقل بشخصيته ويرفض العادات والمطامع الاجتماعية ويعيش وفق مثلياته الخاصة وهو عاص لا يخضع للمجتمع . وبقى إلى عام ١٨٤٧ بالغابة حين عاد إلى المدينة وعاش مع صديقه « إميرسون » وألف كتاباً بعنوان « والدن أو الحياة فى الغابة » .

وهو يروى فى هذا الكتاب اختباراته ، وكيف أن حاجاته جميعاً من لباس وغذاء وسكنى لم تكن تكلفه سوى القليل من الجهد والقليل جدًّا من النقود .

وواضح أن غاندى حين ترك المدن وآوى إلى معتكفه فى الطبيعة يقنع بما تدره عليه عنزته من اللبن والجبن ، وأيضاً بقنوعه بتلك الشملة التى كان يشتمل بها دون أى لباس آخر ، إنما كان يستضىء بثورو فى حياته فى الغابة . ومكافحته للإنجليز الاستعماريين بشعاره « العصيان المدنى » يعود إلى القدرة على الاستغناء . فإنه نبذ الرفاهية فضلا عن البذخ وقنع

بالقليل الذى لا يستطيع الإنجليز أن يحرموه منه . وكان ثورو على الدوام فى ذهنه : رجل قانع يعمل عندما يحتاج ، ويرتاح ويتأمل الشمس والشجر والماء والسحاب عندما لا يحتاج . والحضارة القائمة تدعونا إلى الاقتناء والإثراء والجهد والمباراة . ولكن عبرة ثورو هى كيف نستغنى ؟ وليس كيف نقتنى ؟

أما تولستوى فليس هناك من يجهله . فقد ولد فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١١ وكان فناناً عظيماً يؤلف القصص الخالدة كما كان أخلاقياً متمرداً على الحضارة أيضاً مثل ثورو . وقد حرمته الكنيسة الروسية لأنه ألف كتاباً عن إيمانه وصف فيه المسيح باعتبار أنه إنسان عظيم لا أكثر ، وأن دعوة المسيح إلى الحب البشرى هى الخلاص لجميع الناس وأن « ملكوت الله » كما جاء فى الإنجيل ليس حياة أخرى بعد الموت وإنما هو فى قلوبنا وأنفسنا وعالمنا هذا ، وأنه يتحقق بالحب بين البشر . وقد عاش فى الأرض التى ورثها عن عائلته وحاول تسليم هذه الأرض للفلاحين ، ولكن عائلته منعته ، وكان يصنع الأحذية بنفسه للفلاحين ، كما أنه أنشأ مدرسة لأولادهم وأصدر مجلة فى التربية .

وقبل وفاته بنحو عشرة أيام خرج هارباً من بيته يريد أن يرضى ضميره ويعيش كأحد الفلاحين .

وقرأ غاندى مؤلفاته وهو فى أفريقيا الجنوبية فتأثر بها كثيراً . وكان أن أسس ما سماه « مزرعة تولستوى » حيث كان يعلم أبناء الهنود ويزرع أرض المزرعة ، ومن هنا نشأت عنده فكرة التعلم بالعمل ، وهى الفكرة التى أحالت التعلم إلى تربية .

ويرى كثير من الناقدين أن الخطة التى اتبعها غاندى فى مكافحته للاستعمار فى الهند وهى « المقاومة السلبية » أى تقبل العدوان فى صمت

وثبات إنما ترجع إلى تعاليم تولستوى فى شرحه للمسيحية ، هذا الشرح الذى جلب عليه حرمان الكنيسة له حتى قال رومان رولان الأديب الفرنسى المعروف : « وحسبى ما قلت كى أبين أن غاندى كان ينطوى على قلب إنجيل خافق تحت كساء من الإيمان الهندوكى . أما روسكين الذى أحبه أيضاً غاندى فكان من الأدباء الإنجليز . وقد ولد فى عام ١٨١٩ ومات فى عام ١٩٠٠ ، وألف عدداً كبيراً من الكتب فى الفنون والأخلاق والاجتماع . ولما مات أبوه عام (١٨٥٥) ترك له ثروة قدرت وقتئذ بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه فلم يمسكها بل تبرع بها للمنشآت الاجتماعية والتعليمية وقنع هو بأن يعيش بقلمه .

* * *

لم يكن غاندى يضع القواعد كى يتقيد بها ، وإنما كان يفرض القاعدة أو المبدأ للاسترشاد الأخلاقى فى الخطة العملية . ولذلك نجد أن التزامه للمقاومة السلبية لم يكن جامداً . إذ هو كان يلجأ إلى العمل الإيجابى من وقت لآخر . أى أن « العصيان المدنى » لم يكن عنده ركوداً أو اعتزالا أو جموداً ، وإنما كان أيضاً عصياناً مباشراً كما نرى فى حادث الملح .

ذلك أن الحكومة الهندية كانت فى استغلالها الإمبراطورى تحتكر صناعة الملح ، وهو إدام أو تابل يحتاج إليه كل فرد . فالكسب عظيم منه والضرورة تكفل رواجه الدائم . ورأى غاندى فى سنة ١٩٣٠ أن هاهنا فرصة يجب أن تستغل لتحريك التمرد على الاستعمار وتجرئة الشعب الهندى على عصيان القوانين والأخذ بالشجاعة ، فدعا إلى مظاهرة شعبية تبدأ من معتكفه حيث كان يقيم إلى شاطئ البحر حيث الملاحات الحكومية .

وهناك يخالف غاندى القانون عمداً وينزل المتظاهرون إلى الملاحات

ويحملون الملح مجاناً . وكافح المستعمرون هذه المظاهرة بكل الوسائل ووجدوا من الهنود أنفسهم من أيدهم فى تزييف هذه الحرية أو شلها ، فمنعوا القطارات من السفر إلى الشاطئ . ومنعوا الخطابات . وعطلوا الصحف وراقبوها . وأوفدوا البوليس والجيش يحمل كل فرد منهم هراوة ضخمة ، ثم أنحوا على المتظاهرين بالضرب أو بالأحرى بالخبط حتى تحطمت الرءوس والأجسام وخضبت الأرض بالدماء وألقوا القبض على رأس الفتنة وداعية العصيان غاندى .

ولكن كل هذا لم يهزم المتظاهرين . وبقى العصيان يفشو ويزداد . وامتلأت السجون وفاضت . فأسس الإنجليز حظائر من الأسلاك يحبسون فيها الثائرين ، وأصبح المسجونون يعدون بمئات الألوف . وانتشر روح التمرد فى جميع أنحاء الهند فامتنع المالكون من أداء الضرائب واستقبال ألوف الموظفين . وتراءى للإنجليز أن الثورة تسير فى طريق النجاح وأن الأداة الحكومية قد شلت . وعندئذ فكروا فى أساوب آخر للمكافحة . فإنهم إلى جنب الضرب والاعتقال عمدوا إلى الحكم بالغرامات ، ولكنها كانت تجربة تعلم منها غاندى وتعلم الهنود كيف يكافحون . وفهموا وفكروا ودبروا .

وفى عام ١٩٣٩ عند شبوب الحرب الكبرى الثانية ترك غاندى هذا الأسلوب القديم للمكافحة . ودعا دعوة أخرى هى « اتركوا الهند » .

وترك الإنجليز الهند فى عام ١٩٤٨ . وتحقق الاستقلال .

* * *

وكان الهنود يعيشون أيام الإنجليز فى تقاليد الفقر والجهل والمرض ، وليس شىء يعمل للذلة والهوان مثل هذه العناصر الثلاثة التى تجمع شرور العالم كلها . وهى العون الأول للاستعمار . ولذلك حاربها غاندى

جميعها بطراز جديد من المدارس يلائم ظروف القرية الهندية . وهذا الطراز هو ما يسمى الآن « التربية الأساسية » .

فى عام ١٩٤٥ كتب أينشتين عن غاندى هذه الكلمات البليغة :

« إن غاندى يتزعم الشعب الهندى لا تؤيده فى هذه الزعامة أية سلطة خارجية . وهو سياسى لا يقوم نجاحه على الحيلة أو المهارة فى الوسائل الفنية إنما على القوة الاقتناعية فى شخصيته ، وهو مكافح مظفر يحتقر على الدوام أساليب العنف . وهو حكيم متواضع قد تسلح بالإرادة كى يتناسق سلوكه ، وقد أرصد كل قواه لأن ينهض بشعبه ويرقى بمصيره . وقد جابه توحش أوربا بوقار إنسانيته ولذلك كان على الدوام يرتفع عليها . إن الأجيال القادمة سوف تشك فى أن إنساناً مثل هذا سعى بقدميه على أرضنا » .

وهذه كلمات عظيم قد رأى العظمة فى غيره وفطن إليها .

* * *

علمنا أن غاندى أيضاً حكمة الحكيم ليست بالاقتناء وإنما هى بالاستغناء ، وأننا نستطيع أن نحقق السعادة والمكانة ، وأن ننجز وعد حياتنا على الأرض ، بالقليل من الحاجات دون هذا البذخ الذى يضنينا بلوعة ثم لا يسعدنا الحصول عليه ، وأن ضرورات العيش من مسكن وملبس ومطعم قليلة ، بل إننا إذا أقللنا منها عشنا على أحسن حال كما تتوافر لنا بهذه القلة القوة والوقت للاستمتاعات العالية .

وعلمنا نحن الشرقيين أن الاستعمار عدو لا شك فيه ، ولكن هناك ماهو أعدى منه لنا وهو الاستمساك بعادات وتقاليد وقيم ثقافية واجتماعية شرقية لا يصلح أن تبقى فى القرن العشرين .



ويلز
فيلسوف الصحافة

الصحافة أدب جديد لم يكن يعرفه أسلافنا ، غايته أن يرتبط الكاتب بمجتمعه ويكتب عن عصره ويدرس مشكلاته . ولهذا الأدب قواعده بل سننه التي يجب أن يلتزمها الصحفي . وإذا كانت البلاغة لم تدرس إلى الآن هذا النوع من الأدب فذلك لأنها تبنى قواعدها على حال اجتماعية قد مضى عليها أكثر من ألف سنة . ومن هنا عقم هذه القواعد في عصرنا وخيبة نتائجها .

قواعد البلاغة القديمة تعلمنا كيف نكتب في جد الجاحظ أو هزل الحريري ، ولكن الصحفي الذي يكتب عن شئون البورصة ، أوالفيتامين الجديد في الخميرة ، أومناقشات مجلس النواب ، أو نقل البريد بالطائرات ، أو القنبلة الذرية يجد قصوراً عظيما في لغتي الجاحظ والحريري بلاغتيهما .

وإذا كان الأديب يكبر بمقدار مسئولياته ، فإن الصحفى هو أعظم الأدباء فى عصرنا . لأن أعظم ما يؤثر فى الجمهور ويغيره ويوجه للخير أو للشر هو الجريدة ، وذلك لقوة الإيحاء الذى ينشأ من تكرار ظهورها كل يوم أو كل أسبوع .

ولذلك أول شرط لبلاغة الأدب الصحفى أن يكون من يمارسه أميناً لقرائه مخلصاً لمثلياته ومبادئه ، لايخون ولا ينحرف ، لأن فى خيانته أو انحرافه إفساداً للقراء وبعثاً للشر . ثم يجب أن يكون على دراسة مثابرة للمشكلات العامة ، إذ هى موضوعه الذى يتجدد كل يوم . ومهمته هنا أن ينير ويرفع مستوى البحث من ظلام الجهل والعامية إلى نور المعرفة والثقافة . وأيضاً من العاطفة إلى التعقل . ويجب أن تكون له أهداف فلسفية يتجه بها ويوجه قراءه إليها . والفلسفة ألزم للصحفى مما هى لأى أديب آخر لقوة التوجيه التى يملكها أكثر مما يملكها أى أديب آخر .

وقد يضحك قارئ الصحيفة الأسبوعية المبهرجة من كلماتى هذه ، ولكنى أذكره بأن أعظم من مارسوا الصحافة فى مصر هو لطفى السيد وهو فيلسوف يهتم بأرسطوطاليس كما يهتم بترقية الزراعة أو الصناعة . وكذلك الشأن ، على مدى أوسع فى صحف أوربا وأمريكا . وصحافة بلا فلسفة هى صحافة العوام يكتبون للعوام .

لقد عرفت أديبين صحفيين من أعظم أدباء العصر هما برنارد شو و هـ . ج ويلز . كان كلاهما يكتب فى الصحف ويؤلف الكتب . ولكن مؤلفاتهما . هى أدب صحفى ممتاز . ولأنه ممتاز ، قد جمع وحفظ فى صيغة الكتاب . وما من كتاب ألفه هذان الاثنان إلا وهو يعالج مشكلة بشرية أو اجتماعية أو اقتصادية يجب أن تعالجها الصحيفة اليومية أو الأسبوعية . ومؤلفاتهما قد لا تقل عن مائة مجلد . وقد كان من حظى أن أرافقهما

وأتعلم منهما نحو نصف قرن . فقد كتب برناردشو عن فضائح الإنجليز دنشواى ، وعن الأثمان والأسهم فى البورصة ، وعن المجلس البلدى فى لندن ، وعن الحب والزواج ، وعن الإلحاد والإيمان ، وعن التأميم ، وعن الحرب والسلم ، وعن اللغة والهجاء . وكل هذه الموضوعات صحفية . وكذلك الشأن فى هـ . ج . ويلز فقد كان آخر ما كتبه قبيل وفاته بأيام مقالا عن أخطار القنبلة الذرية . وقد دعا إلى الإيمان بالأديان بقوة وتكرار وإلحاح ، ثم رأى أن يدعو دعوة أخرى مضادة استغرقت سائر حياته . ولكنه كان مخلصاً حتى عندما نعده ضالا منحرفاً . وكان مخلصاً فى الدعوتين لأنه كان متطوراً .

وحياة ويلز الأدبية منذ شرع يكتب حوالى عام ١٨٩٥ إلى وفاته فى عام ١٩٤٥ هى تاريخ نصف قرن من التطور الذهنى لكاتب عظيم إزاء التطورات والانقلابات العلمية والاقتصادية والسياسية . ومؤلفاته الأولى كلها تفاؤل واستبشار بالمستقبل . . . العلوم تسود المعارف وتغربلها ، تزويد سلطة الإنسان على الأرض والماء والسماء ، الأمراض تنهزم وتنمحى ، المحصولات الزراعية تزيد وتلغى الجوع ، الروح التنظيمى يعم العالم بالاشتراكية والتعليم يزداد . أجل ، وسوف تؤلف لجنة عالمية تتصل بعصبة الأمم أو بالأمم المتحدة تؤلف موسوعة من نحو ثلاثين أو أربعين مجلداً ، ثم تترجم إلى جميع لغات العالم . وعندئذ تتداول جميع الشعوب هذه المعارف المثقفة بأرخص الأثمان ويدخل ويلز فى التفاصيل فيقول يجب أن نؤلف هذه الموسوعة على مبدأ الورق السايب بحيث يستطيع المقتنون للموسوعة أن يستبدلوا بالأوراق التى قدمت وعقمت معارفها أوراقاً جديدة تحوى المعارف الجديدة وتبقى الموسوعة بهذه الطريقة يطرد تجددها على مدى السنين .

وهذا الاستبشار بالمستقبل يملأه طرباً . فهو داعية حب وخير

وإيمان حتى ليكتب عن الكوارث التى وقعت بأيوب، وهو أيوب عصرى، وليس توراتيًا، بحيث يذهب المال والولد والنسل والضرع، يذهب كل شيء ولكن يبقى الإيمان. الإيمان بالله ملك الملوك.

ثم تأتى الحرب الكبرى الأولى فيخمد شي من هذا اللهب. ولكن يبقى منه شيء كبير. إذا هو يؤلف لنا فى عام ١٩١٩ تاريخًا للعالم كله يقول فيه إننا أمة واحدة، وإن هذه الدنيا قريتنا الكبرى التى يجب أن ننظمها ونخطط حركة المرور فيها. وإننا يجب أن نتهيأ لإيجاد حكومة واحدة مع إدارة عامة موحدة للتعليم فى دول الدنيا. ولكن بعد عشر سنوات نرى هذا الاستبشار بالمستقبل يتقهقر، فهو غاضب حانق يائس وهو يدعونا إلى مادية صرفة، مادية منظمة يتوافر فيها الطعام والمسكن والمعرفة. ويقول إن هذا هو الدين. وبعد أن كان يستخرج من التوراة شخصية معذبة ينقلها إلى عصرنا ويثقلها الهموم والمتاعب وينتهى بها بعد كل ذلك إلى الإيمان والرضى والفرح، يعود بعد عام ١٩٣٠ فيجمع أشياء أخرى من التوراة يهاتر بها ويسب ويقدح. حتى إذا بلغ عام ١٩٤٥ يعمه اليأس العلمى الذى كان أساس الأمل من قبل، فيتحدث عن انقراض البشر بالقنبلة الذرية.

* * *

لقد عشت مع هذا الإنسان وأحببته، وإليه أعزو روح الجد فى برنامجى الثقافى والآفاق الموسوعية فى معارفى، والاتجاه الدينى الذى أتجهه فى الصحافة فضلا عن التأليف. فإنى أدرس جغرافية هذا العالم وتاريخه بالروح الدينى، واهتمامى بما يجرى فى إسبانيا على أيدى الفاشيين، أو فى الصين على أيدى الشيوعيين، يفوق اهتمامى بشئونى الشخصية.

وأحداث العالم الكبرى يزيد وقعها فى نفسى على الكوارث التى تقع بشخصى . ومشكلة القنبلة الذرية هى أكبر من أن أقول إنها مشكلة لى . ولم أكره ولز إلا فى يوم واحد . وذكرى لهذه الكراهة يدل على أنها حزت فى نفسى حزًّا لم يبرأ إلى الآن ، ذلك أنه قال فى مقال صحفى إنه لو كان على سفينة ومعه برناردشو وبافلوف العالم الروسى ثم تعرضت السفينة للغرق واضطر إلى الاختيار بين إنقاذ شو أو إنقاذ بافلوف لأنقذ بافلوف دون شو !

وآلمتنى هذه الكلمة كما آلمت برناردشو كثيراً حتى إنه كررها فى مضض . وعندى أنه لو كانت نفس برناردشو من ذهب فإن نفس ويلز من طين ، حتى لو قيل لى إن الطين أنفع من الذهب . وأستطيع أن أقول لروح ويلز : أنت روح من طين ، لأن ويلز لم يجن هذا الجنون المقدس الذى رأيناه من شو فى حادث دنشواى . أين كانت بشريتك التى تزعم أنها ديانتك السياسية حين شنق أبناؤنا وجلدوا أمام أمهاتهم وأبنائهم وزوجاتهم وآبائهم ؟ لقد كنت أخرس حين نطق ، بل حين صرخ برناردشو .

وبافلوف عالم سيكولوجى ، وشو أديب . ولكنه فى أدبه يعلو على العلم ، ونزعة ويلز العلمية هى التى أسقطته هذه السقطة .

- نشأ ويلز فى بدرون الحياة الاجتماعية إذ كانت أمه خادمة فى منزل لأحد الأثرياء ، وأول ما يذكره من ذكريات الطفولة هو رؤيته لأحذية الناس وهم يسيرون على طوار الشارع وهو قاعد فى أسفل الطبقة البدرونية يتطلع من النافذة إليهم فيرى أحذيتهم دون وجوههم .

وله كتاب أو رسالة تدعى « تعس الأحذية » .

واستطاع أن يتعلم ويصل إلى كلية العلوم حيث تخصص فى البيولوجية

« أى علم الحياة » وألف كتاباً عن تشريح الأرنب . وكان الدكتور هيوم، الذى كان يدير مصلحة الجيولوجيا فى حكومتنا ، زميله فى الكلية .

وحوالى عام ١٨٩٠ حين شرع ويلز يكتب كانت الأصداء للمناقشات الفلسفية والعلمية لنظرية التطور تتردد فى ذهنه ، ومن هنا مؤلفاته الأولى التى تنزع إلى الخيال العلمى وتجرى على نسق « جول فيرن » ، وإن تكن على مستوى أعلى . وهى تتدرج من التافه مثل قصة « طعام الآلهة » إلى الجليل مثل « حرب العوالم » .

ورويداً رويداً ينجذب العالم ويلز إلى الأدب والفلسفة والاقتصاد والسياسة بضغط الحوادث ، إذ هو يعيش فى مجتمع حى ويقرأ صحفاً مرآوية تنقل إليه صورة العالم المعذب بالإمبراطورية البريطانية والاستعمار الفرنسى ، والتعطل الذى يشق ملايين العمال ، والجهل الذى يعم الفقراء ، والمرض الذى يبليهم ، فيشرع فى الدراسة وينتهى إلى تأليف كتاب « عوالم جديدة للقدامى » يقول فيه إن العلاج الوحيد للعالم هو الاشتراكية وليس شىء غير الاشتراكية .

وهنا يتعين موقفه . فهو اشتراكي ارتقائى يسارى . وعندئذ يدعوه زعماء الجمعية الفابية كى يكون عضواً فيها حتى تنتفع بمواهبه الأدبية فى نشر الاشتراكية . ويدخل الجمعية ويلقى المحاضرات ، ولكنه يصطدم ببرناردشو وينهزم فيخرج من الجمعية . فهذه هى الحزازة الأولى بين الأديبين ، وقد تركت على لسانه مرارة جعلته ينطق بتلك الكلمات الحاقدة عن موت برناردشو وحياة بافلوف .

وكان الخلاف بشأن برنامج الجمعية ، فإن ويلز أصر على أن يكون ضمن هذا البرنامج وفى أساسه تحرير المرأة . والتحرير هنا يزيد عشرة أضعاف على مايفهمه القارئ المصرى عن معنى التحرير . وعارض برناردشو

هذا الاقتراح لا لأنه يكره التحرير بل لأنه كان يرى أن الجمعية يجب أن يقتصر نشاطها على نشر الاشتراكية ، وحسبها هذا دون التطلع إلى أية دعوة أخرى .

حدث هذا حوالى عام ١٩٠٦ ، ومن ذلك العام إلى يوم وفاته في عام ١٩٤٥ نجد فى ويلز المجاهد المتوسع فى جهاده ، وجهاده هذا للعالم وليس لبريطانيا وحدها فهو يدعو إلى إيجاد قانون أساسى عام ينص فيه على حق كل إنسان . فلكل إنسان الحق فى العيش وفى العمل ، كما أن له حق التفكير والعمل ، وكذلك الحق فى المعرفة . أى يجب أن يتعلم .

وهو يدعو إلى ارتباطات ونظم عالمية لا تزال فى نمو وارتقاء حتى تتقلص الحكومات العديدة القائمة وتزول فى حكومة عالمية واحدة وهو يدعو إلى إيجاد قانون عام لصيانة الثروات العامة باعتبارها ملكاً مشاعاً للأمم ، للبشر . أى يجب أن يحافظ على مناجم الفحم فى إنجلترا أو عيون البترول فى إيران ، وغابات أفريقيا والهند ، ووحوش الغابات ، باعتبار أن كل هذه الكنوز إنما هى ملك عام مشاع للبشر . وليس لأمة أن تستأثر بواحد منها .

وهو يطلب التنظيم العلمي للإنتاج ، ويذكرنا أن مدينة برمنجهام وحدها تستخدم من القوة فى أيامنا لإنتاج مصنوعاتها مقدار ما كانت تستخدمه بريطانيا جميعها أيام الملكة إليصابات حوالى عام ١٦٠٠ ، وأن العلم هو الذى أدى إلى ذلك وأننا حين نستخدم العلم فى الزراعة والصناعة والبناء فى أقطار العالم فإن الجوع يزول كما أن الوقت يتوافر لجميع أبناء البشر كى يهنأوا بالسعادة وكى يتعلموا طوال أعمارهم .

والتعلم هو وسواس ويلز ، وسواسه النبيل ، فإنه يرى أن التنظيم العلمى لأحوال عالمنا جدير بأن يهئ الفرصة لكل إنسان كى يحظى بتعليم جامعى .

وبداية هذا التعليم هو إخراج الموسوعة التى أشرنا إليها .

لست أشك فى أن هناك من يحبون أن يسألونى حين أكتب عن أحد الأدباء عن قيمته الفنية ، وإذن ما هى قيمة ويلز الفنية ؟

وجوابى أن الفن ، أى العناية بالتعبير الجميل وتصوير الأهداف والصور الجميلة ليست فى ويلز أوشو أو تولستوى أو أى أديب آخر أحببته ، وإنما أحببته لأنه انغمس فى مهمة أكبر وأخطر وأجل وأسمى من هذا الذى يسميه البادئون والذاهلون والمموهون فنًّا .

أين يكون الفن فى حبل المشنقة الذى يمسح بالصابون كى يأخذ بعنق المشنوق ، ويضغطه كما يقول تولستوى ؟

أين يكون الفن فى البغى تبيع عرضها لكل قادم كى تجد القروش التى تأكل بها كما يقول برناردشو ؟

أين يكون الفن فى ويلز وهو يكافح من أجل التنظيم العالمى ويبحث الوسائل لإلغاء الحروب والجوع والجهل ؟

الحق إن قصص هـ . ج . ويلز ودرامات برنارد شو هى جميعها لإبراز الأفكار ، وليست لإبراز الأشخاص . وهى جميعها لعرض المشكلات وليست للفن .

لقد عالج هؤلاء المؤلفون أقذارنا وقروحنا ، ولطخوا أيديهم فى المعالجة بالوحل والدم ، كى نتعلم النظافة والصحة ، فلم يجدوا مع الوحل والدم مجالا للفن .

فإذا ذكرت لى أن دستوفسكى قد عالج الوحل والدم وكان مع ذلك فناناً ، فإنى أجيب بأنه لم يكن من البشر . إنه كان قديساً فوق البشر .

وأخيراً يجب أن نختم الكلام عن ويلز بأن نتعمق قلبه ونسأل عن إيمانه وديانته .

والقارئ لمؤلفاته العديدة يستطيع أن يقول إن هذا الإيمان أو هذه الديانة هما العالمية أو البشرية من حيث إن تنظيم العالم يؤدى فى النهاية إلى خدمة البشر . وقد انتهى إلى النفور من الغيبيات ، بل إلى القول بضرورة مكافحتها وألف فى ذلك رسائل وكتباً . وعند ويلز أن الدين ، وهو الدين البشرى ، ضرورة حتمية للنفس ، وهو يعرفه بأنه تشوف الإنسان إلى ما هو أعلى منه وسعيه لمصلحة عالمية تعلو على مصلحته الشخصية . وهو يقول هنا إنه ليس هناك هناءة أو سعادة إلا حين نلغى ذواتنا ومصالحنا فى سبيل ذات ومصلحة تعلوان علينا . وهذه الذات هى البشرية جميعها وهذه المصلحة هى العالم كله .

والهدف الذى يهدف إليه هذا الإيمان هو بكلمات ويلز نفسها :
« الانتصار المتدرج على الجوع والعطش والمناخ والمادة ، والقوة الآلية والألم الجسمى أو العقلى ، والفضاء والمسافة والوقت . وعلى الأشياء التى تبدو لنا كأنها قد فقدت فى الماضى ، وكذلك على الأشياء الممكنة فى المستقبل . وسيبقى نوعنا ، النوع البشرى ، فى امتداد هذا الكون الأوسع كى نعيش فيه على وجدان أكبر .

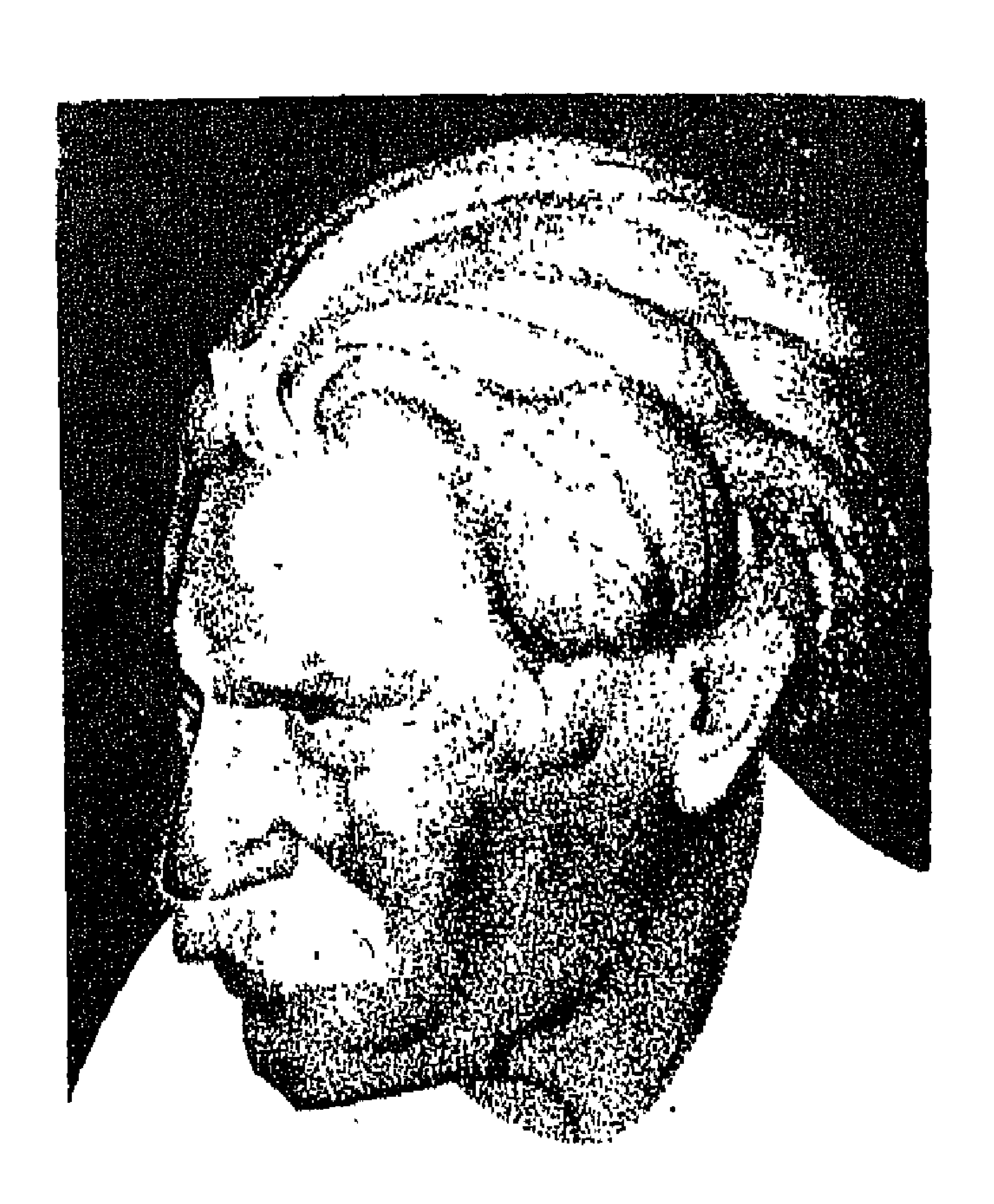
كلمات مادية صرفة ، ولكنها تهدف إلى خدمة البشر . فاختراع آلة « لتكييف الهواء » هو انتصار على المناخ ، فهو دين . ومخترع البنسيلين هو رجل دين أيضاً لأنه تغلب بهذا العقار على ألم جسمى أو عقلى .

فإذا سألنا ويلز : ماهى هذه البشرية التى تهدف فى ديانتك إلى خدمتها ؟ لأجاب بأنها البشرية المتدرجة فى التفوق ، وقبل سنين دعته جريدة الماتان الفرنسية إلى أن يدلى برأيه بشأن المشروع الذى كانت تعده الحكومة كى تصدر قانوناً لمساعدة العائلات على زيادة التناسل فكتب يقول بأن الآباء الذين يستحقون هذه المساعدة هم الأكفاء جسما وعقلا. أما من كانوا غير أكفاء ، أى من كانوا ناقصين فى صحة الجسم أو صفاء العقل ،

فليس من المصلحة البشرية أن ندعوهم إلى زيادة التناسل . وهذا اتجاه تطورى دارويني . أجل ، إن نظرية التطور قد غمرت العالم المثقف بروح ديني جديد لأن الإنسان يجب أن يعلى عليه إذ هو معبر بين الفرد والسبرمان .

ويلز فيلسوف الصحافة ، هو ثمرة الاندفاع العلمى فى القرن التاسع عشر ، قد وجد فى ديمقراطية القرن العشرين الجديدة ميداناً لتعاليمه . لأن هذه الديمقراطية عممت التعليم بالمدارس . حتى أصبح العالم الإنجليزى يطبع فى العام أكثر من عشرين ألف كتاب جديد ، وهذا زيادة على مئات الجرائد اليومية والمجلات التى تعلم وتثقف هؤلاء المتعلمين الديمقراطيين . وكان ويلز قوة توجيه لهم . وكانت النبرة العالية فى صوته هى : هذا العالم هو عالمنا ، هو قريتنا . هو حديقتنا . وعلينا أن نصلحه وننظمه .

وإنى أكتب هذه الكلمات فى صبيحة أول يناير من عام ١٩٥١ اليوم الأول من النصف الثانى من القرن العشرين فأحس كلمات ويلز بل أحس قوة الصدق فيها . ذلك أننا قبل أربعين أو خمسين سنة كنا نقول إن حرباً قد تقع بين دولتين أو ثلاث دول لاشأن لنا بها ، ولكن هذا القول لم يعد يصدق فى أيامنا . فإن حرباً تقع بين روسيا وأمريكا هى حرب أهلية للعالم كله ، هى قتال جنونى يشتبك فيه جميع سكان هذه القرية ، هذا العالم ، فى تشنجات دموية تزلزل وتحطم . . . هذه هى عبرة ويلز وهذه هى رسالته .



شفايتزر
صديق الزنوج

السيكلوجية هى التجسس على النفس". وقد تعودت . بما كسبته من الدربة السيكلوجية ، أن أتجسس على المؤلفين وأن أسأل عن حياتهم ومكانتهم الاجتماعية ، وتربيتهم ، حين أرغب فى الوقوف على البواعث التى حملتهم على الدعوة إلى فكرة معينة أو اتخاذ أسلوب خاص . ثم كثيراً ما أحس ، كما سبق لى أن أشرت إلى ذلك ، أن حياة المؤلف هى نفسها كتابه الأول ، وأنه إذا لم يكن قد أحسن تأليفها فإنه لن يحسن شيئاً آخر . وأن مشكلاته الخاصة التى عاناها فى حياته هى نفسها المشكلات العامة التى عالجها فى مؤلفاته .

اعتبر مثلا تولستوى . فإنه جحد مناعم الحضارة ، والانغماسات الكثولية والجنسية ، وحياة الترف والثراء . بل إنه بعد أن قضى سنى

النضج والإيناع وأخرج المؤلفات الفنية البديعة ، عاد فجحد الفن وعده استهتاراً يجب أن نتجنبه وأن نقنع بسذاجة العيش بل بالفقر والكفاف .

وكل هذه المؤلفات كانت ثمرة حياته أو مرآة حياته . فقد انغمس فى اللذات الجنسية أيام شبابه ثم نفضها وجحدها . ولكنه أحس من التوترات ما جعله يكافح جسمه ويضغط أعصابه . وكانت مؤلفاته تفريجاً أو شرحاً أو علاجاً لهذه التوترات والضغوط . وكان يقول بأننا يجب أن نتجنب المرأة إلا بغية التناسل . ثم كان ينهزم أمام هذا العزم فيطلب زوجته ويترضاها . وبلغ من كراهته للفن أن قاطع تأليف القصة باعتبارها تسلية وخيمة تنأى عن جد الحياة . ولكنه ، وهو فوق الثمانين ، كان يؤلف القصة ثم يخبئها فى درج المنضدة . وكان يحاول أن يعيش بالكفاف ، وأن يحترف صنع الأحذية وأن ينزل عن أرضه للفلاحين . ولكنه كان ينهض فى الفجر و « يأمر » خادمه بأن يلجم جواده ويخرج به إلى الحقول فيعدو به فى وجه الريح ويلتذ هذه « السيادة » على الأرض بل هذا الكفاح للريح والطبيعة .

وليس شك أنه كان ، بعد أن يعود إلى غرفته ، يندم على ضعفه ويحاول أن يكفر ، لا بل أن يربى نفسه من جديد ، فيخرج من درج المنضدة المشرط والأديم كى يصنع حذاء سخيفاً ركيكاً لأحد الفلاحين .

وما أعتقد أن حملته على شكسبير كانت إلا تفريجاً عن إحساسه بالخطيئة التى كان يرتكبها هو بانغماسه فى الفن . فإن شكسبير كان فناناً عظيماً ، وكان تولستوى فناناً عظيماً أيضاً ، وقد رأى صورته فى شكسبير فلعن فى شخصه هذا الشاعر الإنجليزى العظيم . وهو إنما كان يلعن نفسه ويحاول التخلص من هذه المتناقضات التى كانت تحطم أعصابه . وأى تناقض أكبر من هذا الانفصال بين ناس يعيشون فى ترف الفن يؤلفون الأشعار والقصص ، وبين الملايين الكادحة التى تحيا بلا حياة وبلا فن ؟

إن عقولنا تزداد فطنة وبصيرة حين نتعمق حياة المؤلف ونسأله . من أين لك هذا ؟ .

من أين لك هذه الأفكار ؟ وما هى الأحداث التى نزلت بك ثم أنتجت هذه الأفكار فى مؤلفاتك ؟ ومن أين لك هذا الأسلوب ؟ وما هى العلاقة بينه وبين مكانتك الاجتماعية ؟ هل أنت من الشعب تخاطب الشعب بلغته؟ أم أنت فى مكانة اجتماعية عالية تعاو على الشعب فتتعالى عليه بأسلوبك ؟

إنى حين أجد مؤلفاً يبغض التعصب الدينى ، ويكافح الغيبيات ، ويدعو إلى مذهب العقليين ، ويقول بضرورة الاشتراكية ، أسأل : هل هو فرد فى طائفة من طوائف الأقليات تعانى ضغطاً اقتصادياً أو اجتماعياً بحيث يحب هذه المبادئ وينقلها إلى الوجدان الفنى ؟ أليست علة ذلك أنه قد أحس أن الغيبيات تفصل بين البشر ، وأنه لذلك بشرى العقيدة اشتراكى المذهب ؟

واعتقادى أنه إذا كان رجل السياسة مكلفاً أن يجيب عن سؤالنا : « من أين لك هذا ؟ » بتقديم الحساب المفصل عن ممتلكاته ، فإنه يجب على الأديب أن يجيب عن مثل هذا السؤال بأن يكتب تاريخ حياته حتى نفطن إلى البواعث ونتعمق الأسرار ونتربى ونستبصر بكوارثه .

* * *

ولكن هناك من المؤلفين والمفكرين من لا يحوجنا إلى مثل هذا السؤال لأن حياتهم مكشوفة . وقد كشفوها هم بأعمالهم أو كفاحهم . ولذلك نحن نقرأ سيرتهم فى هذه الأعمال أو هذا الكفاح لنسترشد ونتعلم ونقتدى ، فضلاً عن النور الذى نستضىء به من مؤلفاتهم . وهذا هو الشأن فى ألبيرت شفيتزر .

هو مؤلف فى الأدب والاجتماع والفلسفة والمسيحية قد استطاع أن ينير الأذهان ويهذب الحيوان فى الإنسان . ولكنه زيادة على المؤلفات قد عمل وكافح ، حتى إننا لنجد فى هذا الكفاح ما يغنينا عن قراءة مؤلفاته ، كما نجد فى كفاح غاندى ما يغنينا عن مؤلفاته .

قضى شفيتزر قرابة أربعين سنة وهو فى « لا مبارينيه » فى سنغال الفرنسية بأفريقيا الغربية يعالج أمراض الزنوج بالمجان ، ويجمع لهم التبرعات من أوربا وأمريكا .

وقد بنى لهم مستشفى ، وأعد له كل ما يحتاج إليه من عتاد صحى وعلاجى إلى الأطباء الذين أقنعهم بترك أوربا والرضا بالعيش لخدمة المرضى من الزنوج فى شمس أفريقيا المحرقة .

وكان هذا عملا جليلا أرصد له حياته ، وعاد إلى بلاده وهو أعمى إذ لم تتحمل عيناه شمس أفريقيا . ولكنه عاد بعد أن أنجز وعد حياته كما ينجز أحدنا وعداً من وعود المجد والشرف والإنسانية .

وهو يقيم هذه الأيام (عام ١٩٥١) فى قريته القريبة من « استراسبورج » ينتظر الموت بعد أن جاوز الثمانين .

كان ألبرت شفيتزر صبياً ألمانياً نشأ فى أسرة ألزاسية حيث تتاخم ألمانيا فرنسا ، وأحياناً تخالطها . وكانت نية أبويه أن ينشأ نشأة دينية . وقضى ألبيرت تلمذته والتحق بالجامعة فى استراسبورج وحصل على الشهادة الجامعية فى الإلهيات ، ولكنه طوال دراسته يكب على الموسيقا دراسة ومرانة . ونبغ فى العزف على الأرغن ، وهو أكبر آلة موسيقية لاتخلو منها كنيسة كبرى فى أوربا . واحتضان الكنائس للموسيقا قد رفع من قيمة هذا الفن وأكسبه الاحترام الذى لانجده للأسف فى بلادنا .

وكان يحصل من العزف فى الكنائس على أرباح كبيرة . وذاع اسمه -

حتى كانت الكنائس الكبرى تدعوه فى الأعياد والحفلات . وله مؤلفات عن باخ وعن الموسيقا تعد صفحاتها بالآلاف .

وإلى هنا ويتساءل القارئ : رجل حصل على الثقافة وعلى الحرفة وعلى الكسب ، ما الذى بقى من حياته يذكر فيؤثر ؟

والجواب أن الباقى كان كل شىء . فإنه جحد حياته الماضية كلها وآثر عليها كفاحاً إنسانياً يحتاج إلى الدم والدموع ؟

فقد تساءل شفيتزر وهو شاب : ماذا أفعل كى أخدم الزنوج الذين سحقهم الاستعمار ، البريطانى والفرنسى والهولندى والبلجيكى ، وكيف أستطيع خدمتهم ؟

وأجاب المبشرون بأنه يمكنه أن يرحل إلى أفريقيا حيث يبشر الوثنيين من الزنوج بالمسيحية . أليس هو دكتور فى الإلهيات ؟

ولكنه أحس مرارة التهكم فى هذا الاقتراح . فإنه كان يعرف ، بل يوقن ، أن كثيراً من المبشرين كانوا أعواناً للاستعمار . وزيادة على ذلك تساءل هو : كيف نقدم للزنوج تعاليم المسيحية وهم قد عرفوا أن هؤلاء المسيحيين الذين تعلموا هذه التعاليم هم أنفسهم الذين ينهبونهم ويذلونهم ويحرمونهم الثقافة والمدنية والعدل والشرف ؟

لا . إنه لن يكذب عليهم ، ولن يزعم لهم أن المسيحيين المستعمرين أشراف . وإذن ماذا يفعل ؟

لقد بلغ الثالثة والثلاثين ، وكل ما يحذقه من المعارف دراية ومرانة عظيمتان فى فن الموسيقا . وأيضاً فقهيات جدلية فى المذاهب المسيحية . وأنها لسوف تكون سخرية حقاً أن يقصد إلى الزنوج ويعرض عليهم هذه البراعات !

لا إنه لن يفعل ذلك ..

وحزم رأيه ، ثم حزم أمتعته ، ورحل من ستراسبورج إلى باريس . وهناك عاد تلميذاً ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، والتحق بكلية الطب .

إنه حين يكون طبيباً يستطيع أن يرحل إلى أفريقيا وأن يعالج المرضى من الزنوج حتى يعرفوا أن بين الأوربيين من يواسى جراحهم ويعالج أمراضهم كما عرفوا من آلاف الاستعماريين المجرمين .

وبعد أربع سنوات نال شهادة الطب . فحزم رأيه وحزم أمتعته ورحل إلى لامبارينيه فى سنغال الفرنسية ، وهناك أسس مستشفى ، وأقام مع زوجته يخدمان الزنوج نحو أربعين سنة عاد بعدها فى سنة ١٩٤٩ إلى قريته التى عرفها وهو صبى بالقرب من ستراسبورج . عاد وهو أعمى .

وإلى هنا نستطيع أن نقتنع بأننا عرفنا إنساناً بارًّا بالإنسانية .

ولكن شفيتزر ، كما كان رجل عمل وكفاح ، كان مفكراً عميقاً يبحث ويستقصى ويحاول أن يهتدى إلى يقين . ومن هنا مؤلفاته العديدة . فقد ألف عن الموسيقا . ثم ألف عن المسيح وحوارى المسيح بولس.

ولا بد أنك ، أيها القارئ ، ستقول إن ها هنا إنساناً مسيحيًّا قد درس الإنجيل وعمل بتعاليم المسيح . وهذا حق . ولكنه ليس كل الحق .

ذلك أن شفيتزر ألف كتاباً عن المسيح الذى أحبه ،وعمل بتعاليمه . ولكنه عالج حياته بمشرط فرويد بما لا يرضى المسيحيين . وقد قرأت الكتاب وأحسست وأنا فى الفصول الأخيرة أن الحلوى التى كنت ألوكها بلسانى قد استحالت إلى علقم مر لا أسيغه ولا أطيقه ، ولكنه ، أى شفيتزر ، يقول ، وكأنه يحس برعشة الاشمئزاز الذى أحدثه تحليله السيكلوجى القاسى : وماذا علينا أن نؤمن بالفلسفة العظيمة حتى ولو كان داعيها ..

إنها مأساة . وإننا نحن البشر لا نطيق كل الحق ...
وإذن ما هو اليقين الذى يستند إليه شفيتزر ؟

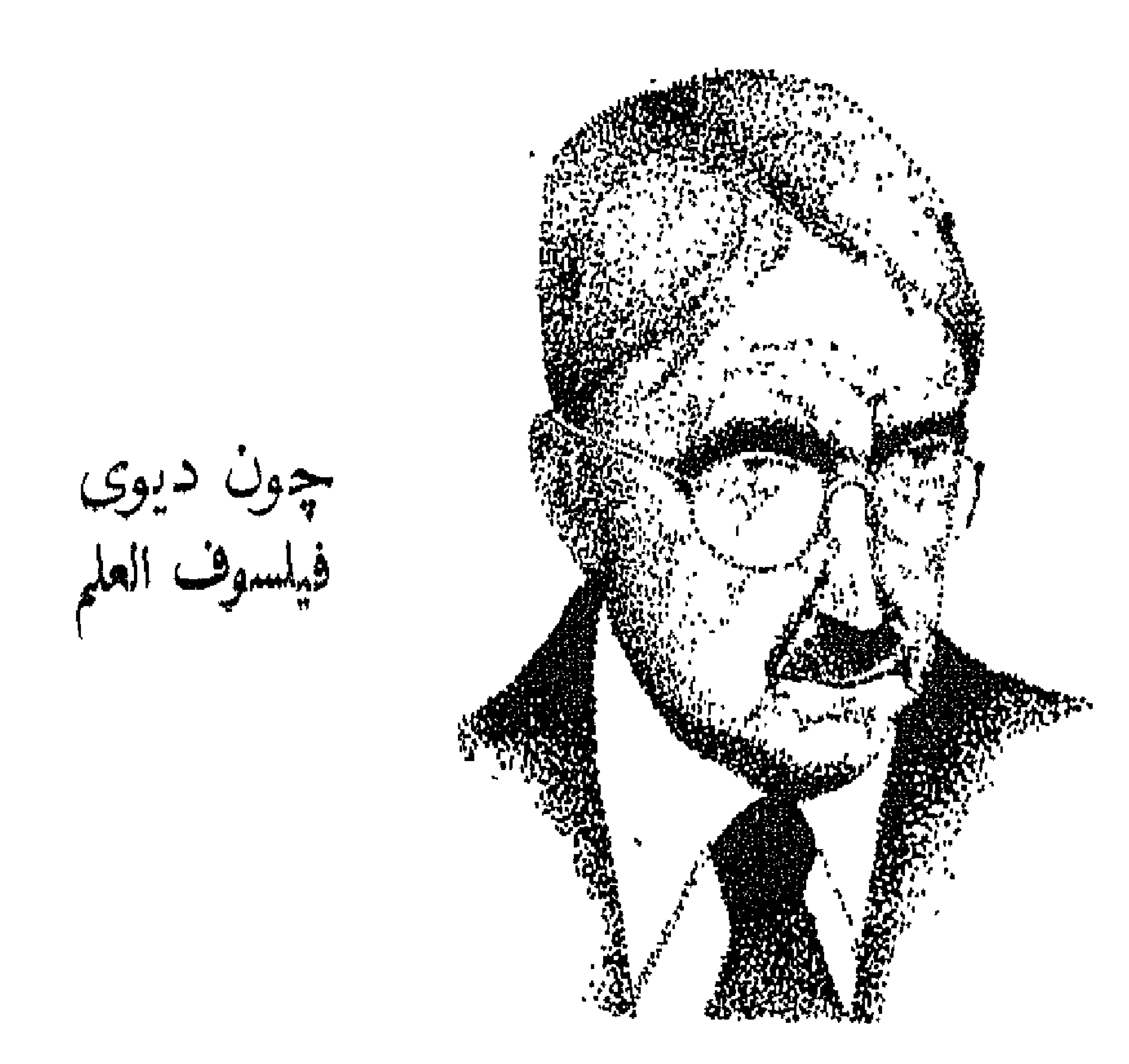
ما هو اليقين الذى يحمله على أن يترك الثراء والمجد والراحة والمدنية ويرحل إلى أفريقيا ، ويقضى هناك أحسن سنى عمره فى خدمة الزنوج بعد أن يستعد لخدمتهم بالدراسة أربع سنوات فى جامعة باريس ؟

هذا اليقين هو احترام الحياة . إننا يجب أن نحترم الحياة كائنة ما كانت ولا نقتل نملة إلا إذا حتمت الضرورة ذلك .

ألسنا نحن الأحياء جميعاً ، من العشب الذى ندوسه إلى الجواد الذى نركبه ، إلى الكلب الذى يرافقنا ، إلى الشجرة الخضراء ، ألسنا جميعاً ننتمى إلى أصل واحد ونسير فى موكب التطور نحو المستقبل ؟

ثم احترام الحياة هو مفتاح يهيئ لنا التفكير السليم فى تطور المجتمع البشرى ، فهل نقنع من شفيتزر بذلك ؟ إنه يستطيع أن يقول انظروا إلى حياتى .

لقد أحببت شفيتزر على الرغم من العلقم الذى ملأ به فمى . وعلى الرغم من السحب الباهرة الناصعة التى أحالها إلى قتام أسود . ورضيت وأنا كاره أن أستمع بعقلى إلى أقواله ، كما هدأت نفسى إلى عجزى عن الرد عليه . وتقبلت دعوته إلى الحياة فى ترحيب وسرور ، لأن دراستى للتطور قد جعلتنى على إحساس عميق بوحدة الحياة نباتاً وحيواناً وإنساناً . ثم هو بعد كل هذا ، لم يعترض بكلمة واحدة على سمو الأخلاق التى دعا إليها المسيح .



چون ديوى
فيلسوف العلم

كنت أتحدث ذات مرة مع الدكتور كليلاند مدير الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن مركب أوديب أو مركب النقص لا أدرى ، فأنصت إلى ثم رفع عينيه فى وجهى يسأل فى خبث : هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع ؟

وبهذا السؤال أفحمنى وأضحكنى معاً .

فإنى أحسست أن السؤال أمريكى ، هو سؤال ينبع من الوسط الأمريكى الذى يعتمد على العلم ، ويحيا على أساس المعارف العلمية ، وهو التجربة . والإحصاء يقوم فى علم الاجتماع مقام التجربة فى الطبيعيات أو الكيمياء من العلوم المادية .

ويجب أن نسلم بأن الكثير من معارفنا السيكلوجية لم يرتفع إلى مقام

العلم . وقصارى ما نقول عن هذه المعارف إنها « فروض » ننتفع بها فى تفكيرنا . وأن هناك ما يرجح صحتها لأننا ، حين نعمل بها ، نجد النتائج الحسنة .

ولكنها ليست علماً ، وإنما العلم هو ما قام به بافلوف الذى جرب التجارب فى الكلاب واستنتج النتائج . هو أيضاً تلك الحقائق التى استطاع السيكلوجيون أن يستخرجوها بالإحصاء بالتجارب التى قاموا بها بين الطلبة ، أو العمال ، أو الأزواج ، أو المسجونين ، أو نحوهم .

والعلم هو شىء جديد فى عصرنا . إذ ليس هو محض التفكير والاستنتاج . وإنما هو التخيل أولا ، ثم التجربة باليد ، ثم التفسير بما يتلاءم مع النتائج من هذه التجربة .

وشيوع الأسلوب العلمى فى أيامنا قد جعل الفلاسفة والأدباء يتشككون فى قيمة ما يمارسون من فلسفة وأدب ، ولذلك أصبحت الفلسفة « تجريبية » .

وصاحب هذا الرأى أو هذه الدعوة إلى اتخاذ الأسلوب العلمى فى الفلسفة هو جون ديوى الذى مات قبل سنتين والذى يعد من أكبر الفلاسفة الأمريكيين ، كما أنه مؤسس المدارس « الارتقائية » الجديدة التى دعا فيها إلى أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً يمثل المجتمع الذى سيعيش فيه التلميذ أو الطالب بعد ذلك . وفلسفته عن التعليم تندغم فى فلسفته عن الحياة .

وأنا أحاول هنا أن أشرح فلسفته التى تأثرت بها ، والتى ما زلت أسترشد بها وأعتمد على أسلوبها فى حياتى الذهنية .

وأبدأ بما أستطيع أن أسميه « مفتاح » التفكير الفلسفى « ديوى » وهو أنه ليس فى هذا الكون ، شىء كائن ، أى ثابت لا يتغير . لأن كل ما فيه

من ناس أو حيوان أو نبات أو جماد هو أشياء « صائرة » أى أنها فى تغير لا ينقطع . أو بكلمة أخرى هى فى تطور .

نحن ، وكل شىء حولنا ، فى صيرورة تغير ، ولسنا فى كينونة ثابتة .
واعتقادى أن الذى غرس هذه الفكرة فى الأذهان العصرية هو داروين حين أثبت أن التطور هو الأصل والمبدأ فى عالمنا .

ومادام التغير أو التطور هو الأساس لوجودنا فيجب لذلك أن نقول بالتجربة أى التجربة فى الفلسفة ، والتجربة فى الاجتماع ، والتجربة فى التربية .

ذلك أن مجتمعنا ليس نهائياً ، إذ هو سيتطور . ومادام هذا شأنه يجب أن نتناوله بالتغير كلما وجدنا الحاجة إلى هذا التغيير .

هذا هو المفتاح الأول . أما المفتاح الثانى الذى يفتح لنا أبواب الفلسفة عند ديوى فهو أن الفصل بين الماديات والمعنويات الذى قال به أفلاطون ليس حقيقة وإنما هو وهم . فالمادة والروح ، والجسم والعقل ، والفكرة والمادة ، كلها شىء واحد .

وهو يجبهنا بالقول بأننا لم نعرف قط عقلا بلا جسم ولا فكرة بلا مادة .

أما المفتاح الثالث فهو التسليم بأن معارفنا عن الكون والأشياء موقتة ، أى لوقتنا أو لعمرنا هذا فقط . وهى ليست نهائية . ولا نستطيع لذلك أن نقول إنها صادقة . لأن هذه الأشياء فى تطور . وقصارى ما نستطيع أن نقوله عن المعارف البشرية إنها « آلة » و « وسيلة » نفهم بها الأشياء . وغاية هذا الفهم غير النهائى إنما هى التسلط على الطبيعة واستغلالها لمصلحة البشر .

لو كانت الأشياء ثابتة ، ولو كان الكون ثابتاً ، ولو كانت عقولنا

ثابتة ، لكان فهمنا لهذه الأشياء ثابتاً نهائياً . ولكننا نحن جميعاً فى صيرورة ، نصير ونتغير ، ولذلك فإن هذا الفهم أيضاً سيتغير ولا يمكن أن يكون نهائياً .

وما عندنا من فهم عن الكون والأشياء إنما هو صورة وقتية ننتفع بها، ويجب أن ننتفع بها فى استخدام قوى الطبيعة لمصلحة الإنسان . لا . ليست الغاية من الفلسفة أن نعرف أسرار الطبيعة ، وإنما هى أن نستخدم قوى الطبيعة .

أما المفتاح الرابع فهو أن الذكاء البشرى اجتماعى .

فما عندنا من أفكار وآراء وعقائد، وعواطف ، وفلسفات ،إنما مرجعها جميعها إلى المجتمع الذى نعيش فيه ، وكان يمكن ديوى هنا أن يقول إن اللغة اجتماعية وإنها الوسيلة للذكاء إذ لا يستطاع التفكير بلا لغة .

هذه هى الأسس لفلسفة ديوى التى يسميها « الآلية » أى أن الفلسفة يجب أن تكون آلة أو وسيلة للفهم وللتسلط بهذا الفهم على الطبيعة .

وربما يكون من الحسن أن ألخص هذه الأسس الأربعة فيمايلى :

١ ــ أننا وكل شىء حولنا فى صيرورة ولسنا ثابتين على حال لا تتغير .

٢ ــ كل ما فى هذا الكون هو وحدة لا تنقسم . فليس هناك فرق بين الماديات والمعنويات ، ولا بين الحياة والمادة ، ولا بين الجسم والعقل . بل ليس هناك عقل مستقل أو نفس مستقلة .

٣ ــ معارفنا عن الأشياء موقتة ، إذ هى فى تغير كما أن عقولنا التى نعرف بها فى تغير .

٤ ــ الذكاء البشرى اجتماعى أى أننا ننبعث بنظرياتنا وعقائدنا وأفكارنا بقوة الإيحاء الاجتماعى الذى ينغرس فى نفوسنا فى المجتمع الذى نعيش فيه .

هذا هو ديوى الفيلسوف ، فما هو ديوى المربى ؟

إن شهرته فى التربية أكبر من شهرته فى الفلسفة . وقد دعته تركيا وروسيا والصين كى ينظم لها وسائل التعليم . وإليه تعزى هذه الأساليب الجديدة فى التعليم فى الولايات المتحدة نفسها .

التربية عند ديوى هى النمو الذهنى . ولكن لما كان الذهن . فى كل حال ، اجتماعيًّا ، فإن المدرسة يجب أن تكون اجتماعية . فإذا كان المجتمع الأمريكى مثلا يتنقل أفراده بالسيارة فإن التلميذ يجب أن يتعلم قيادة السيارات . وإذن يجب على المدرسة أن تخلق لتلاميذها اختبارات اجتماعية بحيث يختبرون ويحاولون حل المشكلات كما لو كانوا كباراً على اهتمام يقظ بكل ما يحدث فى بلادهم بل فى الدنيا أيضاً .

المدرسة عند ديوى هى جنين المجتمع .

وحين تنطوى المدرسة على نفسها ، وتعلم النظريات وتلقى الدروس التى لا علاقة لها بالمجتمع العصرى ، حين تفعل ذلك ، تعود بالضرر على تلاميذها . ولهذا يجب ألا تنقطع بتاتاً عن الاتصال بالمجتمع .

وقيمة المدرسة عند ديوى تقاس بدرجة ما تخلقه فى التلميذ من الرغبة فى النمو . وهذا النمو هو فى النهاية تجدد ذاتى ، وهو دؤوب فى التوسع الذهنى بالاستطلاع والاختبار والدرس .

وكان أول مؤلفاته كتاب «المدرسة والمجتمع» فى عام ١٨٩٩ . واسم الكتاب يدل القارئ على الاتجاه الذى اتخذه ديوى فى فلسفته الاجتماعية . وفى هذا الكتاب يصف النشاط الذهنى بأنه لا يختلف من أى نشاط آخر نؤديه بعضلاتنا أى أنه تفاعل مع الوسط . هو أقرب الأشياء إلى الرؤية . فإننا حين نرى شيئاً بعيوننا لانحس أن الرؤية هى شىء داخلى فينا ، وإنما هى تفاعل بيننا وبين هذا الشىء . أى أنها حدث

قد حدث بيننا وبين هذا الشيء . وكذلك الشأن فى التفكير فإننا لا نفكر إلا لأننا قد التفتنا إلى شيء خارج عنا أو اهتممنا به .

وإذن ليست التربية ادخار المعارف ، وإنما هى غرس العادات الحسنة فى التفكير حتى نصل إلى أحسن النتائج . وأحسن النتائج هى استخدام المعارف كما لو كانت آلات لخدمة البشر أى المجتمع .

والهدف من التربية هو إيجاد التلاؤم بين الفرد والمجتمع .

وليست الأخلاق عند ديوى شيئاً مطلقاً . وليست هناك أخلاق مثلى دائمة . وإنما هناك تغيرات اجتماعية تؤدى إلى تغيرات أخلاقية . وما دامت غايتنا هى سعادة العيش فإذن يجب أن نجعل الملاءمة بين الفرد والمجتمع غاية التربية .

ثم ينتهى بأن الأخلاق المثلى فى مجتمع ما ليست سوى الأخلاق العلمية ، كما أن خير المجتمعات هو المجتمع العلمى .

وبالطبع هنا شطط . فإن ما يزعمه ديوى من أن غاية التربية يجب أن تكون الملاءمة بين المجتمع والفرد قد يحملنا على القول بأن هذه الملاءمة تقتضينا أن نعيش فيه حتى ولو كان ظالما . ورجل الثورة الذى يحتاج إليه رقى الأمم من وقت لآخر هو رجل لا يتلاءم مع المجتمع . ومن هنا ثورته ، وهى فضيلته .

والواقع أن ديوى رأى قبل أن يموت شطط هذا الاندفاع فى التساوق مع المجتمع . فقد عقد مؤتمر أمريكى بلغ أعضاؤه نحو ٦٠٠ من خريجى الجامعات وأساتذتها . وعرض هذا الاقتراح على المؤتمرين :

أيهما أنفع ، أن نعلم الطلبة اللغة الإغريقية أم نعلمهم فن الرقص ؟ فكانت الأغلبية الساحقة فى جانب الرقص .

وذلك اعتقاداً بأن المجتمع العصرى يحتاج الفرد فيه . كى يكون

متلائماً معه ، إلى الرقص . أما لغة الإغريق فيمكن الاستغناء عنها أو على الأقل تركها للمتخصصين .

لا ليست التربية الحقة أن نتلاءم على الدوام مع المجتمع .

والأغلب أن ديوى قد احتاج إلى الإكبار من شأن الاتصال بالمجتمع وإلى جعله الأساس للتربية كي يحمل المعلمين والمربين على أن يضعوا القيمة العملية فوق القيمة النظرية فى التربية . وعلى أن يجعلوا من المدرسة مجتمعاً يتهيأ فيه التلميذ أو الطالب لأن يكون فرداً اجتماعياً له عادات اجتماعية ارتقائية ، وليس محض خزانة للمعارف الكيماوية والرياضية والتاريخية والجغرافية .

عضو نافع متطور فى مجتمع ارتقائى متطور .

وقد نجح فى هذا الشأن ، فإن « المدارس الارتقائية » فى الولايات المتحدة هى ثمرة فلسفته هذه . وهى جنات للصبيان والشبان يجدون فيها سعادة كان أسلافهم يحرمونها بالدؤوب فى دراسة واختزان المعارف .

أعتقد أنى انتفعت كثيراً ، فى تربيتى الذهنية ، بجون ديوى .

وأول انتفاعى به أنه ألح على مراراً وتكراراً بضرورة الالتزام للأسلوب العلمى فى المشكلات الاجتماعية . وبالطبع كلنا يعرف قيمة الأسلوب العلمى ، ولكن هناك من الأفكار ما نحتاج إلى أن نكرر القول فيه ، ونبدى ونعيد ، حتى يصير عادة ذهنية ثابتة وليس فكرة عابرة أو طارئة .

* * *

« هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع ؟ »

هذا السؤال الأمريكى الذى سألنيه « كليلاند » هو ما يسأله جون ديوى فى كل مشكلة ، ولذلك هو لا يفتأ ينشد التجربة التى تصحح منطق

الفكر المجرد وتوضح ما لعله قد أهمله هذا المنطق .

التجربة فى كل شىء : فى الفلسفة ، وفى الأدب ، وفى الموسيقا ، وفى الأغانى ، وفى الاجتماع . . .

ولم لا ؟

أذكر أنه عندما عمدت إحدى الوزارات الماضية إلى إلغاء البغاء بالأحكام العرفية أنى طلبت التجربة . فقلت إننا نستطيع أن نلغى البغاء الرسمى فى القاهرة وندعه فى الإسكندرية مدة عـــام ، ثم نقوم بتحقيقات بشأن الصحة الجسمة والنفسية بين فريقين مختلفين من الشبان آخر هذا العام ، فإذا ثبت لنا أن الإلغاء فى القاهرة قد نقص من الأمراض الزهرية ولم يؤد إلى تفشى الأمراض النفسية وتفشى الشذوذات التى تنشأ من التوترات الجنسية ، فإننا نعمم الإلغاء فى القطر كله . أما إذا ثبت العكس فإننا نعيد البغاء الرسمى .

هذه تجربة اجتماعية نحاول بها حل مشكلة معينة فى مجتمعنا حلا علميًّا يقوم على الإحصاءات .

وقل مثل ذلك فى الفلسفة التى تنشد صلاح العيش وتحقق السعادة للإنسان ، بل كذلك فى الفن الذى ينشد سعادة النفس وجمال الذهن وجلال العاطفة . نجرب ألحاننا وما يحدث فى نفوسنا من إحساسات الشجاعة والشهامة أو الخسة والدعارة . ونجرب أشعار شوقى أو حافظ أو أبى نواس أو المعرى ، بحيث نجعل أحد الفصول فى الأقسام الثانوية يدرس واحداً من هؤلاء ويستغرق فى إحساساته وقوافيه ، ثم نحقق آخر العام أثر هذا فى النفس والذهن والعاطفة ونخرج بالنتيجة التى توضح لنا ما نجهله .

بل كذلك التجربة فى أغانينـــا وموسيقانا بالمقارنة إلى الأغانى

والموسيقا الأوربية ، أيتهما تبعث على الانتعاش الروحي والصحة النفسية والإحساس الفنى ؟

أجل . ليست التجربة فى الكيمياء والطبيعيات وما إليها فقط ، إذ هى يجب أن تشمل حياتنا الاجتماعية كلها . نجرب فى نظام الدولة ، ونجرب فى نظام المجتمع ، ونجرب فى الزواج والطلاق ، ونجرب في طرق التعليم وفى معايش الناس حين يمارسون الزراعة أو الصناعة . .

هذه واحدة مما تعلمت من چون ديوى . وأخرى هى أن المجتمع هو الذى يربينا . ولذلك هو يقول إن المجتمع كان يمكن أن يكون هو المربى الوحيد لنا بلا مدارس . ولكننا نحتاج إلى المدرسة كى نجمع الاختبارات المختلفة التى تزيد قيمتها على غيرها فنلتفت إليها دون غيرها مما هو أقل خطورة . وبذلك نستطيع أن نكسب الطالب من هذه الاختبارات المختارة فى عام ، أكثر مما يستطيع أن يكسب من المجتمع فى سنين حين ينتظر طروء هذه الا ختبارات عليه جزافاً .

التربية للمجتمع والمجتمع للتربية ، وإذا انفصلت المدرسة عن المجتمع ، وإذا انفصل إنسان ، رجلا كان أو امرأة ، عن المجتمع فهو ، بقدر هذا الانفصال ، تنقص أو تنعدم تربيته .

* * *

وقصة صغيرة أخيرة أرويها عن چون ديوى لأنها تكاد تلخص لنا إيماءة حياته وهدف فلسفته . فإن هذا الرجل كان يحيا كى ينشد الاختبارات فى هذه الدنيا ، وهو يختبر كى يفلسف ويستقطر الحكمة والسعادة من اختباراته .

ولذلك نجده قبل نحو ست سنوات يقصد إلى قرية أو مدينة صغيرة يعيش فيها آخر أيامه بعيداً عن صخب العواصم وهرولتها . وهو يحب

حتى فى سنى شيخوخته فى هذا المعتكف أن يؤدى عملا أو خدمة للمجتمع ، فهو يربى البقر ويستدر اللبن ، فإذا جاءت طلائع الصباح حمل اللبن على عربته وهرع إلى البيوت يوزعه بالثمن المجزى . وهو يقص علينا فى فكاهة أن إحدى السيدات التى فتحت له الباب كى تتسلم منه زجاجة اللبن طلبت منه ألا يقرع هذا الباب ، وإنما يقصد إلى الباب الخلفى الذى يؤدى إلى المطبخ . . .

فيلسوف لا غش فيه . .

سارتر
زعيم الانفرادية



الفلسفة الوجودية ، المذهب الوجودى ، بول سارتر . . .

كلمات تجرى على الألسنة للمناقشة والمداعبة . . .

تجرى على ألسنة الأساتذة الذين تعمقوا الفلسفة ، أو العلميين الذين ينشدون ديناً أو مذهباً يتفق مع الثقافة المادية التى تغمرهم .

وتجرى على ألسنة الشبان والفتيات الذين وجدوا فى مذهب الحرية التى تدعو إليها الوجودية ، أو تضطر إلى الاعتماد عليها أساساً قوياً تنهض عليه ، وجدوا فيها ما يقارب الإباحة . فاستهتروا ، ولكنهم لم يخدعوا أحداً بأنهم فلاسفة أو أن بول سارتر يؤيدهم . . لا . هم شبان يضحكون ويمرحون لا أكثر .

حضرت درامة لبول سارتر فى باريس ، ولم أستطع الحصول على

تذكرتى إلا قبل ميعادها بخمسة أيام لفرط التزاحم على رؤيتها . وكان ثمنها جنيهاً كاملا ، وهذه الدرامة هى : « إبليس والله الطيب » .

وهى تحوى من الزندقة أو الهرطقة مالا يطيقه مؤمن ، ولكن المتفرجين أنصتوا وكأنهم كانوا فى قاعة جامعية يتعلمون .

إنهم شعب قد تعلم معانى التسامح ، وهو أن تتقبل فى يسر وصمت ما تتألم منه لأنك تعرف أن لغيرك الحق فى أن يعتقد غير ما تعتقد .

ولقد رأيت أحد الممثلين ينظر إلى أقدس شخصية عند المسيحيين فيقول : أنت أصم أنت أبكم !

ثم يقف ممثل آخر فيقول : « الناس متساوون ، الناس إخوة ، وهم جميعهم فى الله ، والله فيهم . والروح القدس ينطق من جميع الأفواه . وجميع الناس إنما هم كهنة وأنبياء ، وكلهم قادر كفء لأن يقوم بالتعميد وأن يشهد بالزواج ويعلن بالبشارة الطيبة ويغفر الخطايا . وكلهم يحيا الحياة العامة على الأرض فى مواجهة الناس كما يحيا الحياة الخاصة مع نفسه فى مواجهة الله » .

وهذه كلمات يستطيع القارئ المسلم أن يتحمل الكثير منها دون معارضة ، ولكن المسيحى يجد فيها المناقضة للمبادئ الكنسية إن لم نقل للمبادئ المسيحية المعروفة . ومن هنا الصدمة التى أحدثتها هذه الدرامة فى باريس للكثيرين من المؤمنين .

ولكن حتى هنا نجد سارتر رقيقاً مهذب الكلمة لطيف الإيماءة . أما فى كتبه فإنه يصارح بالإلحاد ، بل يجعل الإلحاد أساساً لفلسفته ومذهبه . وهذا على الرغم من أن هناك وجوديين ، مثل جاسبر ، وجبرايل مارسيل ، يأخذون بمذهب الوجودية مع الإيمان بالله .

وعندى أن وجودية سارتر ليست شيئاً جديداً على أوربا إلا من حيث لحجتها الهجومية . وهى عندى أيضاً ليست فلسفة ، وقصارى ما أفهمه منها أنها مذهب أخلاقى هو فى النهاية ثمرة النزعة المادية فى العلوم، كما هو ثمرة النزعة الانفرادية التى كانت تسود القرن التاسع عشر فى السياسة والأخلاق .

ما هى الوجودية ؟

هى أنك موجود . هى أنك قد وجدت .

ولكن وجودك هذا لم يكن ليزيد على سائر الأشياء الموجودة مثل الحجر والشجرة والملح والسكر . ولكنك أنت تختلف عن هذه الأشياء بأنها هى تبقى « موجودات » لا تزيد على ذلك ، أما أنت فإنك تتناول وجودك هذا بعقلك ويدك فتصوغ نفسك وتستخرج أو تستخلص جوهرك . أنت وجود أولا ثم جوهر ثانياً .

أنت تولد وتحيا على هذه الأرض سبعين أو ثمانين سنة . ونحن نعرفك وأنت فى السنة الأولى من عمرك مثلا شيئاً « موجوداً » لا أكثر . ولكن بعد أربعين أو خمسين سنة نجد أنك قد « تجوهرت » فظهرت خلاصتك وأصبحت لك دلالة ، فأنت وزير أو مؤلف أو ثرى أو محام أو فيلسوف . وهذا هو الجوهر بعد الوجود .

ومن الذى أحالك من الوجود إلى الجوهر ؟

أنت نفسك . لأن كلا منا يتناول حياته من حيث يدرى أولا يدرى ، كأنها « مشروع » يقوم بإتمامه . وقد يشرع أحدنا فى بناء بيت أو متجر أو غير ذلك من المشروعات ، ولكن حياتنا « مشروع » أيضاً . إذ نحن نبنيها منذ طفولتنا تقريباً إلى أن نموت ، وعلى قدر مهارتنا فى البناء تكون حياتنا سامية أو متوسطة أو دون المتوسط .

وما دامت الحياة مشروعاً ، وما دمت أنت تقوم بإنجاز أو إتمام هذا المشروع ، فأنت مسئول عن حياتك . عن جوهرك .

أنت مسئول لأنك حر فى اختيارك للأشياء التى انتهت بك إلى هذا الجوهر . وواضح أنك قد أخذت أحسن ما وجدت فى هذه الدنيا ، وهنا يقول سارتر بالحرف :

« ليس الإنسان شيئاً أكثر من أن يكون المشروع الذى شرعه وخططه لنفسه . ووجوده نفسه ليس قائماً إلا على الحدود والقياسات التى يحققها لنفسه ، وهو إذن ليس شيئاً أكثر من مجموع أعماله ، ليس شيئاً أكثر من حياته » .

نحن أحرار ، إذ نحن نختار أحسن ما نجد فنخطط مشروع حياتنا . وإذن نحن نخترع شخصيتنا . أجل ، إن سارتر يقول إن الإنسان يخترع الإنسان . ويقول بالحرف : « ليس الإنسان شيئاً آخر غير مجموع مشروعاته ، هو مجموع علاقاتها الواحد مع الآخر » .

وهو يلحظ هنا أن هذا المذهب يكرهه كثيرون ممن لم يصيبوا نجاحاً فى الحياة ، ولكننا نحملهم مسئولية فشلهم لأنهم أساءوا الاختيار حين اختاروا عملا معيناً يرتزقون منه ، أو أخلاقاً معينة اتخذوها للسلوك العام أو الخاص ، أو حين اختاروا زوجاتهم أو أصدقاءهم أو نحو ذلك . ويقول :

« هاك رجلا يرتبط بعمل ويؤدى خدمة ، وهو بهذا قد رسم حياته . بل ليس هناك من حياته ما يزيد على ذلك . وواضح أن هذه الفكرة تبدو قاسية عند أولئك الذين لم ينجحوا فى الحياة . . »

* * *

ما هى النقطة البؤرية عند سارتر ؟

هى الحادة ، هى أنه يقول إننا ، نحن البشر يتامى فى هذا الكون ليس لنا سند نستند إليه فى اتخاذ الأخلاق أو تعيين الأهداف « نحن همل » نحن سدى ، قد حكم علينا بالحرية . هى حكم علينا وهى ليست ميزة لنا .

ولذلك ، لأننا أحرار ، نحن فى قلق ، نحن فى حيرة ، كيف أختار ؟ كى أخطط حياتى ؟ كى أنجز مشروع حياتى ؟

ويتذكر سارتر هنا قول دستوفسكى :

« إذا لم يكن الله موجوداً فكل شىء " يجوز " . أى أن الإنسان عندئذ يصبح مجرماً يرتكب ما يشاء من جرائم كما تمليها عليه شهواته » .

ولكن سارتر يرد فيقول : لا ، إنما الإنسان حر لأنه مسئول . وهذه الشهوات لا تقود الإنسان ، إنما الإنسان هو الذى يقودها ، وهو مسئول عن التصرف بها .

هذه المسئولية هى التى تدفعه فى النهاية إلى أن يكون مسئولا عن المجتمع ، لأنه ما دام يختار أحسن الأشياء لنفسه فهو أيضاً يختار هذه الأشياء ذاتها للمجتمع الذى يعيش فيه . وهو يقول بالحرف : « إننا حين نطلب الحرية لأنفسنا نجد أنها تتوقف على حرية الآخرين كما تتوقف على حريتنا » .

وهذا عنده الرد الكافى على دستوفسكى .

وإليك منه هذه المقتبسات المثيرة :

« يجب أن نجعل الاختيار للأخلاق مثل صياغة العمل الفنى ، نصوغ حياتنا كما لو كانت تحفة فنية » .

ثم يقول : « يصف الوجوديون الرجل الجبان بأنه هو المسئول عن جبنه . وهو ليس جباناً لأن له قلباً أو رئة أو مخاً ، ليس جباناً لأن

له نظاماً فسيولوجياً معيناً ، وإنما هو جبان لأنه بنى نفسه على هذه الصورة بأعماله » . . وأيضاً : « الجبان قد صاغ نفسه بالجبن . والبطل قد صاغ نفسه بالبطولة » .

هو مذهب انفرادى ممعن فى الانفرادية . كأن المجتمع ليس مسئولا عن الفرد ، وأن الفرد ليس مسئولا عن المجتمع . وما دام الشأن كذلك فأنت مضطر إلى أن تقول إنك حر وإنك تختار ، وإنك تخترع حياتك ، وإنك مسئول عن كل ميزاتك أو نقائصك .

اعتبر كلماته هذه : « أنا محتاج إلى أن أعين القيم الأخلاقية . وإذن يجب أن نعتبر الأشياء كما هى فى الواقع . وإذا قلنا إننا نخترع هذه القيم الأخلاقية فمعنى هذا أنه ليس للحياة ، أولا ، معنى . أى قبل أن تولد أنت لم تكن الحياة شيئاً له معنى . والقيمة الأخلاقية ليست شيئاً أكثر من هذا المعنى الذى تكسبه أنت للحياة ، وإذن تجد أنه من الممكن إيجاد مجتمع بشرى على هذا الأساس » .

أصحيح هذا ؟ هل يمكن إيجاد مجتمع بشرى إذا كنا نفرض قبل كل شىء أن كل إنسان حر فى أن يخترع أخلاقه بنفسه لنفسه ؟

إن هذا إمعان فى الانفرادية التى قد تنتهى بالفوضى الاجتماعية والأخلاقية .

* * *

إنى عندما أتأمل الوجودية التى طغت على الباريسيين هذه الأيام ، أرانى أفتقد فيها الفلسفة فلا أجدها ، وأنتهى إلى أنها « مذهب » ولكنها مذهب ضار .

ذلك أن الفلسفة تمتاز بأنها يمكن البرهنة على صحة قواعدها . ولكن الوجودية تلقى بقواعدها كما لو كانت عقائد دينية ، وإن خلت من

الأساس للأديان الكبرى من حيث الإيمان بالله .

أما أنها مذهب ضار فذلك لإسرافها فى الفردية . فالإنسان عند الوجوديين مسئول أمام نفسه ولنفسه فقط . وليس مسئول أمام المجتمع ولا أمام الله .

ثم هى مع ذلك تفرض للإنسان حرية الاختيار ، كأن المجتمع بعاداته ولغته ، وسنى الطفولة التى تتكون فيها المركبات وتكاد تتجمد ، والوسط الثقافى والاجتماعى ، ووطأة الحوادث وتنوعها ، كل هذا لا يؤثر فى تكوين الفرد أو توجيهه . إذ هو حر فى الاختيار . وينسى سارتر أنه اختيار الضرورة ، اختيار الجبر .

ولكن السؤال هنا : لماذا نجحت الوجودية فى فرنسا بل فى أوربا ؟

اعتقادى أن نجاحها يرجع أولا إلى التفكير المادى الذى عم أوربا وجعل الأوربيين ينفرون من الغيبيات بأنواعها جميعاً . ويرجع ثانياً إلى إحساس الزهو الذى تضفيه الوجودية على المؤمن بها . من حيث إنه مستقل فى هذا الكون ، له حق الاختيار دون أية قوة أخرى . ويرجع ثالثاً إلى اليسر البديع فى أساوب سارتر الذى يجعل الأستاذ والطالب والحوذى والسمكرى ، يفهمونه بلا استغلاق . ولعل الوجودية أول ما فهموه من أنواع الرطانة الفلسفية . وهم بهذا الفهم سعداء مزهوون . ويرجع هذا النجاح أخيراً إلى أنها تناقض الأخلاق الاشتراكية التى تقول ، أول ما تقول ، بأن الإنسان قد تكون بالمجتمع ، ثم هو يجب أن يكون المجتمع الأمثل .

ومعنى هذا أنه أصبح للوجودية معنى سياسى ، حزبى . فهى لذلك تتسلل إلى المنابر ويأخذها الخطباء بالقدح والمدح وتذكر كلماتها وعقائدها أيام الانتخابات البرلمانية . ولذلك هى أكثر من « فلسفة » . هى كفاح ، هى سياسة ، هى حزبية .

* * *

ولو كنت أخاطب الشبان وأنشد لهم القوة والمجد لدعوتهم إلى الوجودية وعندئذ أكون معتمداً على مايسميه القانونيون « أكذوبة شرعية » أى أكذوبة أهدف منها إلى أن أجعل الشاب يحس أنه مسئول ، وأنه يستطيع أن يتسلط على القدر ويصوغ حياته كما يشاء . وأن عليه أن يأخذ حياته بالجد والبصر إذ هو مستقل ، وهو حر ، وهو قادر ، إذا شاء ، أن يصل إلى أعلى قمة فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وحين أقول هذا القول أعرف أنى ، من حيث الفلسفة والسيكاوجية والاجتماع ، كاذب. إذ أن الإنسان ليس حرًّا ، وأن الحقيقة أن المجتمع يصوغه .

وموقفى هنا لا يختلف من موقف القضاء . فإننا نحاكم المجرمين « كما لو كانوا » مسئولين ليس للمجتمع تأثير عليهم . وعلى هذا الأساس نعاقبهم .

وهكذا الشأن أيضاً فى الأخلاق . يجب أن نقول إن كل إنسان مسئول عن أخلاقه ، ونعامله كما لو كان حرًّا قد اختار هذه الأخلاق .

وإذن لا تزيد الوجودية على أن تكون مذهباً ارتقائيًّا فى الأخلاق ووسيلة إلى بعث النشاط والحيوية والجد .

* * *

سبق أن قلت إن « إلحاد » بول سارتر يعد نقطة بؤرية فى فلسفته ولكننا يجب أن نبين هنا أن هذا الإلحاد ليس هوى وليس طارئاً . لأنه إنما يتفق ويتناسق مع فلسفته ، إذ هو يقول إننا نوجد أولا ثم نتجوهر ثانياً .

أى الوجود ، الظاهر لنا ، نعرفه أولا .

ثم الجوهر ، أو الماهية ، أو الأصل ، خلف الوجود ، نعرفه ثانياً ،

إذا استطعنا ذلك . وإذا عددنا أن الله هو أصل الكون فمحاولتنا لأن نعرفه يجب ألا تكون بداية البحث .

لأن بداية البحث هي الوجود الظاهر وليست الماهية المستترة ، بل ليست هناك عند سارتر ماهية لأى شيء ، وإنما هناك وجود فقط . وقد نقول إنك تتجوهر بعد أربعين سنة ، ولكن هذا المعنى مجازى هنا ، لأننا نقصد منه أنك تتكامل وتصل إلى أقصى كفاءاتك وميزاتك .

ولذلك سارتر ينكر الإيمان بالله ، بل هو يكافح هذا الإيمان .

* * *

ويجب أخيراً ألا نقلل من إقدام سارتر على أن يكتب الفلسفة للشعب ، أو على حد قوله إنه قد أدخل الفلسفة فى السوق . فإنك تقرأه فلا تجد تلك الكلمات النابية أو العبارات المعقدة التى تجدها عند من كتبوا قديماً حين كانت الفلسفة تكتب للفلاسفة وليس للشعب ، أو كما كان يكتب الفقه للفقهاء وليس للشعب .

وهو هنا مبتكر ونافع وجرىء، ولكن الأدباء العصريين قد سبقوه بأن صاروا يكتبون منذ نحو مائتى سنة للشعب أيضاً .

وهنا فرق عظيم بين الأدب الأوربى والأدب العربى ،أو على الأقل الأدب العربى القديم . فإن أمثال المتنبى والجاحظ والفرزدق وابن الرومى كانوا أدباء يكتبون لأدباء مثلهم وليس للشعب . بل إن المتنبى كان يفخر بأن الأدباء أنفسهم لا يفهمونه ، إذ يختلفون عن معانيه ويناقشونها وهو قاعد هانئ .

وهذا التغير إنما يعزى إلى أن « الشعب » لم يكن موجوداً عند الأمم القديمة . والذى أوجده، فى أوربا هو الحركة الصناعية الجديدة التى عممت الثراء بين أفراده ثم عممت التعليم ، فصار الأدباء والفلاسفة يكتبون للشعب وليس للأدباء والفقهاء والفلاسفة .

الصفحة

فهرست

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٦٢٢٩ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١

